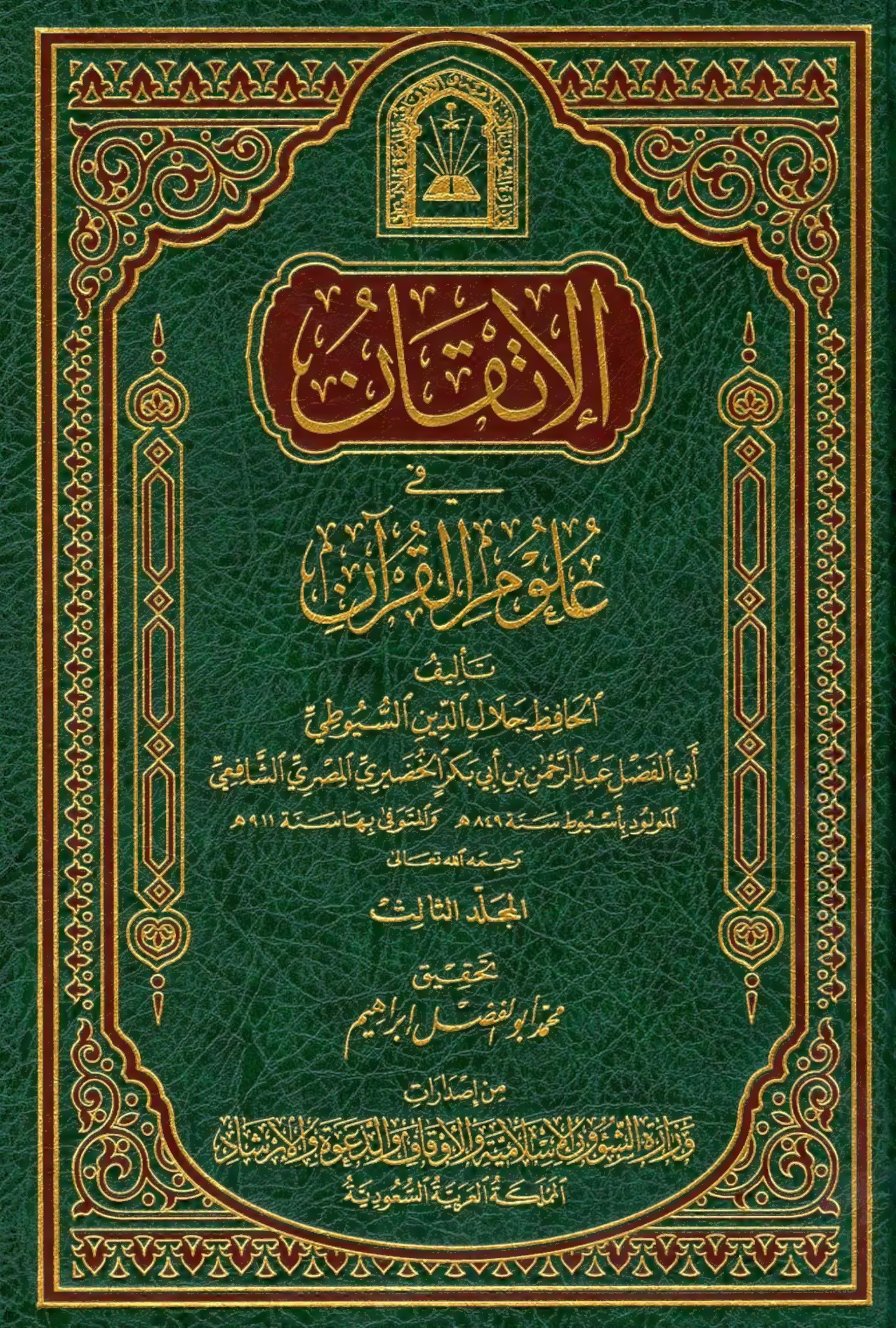
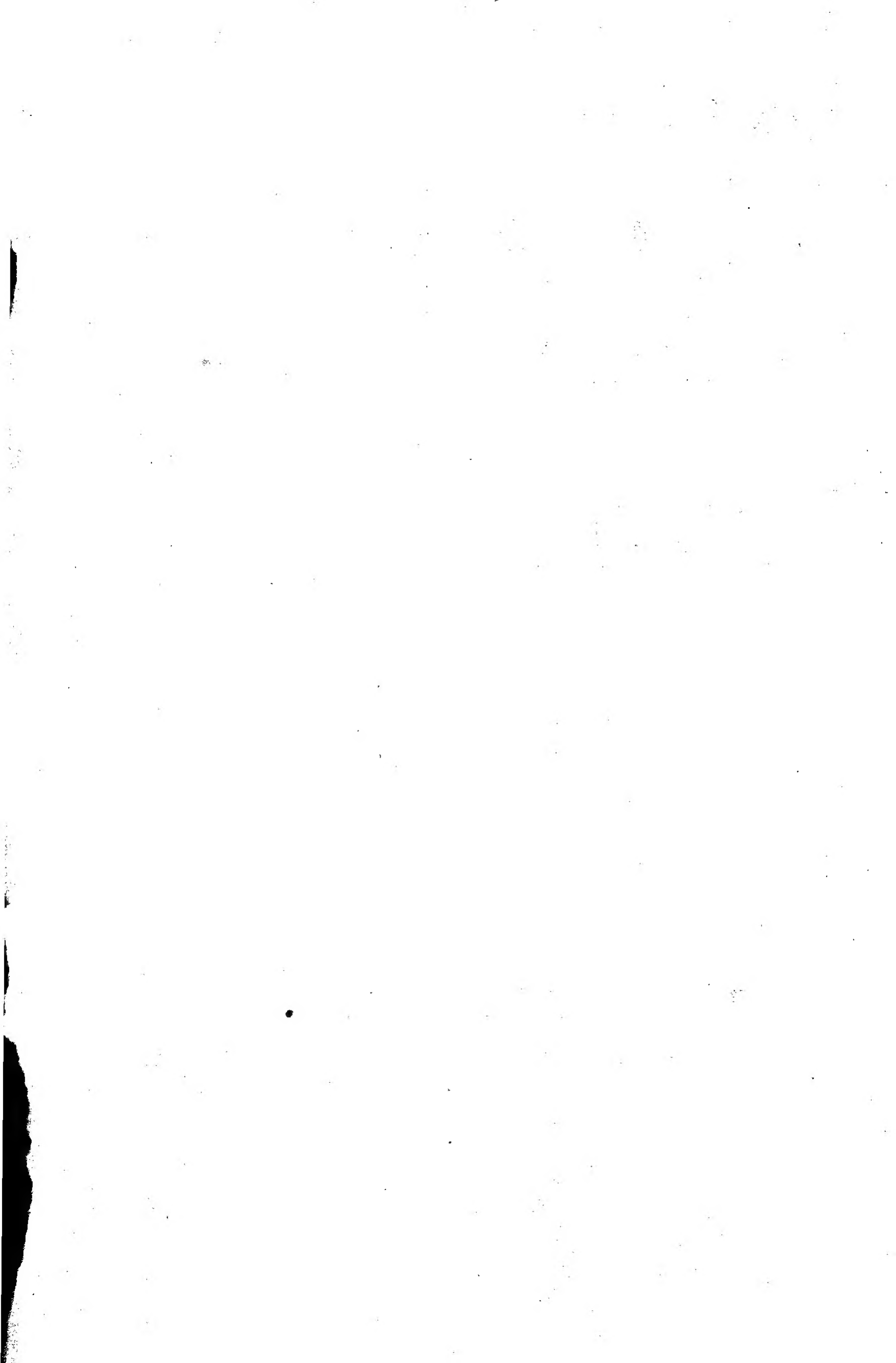

الإتقان
في
علوم القرآن
تأليف
الحافظ جلال الدين السيوطي
أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري المصري الشافعي
المولود بأسيوط سنة ٨٤٩هـ والمتوفى بها سنة ٩١١هـ
رحمه الله تعالى
المجلد الثالث
تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم
من إصدارات
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
المملكة العربية السعودية



بسم الله الرحمن الرحيم

النوع الثالث والأربعون
فى المحكم والمتشابه

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أمُّ الْكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾(١) ، وقد حكى ابن حبيبٍ النيسابورىّ فى المسألة ثلاثة أقوال :

أحدها : أن القرآن كلّه محكَم ، لقوله تعالى :﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾(٢) .

الثانى : كلّه متشابه ،لقوله تعالى :﴿ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ ﴾(٣) .

الثالث — وهو الصحيح:انقسامه إلى محكَم ومتشابِهٍ ، للآية المصدّربها .

والجوابُ عن الآيتين أنّ المراد بإحكامه إتقانه وعدم تطرّق النقض والاختلاف إليه ،وبتشابهه كونُه يشبه بعض بعضاً فى الحقّ والصدق والإعجاز(٤) .

وقال بعضهم : الآية لاتدلّ على الحصر فى الشيئين ، إذ ليس فيها شئ من طرقه ، وقد قال تعالى :﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مانُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(٥)،والمحكَم لاتتوقّف معرفته على البيان، والمتشابه لا يُرجَى بيانُه .

وقد اختُلِف فى تعيين المحكَم والمتشابه على أقوال :

فقيل: المحكَمُ ماعُرِف المراد منه ، إمّا بالظهور وإما بالتأويل ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة وخروج الدجّال والحروف المقطّعة فى أوائل السّور .

وقيل : المحكَم ما وَضَح معناه ، والمتشابه نقيضه .

---

(١) آل عمران ٧ (٢) هود ١ (٣) تلخيص البرهان ٢ : ٦٨

(٤) النحل ٤٤

وقيل: المحكم مالا يحتمل من التأويل إلاّ وجهاً واحداً، والمتشابه مااحتمل أوجهاً.

وقيل: المحكَم ما كان معقول المعنى والمتشابه بخلافه، كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان. قاله الماوردي.

وقيل: المحكَم ما استقلّ بنفسه، والمتشابه مالا يستقلّ بنفسه إلاّ بردّه إلى غيره.

وقيل: المحكَم ما تأويله تنزيله، والمتشابه مالا يُدرَى [1] إلاّ بالتأويل.

وقيل: المحكَم مالم تتكرّر ألفاظه ومقابِله المتشابه.

وقيل: المحكم الفرائض والوعد والوعيد، والمتشابه للقصص والأمثال.

أخرج ابنُ أبي حاتم، من طريق عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: المحكمات ناسخهُ وحلاله وحرامه وحدُوده وفرائضه وما يؤمَن به ويعمل به، والمتشابهات منسوخه ومقدّمه ومؤخّره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به.

وأخرج الفرْيابيّ عن مجاهد، قال: المحكمات مافيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك منه متشابه يصدّق بعضه بعضاً.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الربيع، قال: المحكمات هي الآمرة [2] الزاجرة.

وأخرج عن إسحاق بن سويد، أن يحيي بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية، فقال أبو فاختة: فواتح السور، وقال يحيي: الفرائض والأمر والنهي والحلال.

وأخرج الحاكم وغيره، عن ابن عباس، قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ... ﴾ [3] والآيتان بعدها.

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ قال: من هاهنا ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ﴾ إلى ثلاث آيات، ومن هاهنا ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [4] إلى ثلاث آيات بعدها.

---

(١) ط: «يدرك».
(٢) ط: «أوامره»
(٣) الأنعام ١٥١ — ١٥٣
(٤) الإسراء ٢٣ — ٢٦

وأخرج عبد بن حميد عن الضحّاك، قال: المحكمات مالم ينسخ منه، والمتشابهات ماقد نُسِخ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، عن مقاتل بن حيّان، قال: المتشابهات فيما بلغنا: الٓمٓ، والمصٓ، والمٓرٓ، والرٓ.

قال ابن أبي حاتم: وقد روى عن عكرمة وقتادة وغيرهما؛ أن المحكم الذى يُعمل به، والمتشابه الذى يؤمَن به ولا يُعمل به.

فصل

اختُلف: هل المتشابه ممّا يمكن الاطلاع على علمه، أو لايعلمه إلاّ الله على قولين، منشؤهما الاختلاف فى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1] هل هومعطوف و﴿يَقُولُونَ﴾ حال، أومبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ﴾ والواو للاستئناف؟ وعلى الأول طائفة يسيرة، منهم مجاهد؛ وهو رواية عن ابن عباس، فأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، قال: أنا ممّن يعلم تأويله.

وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، قال: يعلمون تأويله ويقولون آمنّا به.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحّاك قال: الرّاسخون فى العلم يعلمون تأويله، ولو لم يعلموا تأويلَه لم يعلموا ناسخه من منسوخه، ولا حلاله من حرامه، ولا محكمه من متشابهه. واختار هذا القول النوويّ، فقال فى شرح مسلم: إنه الأصحّ؛ لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لاسبيل لأحدٍ من الخلق إلى معرفته.

وقال ابن الحاجب: إنه الظاهر؛ وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم

---

(١) آل عمران ٧

ومَنْ بعدهم خصوصاً أهلَ السنة ، فذهبوا إلى الثانى ،وهوأصحّ الروايات عن ابن عباس.

قال ابن السّمعانيّ : لم يذهب إلى القول الأوّل إلاّ شِرْذِمةٌ قليلة ، واختاره القُتَبيّ قال : وقد كان يعتقد مذهب أهل السنة ، لـكنه سها فى هذه المسألة . قال : ولا غرو ، فإنّ لـكل جواد كبوة ، ولـكل عالم هفوة .

قلت : ويدلّ لصحة مذهب الأكثرين ،ما أخرجه عبدالرزّاق فى تفسيره والحاكم فى مستدركه ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ اللهُ وَيَقُولُ الرَّاسِخُون فِي العلم آمَنَّا بِهِ »[1] فهذا يدلّ على أن الواو للاستئناف،لأنّ هذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة ، فأقلّ درجاتها أن يكون خبراً بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن ، فيقدّم كلامه فى ذلك على مَنْ دونه . ويؤيد ذلك أن الآية دلّت على ذمّ متّبعى المتشابه ووصفهم بالزّيغ وابتغاء الفتنة ، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله ، وسلموا إليه كما مدح الله المؤمنين بالغيب . وحكى الفرّاء أن فى قراءة أبىّ بن كعب أيضا ﴿وَيَقُولُ الرَّاسِخُون﴾.

وأخرج ابنُ أبى داود فى المصاحف من طريق الأعمش ، قال فى قراءة ابن مسعود ﴿ وإنْ تأوِيلُهُ إلاّ عِنْدَ اللهِ والرَّاسِخُونَ فِي العلمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة ، قالت . تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَاب... ﴾ إلى قوله: ﴿ أُولُوا الْأَلْبَاب ﴾[2] قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فإذا رأيت الذين يتّبعون ماتشابه منه فأولئك الّذين سمّى الله فاحذرهم » .

وأخرج الطّبرانىّ فى الكبير عن أبى مالك الأشعرىّ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا أخاف على أمّتى إلاّ ثلاث خلال: أن يـكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الـكتاب، فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله: وما يعلم تأويله إلا الله . . » الحديث .

---

(١) آل عمران ٧

وأخرج ابن مَرْدَوَيْه ؛ من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جدّه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ القرآن لم ينزل ليكذِّب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعمَلُوا به،وما تشابه فآمنوا به » .

وأخرج الحاكم،عن ابن مسعود ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حَرْف واحدٍ ، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر ، وآمر ، وحلال ، حرام ، ومتشابِه ، وأمثال ؛ فأحِلُّوا حلالَه ، وحرّموا حرامه ، وافعلوا ما أُمِرتم به ، وانتهوا عمّا نُهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكَمه ، وآمنوا بمتشابِهِه ، وقولوا آمنّا به كل من عند ربّنا » .

وأخرج البيهقيّ في الشعب نحوه ، من حديث أبي هريرة .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس مرفوعاً : « أُنْزِل القرآن على أربعة أحرف : حلال ، وحرام ، لا يُعْذَر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسِّره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله ، ومن ادّعى علمه سِوَى الله فهو كاذب » . ثم أخرجه عن وجه آخر عن ابن عباس موقوفاً بنحوه .

وأخرج ابنُ أبي حاتم من طريق العَوْفيّ ، عن ابن عباس ، قال: « نؤمن بالمحكَم وندين به ، ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به،وهو من عند الله كلّه » .

وأخرج أيضاً عن عائشة ، قالت : « كان رسوخهم في العلم أنْ آمنُوا بمتشابِهِه ، ولا يعلمونه » .

وأخرج أيضاً عن أبي الشعثاء وأبي نَهيك ، قال : إنّكم تصِلون هذه الآية وهي مقطوعة .

وأخرج الدارميّ في مسنده ، عن سليمان بن يسار ، أنّ رجلا يقال له صَبيغ ، قدِم المدينة ، فجعل يسأل عن متشابِهِ القرآن ، فأرسل إليه عمر ، وقد أعدّ لَهُ عراجين النخل ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن صَبيغ ، فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين ،

فضربه حتى دَمِيَ رأسه، وفي رواية عنده: فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دَبِرَة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود، فقال: إن كنت تريد قتلى فاقتلني قتلاً جميلا. فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعرى ألاّ يجالسه أحد من المسلمين.

وأخرج الدارمىّ عن عمر بن الخطاب، قال: إنه سيأتيكم ناس يجادلونكم بمشتبهات القرآن، فخذوهم بالسُّنَن، فإنّ أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

فهذه الأحاديث والآثار تدلّ على أنّ المتشابه مما لا يعلمه إلّا الله، وأنّ الخوضَ فيه مذموم، وسيأتى قريباً زيادة على ذلك.

قال الطّيبىّ: المراد بالمحكَم ما اتّضح معناه، والمتشابه بخلافه؛ لأن اللفظ الذى يقبل معنًى، إمّا أن يحتمل غيره أولا، والثانى النصّ، والأول إما أن تكون دلالته على ذلك الغير أرجح أولا، والأول هو الظاهر، والثانى إما أنْ يكون مساويَه أولا، والأوّل هو المجمل والثانى المؤوّل فالمشترك بين النص والظاهر هو المحكَم، والمشترك بين المجمل والمؤوّل هو المتشابه. ويؤيد هذا التقسيم أنه تعالى أوقع المحكم مواقعاً[1] للمتشابه، قالوا: فالواجب أن يفسَّر المحكم بما يقابله. ويعضد ذلك أسلوب الآية، وهو الجمع مع التقسيم، لأنه تعالى فرّق ما جمع فى معنى الكتاب، بأن قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾، وأراد أن يضيف إلى كل منهما ما شاء، فقال أولا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ إلى أن قال: ﴿والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، وكان يمكن أن يقال: «وأما الذين فى قلوبهم استقامة، فيتبعون المحكَم» لكنّه وضع موضع ذلك ﴿والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لإتيان لفظ الرسوخ؛ لأنه لا يحصل إلا بعد التتبع[2] العام والاجتهاد البليغ، فإذا استقام القلب على طرق الإرشاد، ورسخ القدمُ فى العلم أفصح صاحبُه النطق بالقول الحق، وكفى بدعاء الراسخين فى العلم ﴿رَبَّنَا

---

(١) ط: «مقابلا». (٢) ط: «التثبت».

لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا . . .﴾ [١] إلى آخره شاهداً على أن ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مقابل لقوله : ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ . وفيه إشارة إلى أن الوقف على قوله : ﴿إلاَّ اللهُ﴾ تامّ ، وإلى أن عِلْم بعض المتشابه مختصّ بالله تعالى ، وأنْ من حاول معرفته هو الذى أشار إليه فى الحديث ، بقوله : « فاحذروهم » .

وقال بعضهم : العقل مبتلًى باعتقاد حقّيّة المتشابه كابتلاء البدَن بأداء العبادة كالحكيم إذا صنّف كتاباً أجمل فيه أحياناً ، ليكون موضع خضوع المتعلّم لأستاذه ، وكالملِك يتخذ علامة يمتازبها مَنْ يُطلعه على سرّه . وقيل: لو لم يبتلَ العقل الذى هو أشرف البدن، لاستمرّ العالم فى أبهة العلم على التمرّد ، فبذلك يستأنس إلى التذلّل بعز العبوديّة ، والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها استسلاماً واعترافاً بقصورِها. وفى ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ تعريضٌ بالزائغين ، ومدح للراسخين ، يعنى مَنْ لم يتذكّر ويتّعظ ويخالف هواه ، فليس من أولِي العقولِ، ومن ثَمَّ قال الراسخون : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا...﴾ إلى آخر الآية ، فخضعوا لبارئهم لاستنزال العلم اللَّدُنّيّ، بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفسانىّ .

وقال الخطابىّ : المتشابه على ضربين: أحدهما إذا رُدّ إلى المحكَم واعتُبر به عرف معناه، والآخر مالا سبيل إلى الوقوف على حقيقته؛ وهو الذى يتّبعه أهل الزيغ فيطلبون تأويله ، ولا يبلغون كنهَه ، فيرتابون فيه فيفتتِنون .

وقال ابن الحصّار: قسم اللهُ آياتِ القرآن إلى محكَم ومتشابه ، وأخبر عن المحكمات أنها أمّ الكتاب ، لأن إليها تردّ المتشابهات ، وهى التى تعتمد فى فهم مراد الله من فى كلّ ما تعبّدهم به من معرفته وتصديق رسله وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ؛ وبهذا الاعتبار كانت أمّهات . ثم أخبر عن الّذين فى قلوبهم زيغ أنّهم هم الذين يتّبعون ماتشابه منه ؛ ومعنى ذلك أن مَنْ لم يكن على يقين من المحكَمات، وفى قلبه شكٌّ واسترابة

---

(١) سورة آل عمران ٨

كانت راحته في تتبّع المشكلات المتشابهات ؛ ومراد الشارع منها التقدّم إلى فهم المحكمات ، وتقديم الأمّهات ؛ حتى إذا حصل اليقين ورسخ العِلْم لم تبل بما أشكل عليك. ومراد هذا الذى فى قلبه زيغ التقدّم إلى المشكلات ؛ وفهْمُ المتشابه قبل فَهم الأمهات، وهو عكس المعقول والمعتاد والمشروع ؛ ومثَل هؤلاء مثل المشركين الذين يقترحون على رسلهم آياتٍ غير الآيات التى جاءوا بها ، ويظنّون أنهم لو جاءتهم آيات أُخَر لآمنوا عندها جهلا منهم ، وما عَلِموا أنّ الإيمانَ بإذنِ الله تعالى . انتهى .

وقال الراغب فى مفردات القرآن : الآياتِ عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب : محكَم على الإطلاق ، ومتشابه على الإطلاق ، ومحكَمٌ من وجه متشابه من وجه .

فالمتشابه بالجملة ثلاثة أضرب :

متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط ومن جهتهما .

فالأول ضربان : أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة ؛ إما من جهة الغرابة نحو « الأبّ » و « يزفون » ، أو الاشتراك كاليد واليمين [1] .

وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركّب ؛ وذلك ثلاثة أضرب :

ضرب لاختصار الكلام [2] ، نحو ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ [3] ،

وضرب لبسطه ، نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [4] ، لأنه لو قيل « ليس مثله شىء » كان أظهر للسامع .

وضرب لنظم الكلام ، نحو ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا﴾ [5] ، تقديره « أنزَلَ على عَبْدِهِ الكتابَ قيِّماً ولَمْ يَجْعَلْ له عوجًا » .

والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة ؛ فإن تلك الأوصاف لا تتصوّر لنا ؛ إذ كان لا يحصل فى نفوسنا صورة ما لم نحسّه ، أو ليس من جنسه .

والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب :

الأول من جهة الكمية كالعموم والخصوص ، نحو ، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [6] ،

---

(١) المفردات : « وإما من جهة مشاركة فى اللفظ » (٢) المفردات : ابسط الكلام » .
(٣) النساء ٣ (٤) الشورى ١١ (٥) الكهف ١ ، ٢
(٦) التوبة ٥

والثانى من جهة الكيفية كالوجوب والندب، نحو ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ﴾ (١).

والثالث من جهة الزّمان كالناسخ والمنسوخ، نحو ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (٢).

والرابع من جهة المكان والأمور التى نزلت فيها، نحو ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ (٣)، ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ (٤)، فإنّ من لا يعرف عادتهم فى الجاهلية يتعذّر عليه تفسير هذه الآية:

الخامس من جهة الشّروط، التى بها يصحّ بها الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح.

قال: وهذه الجملة إذا تصوّرت، علم أن كلّ ما ذكره المفسّرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم.

ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب:

ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة وخروج الدابّة ونحو ذلك.

وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام الغالقة.

وضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين فى العلم، ويخفى على من دونهم وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس: اللهم فقّهه فى الدين وعلّمه التأويل».

وإذا عرفت هذه الجهة عرفت أن الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾، ووصله بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائز، وأنّ لكلّ واحد منهما وجهاً حسبما دلّ عليه التفصيل المتقدم. انتهى (٥).

---

(١) النساء ٣ (٢) آل عمران ١٠٢ (٣) البقرة ١٨٩
(٤) التوبة ٣٧ (٥) مفردات الراغب ٢٥٤

وقال الإمام فخر الدين : صرف اللفظ عن الراجح إلى المرجوح لابدّ فيه من دليل منفصل ، وهو إمَّا لفظيّ أو عقليّ :

والأول لايمكن اعتباره فى المسائل الأصولية ،لأنه لايكون قاطعاً ، لأنه موقوف على انتفاء الاحتمالات العشرة المعروفة،وانتفاؤها مظنون والموقوف على المظنون مظنون، والظنيّ لا يكتفى به فى الأصول .

وأما العقليّ ؛ فإنّما يفيد صرف اللفظ من ظاهره لكونه الظاهر محالًا ، وأما إثبات المعنى المراد فلا يمكنُ بالعقل ؛ لان طريق ذلك ترجيح مجازٍ على مجاز،وتأويل على تأويل، وذلك الترجيح لايمكن إلاّ بالدليل اللفظى والدّليل اللفظيّ فى الترجيح ضعيف ، لايفيد إلاّ الظنّ، والظن لايعوّل عليه فى المسائل الاصوليةّ القطعيه ؛ فلهذا اختار الأئمة المحققون من السّلف والخلف بعد إقامة الدليل القاطع على أنّ حمل اللفظ على ظاهره محالٌ ، تركَ الخوض فى تعيين التأويل . انتهى.

وحسبك بهذا الكلام من الإمام !

* * *

فصـــل

من المتشابه آيات الصّفات ، ولابن اللّبّان فيها تصنيف مفرد ، نحو ﴿ الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوى ﴾[1] ،﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾[2] ، ﴿ وَيَبْقَى وَجْـهُ رَبِّكَ ﴾[3] ، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[4] ، ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[5] ، ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[6] .

وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها ، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى،ولا نُفسّرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها .

---

(١) طه ٥ — (٢) القصص ٨٨ — (٣) الرحمن ٢٧

(٤) طه ٣٩ — (٥) الفتح ١٠ — (٦) الزمر ٦٧

أخرج أبو القاسم اللالكائى[١] فى السنة عن طريق قرة بن خالد ، عن الحسن، عن أمه ، عن أم سلمة فى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر .

وأخرج أيضاً عن ربيعة بن عبد الرحمن ، أنه سُئل عن قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، فقال : الإيمان غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ المبين، وعلينا التصديق .

وأخرج أيضاً عن مالك ، أنه سئل عن الآية ، فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بِدْعة .

وأخرج البيهقىّ عنه ، أنه قال : «هو كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف وكيف». مرفوع .

وأخرج اللالكائىّ عن محمد بن الحسن، قال : اتفق الفقهاء كلُّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الترمذيّ فى الكلام على حديث الرؤية : المذهب فى هذا عند أهل العلم من الأئمة ، مثل سفيان الثورىّ ومالك وابن المبارك وابن عُيَيْنَة ووكيع وغيرهم ، أنهم قالوا : « نروى هذه الأحاديث كما جاءت ، ونؤمن بها ، ولا يقال : كيف ، ولا نفسر ولا نتوهم » .

وذهبت طائفة من أهل السُّنَّة على أننا نؤوّلها على ما يليق بجلاله تعالى ؛ وهذا مذهب الخلف . وكان إمام الحرمين يذهب إليه ، ثم رجع عنه ، فقال فى الرسالة النظامية : الذى نرتضيه ديناً ، وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة ، فإنهم دَرَجُوا على ترك التعرّض لمعانيها .

وقال ابن الصَّلاح : على هذه الطريقة مضَى صدْرُ الأمّة وساداتها ، وإياها اختار

---

(١) هو هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائى، منسوب إلى اللوالك التى تلبس فى الأرجل، على خلاف القياس. كان من من فقهاء الشافعية ، وصاحب كتاب السنن ، توفى سنه ٤١٨ . تاريخ بغداد ١٤ : ٧٠

أئمة الفقهاء وقاداتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها .

واختار ابن برهان مذهب التأويل ، قال : ومنشأ الخلاف بين الفريقين : هل يجوز أن يكون فى القرآن شىء لم نعلم معناه ، أولا ، بل يعلمه الراسخون فى العلم ؟

وتوسط ابن دقيق العيد فقال : إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيداً توقفنا عنه ، وآمنا بمعناه على الوجه الذى أريد به مع التنزيه ، قال : وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب ، قلنا به من غير توقيف كما فى قوله تعالى: ﴿ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾[1] ، فنحمله على حق الله وما يجب له .

ذكر ما وقفت عليه من تأويل الآية المذكورة
على طريقة أهل السنة

من ذلك صفة الاستواء ، وحاصل ما رأيت فيها سبعة أجوبة :

أحدها : حكى مقاتل والكلبى عن ابن عباس ، أن « استوى » بمعنى استقر ، وهذا إن صح يحتاج إلى تأويل ، فإن الاستقرار يشعر بالتجسيم .

ثانيها : أن « استوى » بمعنى « استولى » ورد بوجهين :

أحدهما : أن الله تعالى مستول على الكونين والجنة والنار وأهلهما ، فأى فائدة فى تخصيص العرش !

والآخر أن الاستيلاء ، إنما يكون بعد قهر وغلبة ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك .

أخرج اللالكائى فى السنة عن ابن الأعرابى ، أنه سئل عن معنى « استوى» فقال : هو على عرشه كما أخبر ، فقيل : يا أبا عبدالله معناه « استولى » ؟ قال : اسكت ،

---

(١) الزخرف ٥٦ .

لا يقال : استوى على الشئ ؛ إلا إذا كان له مضاد ، فإذا غلب أحدهما قيل: استولى .

ثالثها : إنه بمعنى صعد، قاله أبو عبيد ؛ ورد بأنه تعالى منزه عن الصعود أيضاً .

رابعها : أن التقدير : « الرحمن علا »، أي ارتفع من العلو، والعرش له استوى . حكاه إسماعيل الضرير في تفسيره .

ورد بوجهين : أحدهما أنه جعل على فعلا، وهي حرف هنا باتفاق ، فلو كانت فعلا لكتبت بالألف، كقوله : ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [1] . والآخر أنه رفع «العرش» ، ولم يرفعه أحد من القراء .

خامسها : أن الكلام تم عند قوله : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، ثم ابتدأ بقوله : ﴿اسْتَوَىٰ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

ورُدَّ بأنه يزيل الآية عن نظمها ومرادها .

قلت : ولا يتأتى له في قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ .

سادسها : أن معنى «استوى» أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه ، كقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [2] ، أي قصد وعمد إلى خلقها ، قاله الفراء والأشعري وجماعة أهل المعاني. وقال إسماعيل الضرير: إنه الصواب .

قلت : يبعده تعديته بعلى ، ولو كان كما ذكروه لتعدى بإلى كما في قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [2] .

سابعها : قال ابن اللبان : الاستواء المنسوب إليه تعالى بمعنى اعتدل ، أي قام بالعدل، كقوله تعالى : ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [3] ، والعدل هو استواؤه، ويرجع معناه إلى أنه أعطى بعزته كل شئ خلقه موزوناً بحكمته البالغة .

* * *

ومن ذلك النفس في قوله تعالى : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [4] ،

---

(١) القصص ٤ (٢) فصلت ١١ (٣) آل عمران ١٨
(٤) المائدة ١١٦

ووُجِّه بأنه خرِّج على سبيل المشاكله مراداً به الغيب ؛ لأنه مستتر كالنفس .

وقوله : ﴿ ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾[١] أى عقوبته وقيل : إيّاه .

وقال السُّهيلىّ : النفس عبارة عن حقيقة الوجود دون معنى زائد ، وقد استعمل من لفظة النفاسة والشئ النفيس ، فصلَحت لا تعبير عنه سبحانه وتعالى .

وقال ابن اللّبان : أوّلها العلماء بتأويلات ؛ منها أن النفس عُبِّر بها عن الذات ، قال : وهذا وإن كان سائغاً فى اللّغة ، ولـكن تعدِّى الفعل إليها بفى المفيدة للظرفية محال عليه تعالى . وقد أوّلها بعضهم بالغيب ، أى ولا أعلم مافى غيبك وسرِّك ، قال : وهذا حسن لقوله فى آخر الآية : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوب ﴾[١] .

* * *

ومن ذلك الوجه وهو مؤوّل بالذات . وقال ابن اللّبان فى قوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[٢] ، ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾[٣] ، ﴿ إِلاَّ ابتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾[٤] ، المراد إخلاص النيَّة .

وقال غيره فى قوله : ﴿ فَثَمَّ وجهُ اللهِ ﴾[٥] ، أى الجهة التى أمر بالتوجّه إليها .

* * *

ومن ذلك : العَيْن ، وهى مؤوّلة بالبصر أو الإدراك . بل قال بعضهم : إنها حقيقة فى ذلك خلافاً لتوهّم بعض الناس أنها مجاز ، وإنما المجاز فى تسمية العضو بها .

وقال ابن اللّبان : نسبة العين إليه تعالى اسم لآياته المبصرة ، التى بها سبحانه ينظر للمؤمنين ، وبها ينظرون إليه ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتنا مُبْصِرَةً ﴾[٦] : نسب البصر للآيات على سبيل المجاز تحقيقاً ، لأنها المرادة بالعين المنسوبة إليه ، وقال : ﴿ قَدْ

---

(١) آل عمران ٢٩ — (٢) الأنعام ٥٢ — (٣) الإنسان ٩
(٤) الليل ٢٠ — (٥) البقره ١١٥ — (٦) النمل ١٣

جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾[١]، قال: فقوله: ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[٢]، أى بآياتنا تنظر بها إلينا، وننظر بها إليك، قال: ويؤيد أن المراد بالأعين هنا الآيات كونه عَلَّل بها الصبر لحكم ربه صريحاً فى قوله: ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا * فاصبر لحكم ربك ﴾[٣]، قال: وقوله فى سفينة نوح: ﴿ تجرى بأعيننا ﴾[٤]، أى بآياتنا، بدليل: ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ﴾[٥]، وقال: ﴿ ولتصنع على عينى ﴾[٦]، أى على حكم آيتى التى أوحيتها إلى أمك، ﴿ أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ... ﴾[٧]، الآية. انتهى.

وقال غيره: المراد فى الآيات كلاءته تعالى حفظه.

* * *

ومن ذلك: اليد فى قوله: ﴿ لما خلقت بيدى ﴾[٨]، ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾[٩]، ﴿ مما عملت أيدينا ﴾[١٠]، ﴿ وأن الفضل بيد الله ﴾[١١]، وهى مؤولة بالقدرة.

وقال السهيلى: اليد فى الأصل كالبصر عبارة عن صفة لموصوف، ولذلك مدح سبحانه وتعالى بالأيدي مقرونة مع الأبصار فى قوله: ﴿ أولى الأيدى والأبصار ﴾[١٢]، ولم يمدحهم بالجوارح، لأن المدح إنما يتعلق بالصفات لا بالجواهر، قال: ولهذا قال الأشعرى: إن اليد صفة ورد بها الشرع. والذى يلوح من معنى هذه الصفة أنها قريبة من معنى القدرة، إلا أنها أخص والقدرة أعم، كالمحبة مع الإرادة والمشيئة؛ فإن فى اليد تشريفاً لازماً.

وقال البغوى فى قوله: ﴿ بيدى ﴾: فى تحقيق الله التثنية فى اليد دليل على أنها ليست بمعنى القدرة والقوة والنعمة، وإنما هما صفتان من صفات ذاته.

---

(١) الأنعام ١٠٤ (٢) الطور ٤٨ (٣) الإنسان ٢٣
(٤) القمر ١٤ (٥) هود ٤١ (٦) طه ٣٩
(٧) القصص ٧ (٨) ص ٧٥ (٩) الفتح ١٠
(١٠) يس ٧١ (١١) الحديد ٢٩ (١٢) ص ٤٥

وقال مجاهد : اليد هاهنا صلة وتأكيد ، كقوله : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾[١]، قال البغوىّ : وهذا تأويل غير قوىّ ، لأنها لو كانت صلة لكان لإبليس أن يقول : إن كنت خلقته فقد خلقتنى ، وكذلك فى القدرة والنعمة لا يكون لآدم فى الخلق مزيّة على إبليس .

وقال ابن اللبّان[٢] : فإن قلتَ : فما حقيقة اليدين فى خلق آدم؟ قلت : الله أعلم بما أراد ؛ ولكن الذى استثمرته من تدبّر كتابه ، أنّ « اليدين » استعارة لنور قدرته القائم بصفة فضله ، ولنورها القائم بصفة عدله . ونبّه على تخصيص آدم وتكريمه بأن جمع له فى خلقه بين فضله وعدله . قال : وصاحبة الفضل هى اليمين ، التى ذكرها فى قوله : ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[٣] سبحانه وتعالى .

* * *

ومن ذلك : الساق فى قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[٤] ، ومعناه عن شدّة وأمر عظيم ، كما يقال : قامت الحرب على ساق .

أخرج الحاكم فى المستدرك من طريق عِكْرمة ، عن ابن عباس ، أنه سئل عن قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ ، قال : إذا خفىَ عليكم شىء من القرآن فابتغوه فى الشّعر ، فإنّه ديوان العرب ، أما سمعتم قول الشاعر :

اصبر عناقِ إنّه شرّ باقْ ‏ ‏ ‏ ‏ قد سنّ لى قومك ضرب الأعناقْ

وقامت الحربُ بنا على ساقْ

قال ابن عباس : هذا يوم كرب وشدة .

* * *

ومن ذلك : الجنب فى قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾[٥] ، أى

---

(١) الرحمن ٢٧ (٢) هو محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الدمشقى ، مفسر من علماء العربية ، وله كتاب « ردّ معانى الآيات المتشابهات إلى معانى الآيات المحكمات » . توفى سنة ٧٤١ ــ الدرر الكامنة ٣ : ٣٣٠

(٣) الزمر ٦٨ (٤) القلم ٤٢ (٥) الزمر ٥٦

فى طاعته وحقه ، لأن التفريط إنما يقع فى ذلك ، ولا يقع فى الجنب المعهود .

* * *

ومن ذلك : صفة القرب فى قوله : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[١] ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[٢] ، أى بالعلم .

ومن ذلك : صفة الفوقيـــة فى قوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[٣] ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[٤] ، والمراد بها العلو من غير جهة ، وقدقال فرعون : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾[٥] ، ولا شك أنه لم يُرِد العلوَّ المكانىّ .

ومن ذلك : صفة المجئ فى قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾[٦] ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾[٧] ، أى أمره ؛ لأن الملك إنما يأتى بأمره أو بتسليطه ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[٨] ، فصار كما لو صرَّح به .

وكذا قوله : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾[٩] ، أى اذهب بربك ، أى بتوفيقه وقوته .

ومن ذلك : صفة الحبِّ فى قوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[١٠] ، ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾[١١] .

وصفة الغضب فى قوله : ﴿ وغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾[١٢] .

وصفة الرضا فى قوله : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾[١٣] .

وصفة العجب فى قوله : ﴿ بَلْ عَجِبْتُ ﴾[١٤] ، بضم التاء ، وقوله : ﴿ وإن تعجب فعجبٌ قَوْلُهُمْ ﴾[١٥] .

---

(١) البقرة ١٨٦ (٢) ق ١٦ (٣) الأنعام ١٨

(٤) النحل ٥٠ (٥) الأعراف ١٢٧ (٦) الفجر ٢٢

(٧) الأنعام ١٥٨ (٨) الأنبياء ٢٧ (٩) المائدة ٢٤

(١٠) المائدة ٥٤ (١١) آل عمران ٣١ (١٢) الفتح ٦

(١٣) المائدة ١١٩ (١٤) الصافات ١٢ (١٥) الرعد ٥

وصفة الرحمة فى آيات كثيرة .

وقد قال العلماء : كلّ صفة يستحيل حقيقتها على الله تعالى تفسّر بلازمها ، قال الإمام فخر الدين : جميع الأعراض النفسانية — أعنى الرحمة والفرح ، والسُّرور والغضب ، والحياء والمكر والاستهزاء — لها أوائل ولها غايات ، مثاله الغضب فإنّ أوّله غليان دم القلب ، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه ، فلفظ الغضب فى حق الله لا يحمل على أوله الذى هو غليان دم القلب ، بل على غرضه الذى هو إرادة الإضرار ؛ وكذلك الحياء له أوّل وهو انكسار يحصل فى النفس ، وله غرض وهو ترك الفعل ، فلفظ الحياء فى حقّ الله يحمل على ترك الفعل لا على انكسار النفس ، انتهى .

وقال الحسين بن الفضل : العجب من الله إنكار الشىء وتعظيمه . وسئل الجنيد عن قوله : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ ، فقال : إن الله لا يعجب من شىء ، ولكن الله وافق رسوله ، فقال : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ ، أى هو كما تقول .

* * *

ومن ذلك : لفظة « عند » فى قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [1] ، و﴿ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ [2] ، ومعناها الإشارة إلى التمكين والزلفى والرفعة .

* * *

ومن ذلك قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ [3] أى بعلمه ، وقوله : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ ﴾ [4] .

قال البيهقىّ : الأصحّ أن معناه أنه المعبود فى السموات وفى الأرض ، مثل قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ ﴾ [5] .

---

(١) الأعراف ٢٠٦ (٢) المائدة ٥٢ (٣) الحديد ٤
(٤) الأنعام ٣ (٥) الزخرف ٨٤

وقال الأشعريّ : الظرف متعلّق بـ« يعلم » أى عالم بما فى السموات والأرض .

* * *

ومن ذلك قوله : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ [1] ، أى سنقصد لجزائكم

تنبيه

قال ابن اللبّان : ليس من المتشابه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [2] ، لأنه فسّره بعده بقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ ، تنبيها على أن بطشه عبارة عن تصرّفه فى بدئه وإعادته وجميع تصرفاته فى مخلوقاته .

فصل

ومن المتشابه أوائل السور ، والمختار فيها أيضا أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، أخرج ابن المنذر وغيره ، عن الشعبى ، أنه سئل عن فواتح السور ، فقال : إن لكلّ كتاب سرًّا ، وإنّ سرّ هذا القرآن فواتح السور .

وخاض فى معناها آخرون ، فأخرج ابن أبى حاتم وغيرهُ من طريق أبى الضحى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : أنا اللهُ أعلم ، وفى قوله : ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ ، قال : أنا الله أفصِل ، وفى قوله : ﴿ الٓر ﴾ : أنا الله أرَى .

وأخرج من طريق سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿ نٓ ﴾ قال : اسم مقطّع .

وأخرج من طريق عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : ﴿ الٓر وحمٓ ونٓ ﴾ حروف الرحمن مفرّقة .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظىّ ، قال : ﴿ الٓر ﴾ من الرحمن .

---

(١) الرحمن ٣١ (٢) البروج ١٢ ، ١٣

وأخرج عنه أيضاً قال : ﴿ المص ﴾ الألف من الله ، والميم من الرحمن ، والصاد من الصمد .

وأخرج أيضاً عن الضحاك في قوله : ﴿ المص ﴾ قال : أنا الله الصادق ، وقيل : ﴿ المص ﴾ معناه المصور ، وقيل : ﴿ الر ﴾ معناه أنا الله أعلم وأرفع ، حكاهما الكرماني في غرائبه .

وأخرج الحاكم وغيره من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في ﴿ كهيعص ﴾ ، قال : الكاف من كريم ، والهاء من هادٍ ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق .

وأخرج الحاكم أيضاً من وجه آخر عن سعيد بن عباس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ ، قال : كافٍ هادٍ أمين عزيز صادق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، من طريق السُّدّي ، عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مُرّة عن ابن مسعودٍ وناس من الصحابة في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ ، قال : هو هجاء مقطّع : الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصوِّر .

وأخرج عن محمد بن كعب مثله إلا أنه قال : والصاد من الصمد .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردوية من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : كبير ، هادٍ ، أمين ، عزيز ، صادق .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبيّ ، عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : الكاف الكافي ، والهاء الهادي ، والعين العالم ، والصاد الصادق .

وأخرج من طريق يُوسف بن عطية قال : سئل الكلبي عن ﴿ كهيعص ﴾ ، فحدّث عن أبي صالح ، عن أم هانئ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كافٍ ، هاد ، أمين ، عالم ، صادق » .

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن عِكْرِمة في قوله: ﴿ كهيعص ﴾ قال: يقول: أنا الكبير، الهادي، عليٌّ، أمين، صادق.

وأخرج عن محمد بن كعب في قوله: ﴿ طه ﴾، قال: الطّاء من ذى الطّول، والسّين من القُدّوس، والميم من الرّحمن.

وأخرج عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿ حم ﴾، قال: حاء اشْتُقّت من الرحمن، وميم اشْتُقّت من الرحيم.

وأخرج عن محمد بن كعب في قوله ﴿ حم عسق ﴾، قال: الحاء والميم من الرّحمن، والعين من العليم، والسّين من القدوس، والقاف من القاهر.

وأخرج عن مجاهد، قال: فواتح السّور كلّها هجاء مقطّع.

وأخرج عن سالم بن عبد الله، قال: ﴿ الم وحم ون ﴾ ونحوها اسم الله مقطعة.

وأخرج عن السّدّىّ، قال: فواتح السور أسماء من أسماء الرّبّ جلّ جلاله فرّقَتْ فى القرآن.

وحكى الكرمانىّ فى قوله: ﴿ ق ﴾ إنه حرف من اسمه، قادر وقاهر.

وحكى غيره فى قوله: ﴿ ن ﴾ إنه مفتاح اسمه تعالى: نور وناصر.

وهذه الأقوال كلها راجعة إلى قول واحد، وهو إنها حروف مقطّعة، كلُّ حرفٍ منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى، والاكتفاء ببعض الكلمة معهود فى العربية قال الشاعر:

* قلتُ لها قفى فقالت قافْ * (١)

---

(١) الرجز للوليد بن عقبة، الأغانى ٥ : ١٣١ وتفسير الطبرى ١ : ٢١٢، وبعده

* لاتحسبى أنّا نسينا الإرجافْ *

أي وقفت. وقال :

بالخير خيرات وإنْ شرًّا فا * ولا أريد الشرّ إلا أنْ تا [١]

أراد : وإن شرًّا فشرّ وإلاّ أنْ تشاء .

وقال :

نادام ألاَ الجموا ألاَ تا * قالوا جميعاً كُلّهم ألافا

أراد ألاَ تركبون، ألا فاركبوا .

وهذا القول اختاره الزّجاج ، وقال: العرب تنطق بالحرف الواحد تدلّ عليه به على الكلمة التي هو منها . وقيل إنها الاسم الأعظم ، إلاّ أنّا لا نعرف تأليفه منها . كذا نقله ابن عطية .

وأخرج ابنُ جرير بسندٍ صحيح عن ابن مسعود ، قال : هو اسم الله الأعظم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السُّدّيّ أنه بلغه عن ابن عباسٍ قال : ﴿ الٓمٓ ﴾ ، اسم من أسماء الله الأعظم .

وأخرج ابن جرير وغيره من طريق عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : ﴿ الٓمٓ ﴾ ، و﴿ طسٓمٓ ﴾ ، و﴿ صٓ ﴾ وأشباهها قَسَم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله، وهذا يصلح أن يكون قولا ثالثاً ، أي أنها برُمّتها أسماء لله ويصلح أن يكون من القول الأول ومن الثاني . وعلى الأول مشى ابن عطية وغيره . ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه في تفسيره من طريق نافع بن أبي نُعيم القاريء ، عن فاطمة بنت عليّ بن أبي طالب أنها سمعت عليّ بن أبي طالب يقول : يا ﴿ كهيعص ﴾ اغفر لي ، وما أخرجه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ كهيعص ﴾ قال : يامن يجير ولا يجار عليه .

---

(١) سيبويه ٢ : ٦٢ ، شرح شواهد الشافيه ٢٦٢

وأخرج عن أشهب ، قال : سألت مالك بن أنس : أينبغي لأحد أن يتسمى بـ﴿يس﴾؟ فقال : ما أراه ينبغي، لقول الله: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ ، يقول : هذا اسمي تسميت به .

وقيل هي أسماء للقرآن كالفرقان والذكر ، أخرجه عبد الرزاق عن قتادة ، وأخرجه ابن أبي حاتم بلفظ « كل هجاء في القرآن فهو اسم من أسماء القرآن » .

وقيل : هي أسماء للسور ، نقله الماوردي وغيره عن زيد بن أسلم ، ونسبه صاحب الكشاف إلى الأكثر .

وقيل : هي فواتح للسور كما يقولون في أول القصائد « بل » و« لا بل » .

أخرج ابن جرير ، من طريق الثوري ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : ﴿الم﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿المص﴾ و ﴿ص﴾ ، ونحوها فواتح افتتح الله بها القرآن .

وأخرج أبو الشيخ ، من طريق ابن جريج ، قال : قال مجاهد. ﴿الم﴾ و ﴿المر﴾ فواتح افتتح الله بها القرآن .

قلت : ألم يكن يقول هي أسماء ! قال :لا .

وقيل هذا حساب : « أبي جاد » لتدل على مدة هذه الأمة .

وأخرج ابن إسحاق ،عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ،عن جابر بن عبد الله بن رياب ، قال : مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ ، فأتى أخاه حيي ابن أخطب في رجال من اليهود ، فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ، قال : أنت سمعته ؟ قال : نعم فمشى حيي في أولئك النفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ؟ فقال : بلى ، فقالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي ما مدة ملكه ، وما أجل أمته غيرك ؛ الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ؛ فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفتدخل في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ! ثم قال : يا محمد ، هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم، ﴿المص﴾ قال : هذه أثقل وأطول ،

الألف واحدة ، واللام ثلاثون ؛ والميم أربعون ، والصاد ستون ، فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة ، هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم ﴿ الر ﴾ ،قال: هذه أثقل وأطول ؛ الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان ، هذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة . هل مع هذا غيره؟ قال: نعم ﴿المر﴾، قال:هذه أثقل وأطول ، هذه إحدى وسبعون ومائتان ، ثم قال : لقد لُبِّس علينا أمرُك حتى ماندرى أقليلا أُعطِيتَ أم كثيراً ! ثم قال : قوموا عنه . ثم قال أبو ياسر لأخيه ومَنْ معه : مايدريكم لعلَّه قد جُمِع هذا كلُّه لمحمد ؛ إحدى وسبعون ، وإحدى ثلاثون ومائة ، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع سنين . فقالوا : لقد تشابه علينا أمرُه ؛ فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم :﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[1]، أخرجه ابن جرير من هذا الطريق وابن المنذر، ومن وجه آخر عن ابن جرير مُعضلاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله:﴿ الم ﴾ : قال : هذه الأحرف الثلاثة من الأحرف التسعة والعشرين، دارت بها الألسن،ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه تعالى ،وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه ،وليس منها حرف إلا وهو فى مدة أقوام وآجالهم ، فالألف مفتاح اسمه الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد ، فالألف آلاء الله واللام لطف الله ، والميم مجد الله ، فالألف سنة واللام ثلاثون ، والميم أربعون قال الخُوَيّى: وقد استخرج بعض الأئمة من قوله تعالى : ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ أن البيت المقدس تفتحه المسلمون فى سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة ؛ ووقع كما قاله .

وقال السهيلى : لعلَّ عدد الحروف التى فى أوائل السور مع حذف المكرر للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة .

قال ابن حَجَر : وهذا باطل لايعتمد عليه ، فقد ثبت عن ابن عباس رضى الله عنه الزَّجر عن عدّ « أبى جاد » ، والإشارة إلى أنَّ ذلك من جُملة السِّحر ؛ وليس ذلك ببعيد ،

---

(١) سورة آل عمران ٧

فإنه لا أصل له فى الشريعة، وقد قال القاضى أبو بكر بن العربى فى فوائد رحلته : ومن الباطل علم الحروف المقطَّعة فى أوائل السور .

وقد تحصّل لى فيها عشرون قولاً وأزيد ، ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ،ولا يصل منها إلى فهم .

والذى أقوله : إنه لولا أنَّ العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولاً متداوَلاً بينهم لكانوا أوّلَ من أنكر ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ، بل تلى عليهم ﴿ حم ﴾ فصّلت و ﴿ ص ﴾ وغيرها، فلم ينكروا ذلك، بل صرّحوا بالتسليم له فى البلاغة والفصاحة مع تشوّفهم إلى عثرة وغيرها وحرصهم على زلّة ، فدلّ على أنه كان أمراً معروفاً بينهم، لا إنكار فيه . انتهى .

وقيل : هى تنبيهات كما فى النداء عدّه ابن عطية مغايراً للقول بأنها فواتح ، والظاهر أنه بمعناه .

قال أبو عبيدة : ﴿ الم ﴾ افتتاح كلام . وقال الخوَيِّى : القول بأنها تنبيهات جيّد ، لأن القرآن كلام عزيز وفوائده عزيزة ،فينبغى أن يَرِدَ على سمع متنبِّهٍ ، فكان من الجائز أن يكون الله قد علم فى بعض الأوقات كون النبى صلى الله عليه وسلم فى عالم البشر مشغولاً ، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله: ﴿ الم ﴾ و﴿ الر ﴾ و﴿ حم ﴾ ليسمع النبىّ صوت جبريل فيقبل عليه ، ويُصغى إليه . قال : وإنما لم تُستعمل الكلمات المشهورة فى التنبيه كألاَ وأمَا ، لأنها من الألفاظ التى يتعارفها الناس فى كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلامَ ، فناسب أن يؤتَى فيه بألفاظ تنبيه لم تُعهد ، لتكون أبلغ فى قرع سمعه . انتهى .

وقيل : إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لَغَوْا فيه ، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجَبوا منه ، ويكون تعجّبهم منه سبباً لاستماعهم ، واستماعُهم له سبباً لاستماع ما بعده ، فترقّ القلوب ، وتلين الأفئدة . وعدّ هذا جماعة قولا مستقلا ، والظاهر خلافه ، وإنما يصلح هذا مناسبة لبعض الأقوال ، لا قولا فى معناه ، إذ ليس فيه بيان معنى .

وقيل: إن هذه الحروف ذُكِرت لتدلّ على أن القرآن مؤلّف من الحروف التي هي: ا، ب، ت، ث... فجاء بعضها مقطّعاً، وجاء تمامها مؤلفاً، ليدلّ القوم الّذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعرفونها، فيكون ذلك تعريفاً لهم، ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله، بعد أن علموا أنه منزّل بالحروف التي يعرفونها، ويبنون كلامهم منها.

وقيل: المقصود بها الإعلام بالحروف التي يتركّب منها الكلام، فذكر منها أربعة عشر حرفاً، وهي نصف جميع الحروف، وذكر من كل جنس نصفه.

فمن حروف الحلق: الحاء، والعين والهاء. ومن التي فوقها القاف، والكاف.

ومن الحرفين الشفهيّين الميم. ومن المهموسة السين والحاء والكاف والصاد والهاء. ومن الشديدة الهمزة والطاء والقاف والكاف. ومن المطبقة الطاء والصاد. ومن المجهورة الهمزة والميم واللام والعين والراء والطاء والقاف والياء والنون. ومن المنفتحة الهمزة والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء القاف والياء والنون، ومن المستعلية: القاف والصاد والطاء. ومن المنخفضة الهمزة واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن القلقلة القاف والطاء.

ثم إنه تعالى ذكر حروفاً مفردة وحرفين حرفين وثلاثة ثلاثة وأربعة وخمسة؛ لأن تراكيب الكلام على هذا النّمط ولا زيادة على الخمسة.

وقيل: هي أمارة جعلها الله لأهل الكتاب أنه سينزِل على محمد كتاباً في أول سُورٍ منه حروف مقطّعة.

هذا ما وقفت عليه من الأقوال في أوائل السُّور من حيث الجملة، وفي بعضها أقوال أُخَر؛ فقيل: إن طه ويس بمعنى يارجُل، أو يا محمد أو يا إنسان، وقد تقدّم في المعرب.

وقيل: هما اسمان من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال الكرماني في غرائبه: ويقويه في يس قراءة «يسنَ» بفتح النون، وقوله: «آل ياسين». وقيل: طه ى طأ الأرض أو اطمئنّ، فيكون فعل أمر والهاء مفعول، أو للسكت أو مبدلةً من الهمزة.

أخرج ابن أبي حاتم؛ من طريق سعيد بن جُبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿طه﴾

هو كقولك : افعل . وقيل: طه أى يا بدر ؛ لأن الطاء بتسعة، والهاء بخمسة ،فذلك أربعة عشر إشارة إلى البدر ، لأنه يتمّ فيها . ذكره الكرمانىّ فى غرائبه .

وقيل فى قوله: ﴿ يس ﴾: أى ياسيّد المرسلين، وفى قوله : ﴿ ص ﴾. معناه صدق الله . وقيل: أقسم بالصّمد الصانع الصادق : وقيل: معناه صادِ يامحمد عملك بالقرآن ، أى عارضه به ،فهو أمرٌ من المصاداة.

(١ وأخرج عن الحسين ، قال: صاد حادث القرآن ، يعنى انظر فيه ١) .

وأخرج عن سفيان بن حسين ، قال : كان الحسن يقرؤها « صاد والقرآن » ، يقول : عارض القرآن . وقيل: ص اسم بَحْر عليه عرش الرحمن ، وقيل : اسم بحر يُحيى به الموتى. وقيل: معناه صاد محمد قلوب العباد ، حكاها الكرمانىّ كلها .

وحكى فى قوله : ﴿ المص ﴾ أى معناه « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » ، وفى ﴿ حم ﴾ أنه صلى الله عليه وسلم ، وقيل: معناه « حم » ماهو كائن، وفى « حمعسق » أنه جبل قاف ، وقيل: « ق » جبل محيط بالأرض . أخرجه عبد الرزاق عن مجاهد .

وقيل : أقسم بقوّة قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل: هى الكاف من قوله: ﴿ قُضِىَ الْأَمْرُ ﴾ دلّت على بقية الكلمة. وقيل: معناها قف يا محمد على أداء الرسالة ، والعمل بما أمرت ، حكاهما الكرمانى .

وقيل : « نٓ » هو الحوت .أخرج الطّبرانىّ عن ابن عباس ، مرفوعا : «أوّل ماخلق الله القلم والحوت . قال : اكتب ، قال: ماأكتب ؟ قال : كلّ شئ كائن إلى يوم القيامة، ثم قرأ : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ ﴾ ، فالنون الحوت ، والقاف القلم .وقيل : هو اللّوح المحفوظ. أخرجه ابن جرير من مرسَل ابن قُرّة مرفوعا .

وقيل : هو الدواة ، أخرجه عن الحسن وقتادة .

وقيل: هو المداد ، حكاه ابن قرصة فى غريبة .

وقيل : هو القلم ، حكاه الكرمانىّ عن الجاحظ .

(١–١) ساقط من الأصل ، وأثبته من ط

وقيل: هو اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاه ابن عسكر في مبهماته

وفي المحتسب لابن جنّي أن ابن عباس ، قرأ ﴿ حمسق ﴾ بلاعين ، ويقول : السين كل فرقة تكون ، والقاف كل جماعة تكون .

قال ابن جنّي ، وفي هذه القراءة دليل على أنّ الفواتح فواصل بين السور ، ولو كانت أسماء الله لم يجز تحريف شيء منها، لأنها لاتكون حينئذٍ ، والأعلام تؤدي بأعيانها ، ولا يحرّف شيء منها .

وقال الكرمانيّ في غرائبه في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ : الاستفهام هنا يدلّ على انقطاع الحروف عمّا بعدها في هذه السّورة وغيرها .

خاتمة

أورد بعضهم سؤالا وهو أنه : هل للمحكَم مزيّة على المتشابه أولا ؟ فإن قلتم بالثاني فهو خلاف الإجماع ، أو بالأول فقد نقضتم أصلكم في أن جميع كلام سبحانه وتعالى سواء ، وأنه منزّل بالحكمة !

وأجاب أبو عبد الله البكراباذيّ ، بأن المحكَم كالمتشابه من وجهٍ ، ويخالفه من وجه ، فيتّفقان في أن الاستدلال بهما لايمكن إلاّ بعد معرفة حكمة الواضع ، وأنه لايختار القبيح ، ويختلفان في أن المحكَم بوضع اللغة لايحتمل إلاّ الوجه ؛ فمن سمعه أمكنه أن يستدّل به في الحال ، والمتشابِه يحتاج إلى فكرة ونظر ؛ ليحمله على الوجه المطابِق ؛ ولأن المحكَم أصلٌ ، والعلم بالأصل أسبق ، ولأن المحكَم يُعلَمَ مفصّلا ، والمتشابه لا يعلم إلاّ مجملاً .

وقال بعضهم: إنَ قيل : ما الحكمة في إنزال المتشابه ممّن أراد لعباده به البيان والهدى؟ قلت: إن كان مما يمكن علمه، فله فوائد :

منها الحثّ للعلماء على النّظر الموجب للعلم بغوامضه ، والبحث عن دقائقه ؛ فإن استدعاء الهِمم لمعرفة ذلك من أعظم القرَب .

ومنها ظهور التفاضل ، وتفاوت الدرّجات إذ لو كان القرآن كلُّه محكمًا لا يحتاج إلى تأويل ونظر ؛ لاستوت منازل الخلق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره ..

وإنّ كان مما لا يمكن علمه فله فوائد :

منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقّف فيه ، والتفويض والتسليم والتعبّد بالاشتغال به من جهة التّلاوة كالمنسوخ ؛ وإن لم يجز العمل بما فيه وإقامة الحجّة عليهم لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم دلّ على أنه نزل من عند الله ؛ وأنّه الذى أعجزهم عن الوقوف على معناه .

وقال الإمام فخر الدين: من الملحدة مَن طعن فى القرآن؛ لأجل اشتماله على المتشابهات، وقال: إنكم تقولون: إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة ؛ ثم إنا نراه بحيث يتمسّك به صاحب كل مذهب على مذهبه ،فالجبرىّ متمسّك بآيات الجبر كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[1] والقدرىّ يقول : هذا مذهب الكفار ، بدليل أنه تعالى حكى ذلك عنهم فى معرض الذّم فى قوله :﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾[2] ، وفى موضع آخر: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[3] .ومنكر الرؤية متمسك بقوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾[4] .

ومثبت الجهة متمسّك بقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[5] ، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[6] ،والنّافى متمسك بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[7] .

ثم يسمّى كل واحد الآيات الموافقة لمذهبه محكَمة ، والآياتِ المخالفة له متشابهة ؛ وإنما آل فى ترجيح بعضها على البعض إلى ترجيحات خفيّة ووجوه ضعيفة ؛ فكيف يليق

---

(١) الأنعام ٢٥ (٢) فصلت ٥ (٣) البقرة ٨٨
(٤) الأنعام ١٠٣ (٥) النحل ٥٠ (٦) طه ٥
(٧) الشورى ١١

بالحكيم أن يجعل الكتاب الذى هو المرجوع إليه فى كل الدّين إلى يوم القيامة هكذا !

قال : والجواب أنّ العلماء ذكروا لوقوع المتشابه فيه فوائد :

منها أنه يُوجب المشقّة فى الوصول إلى المراد ، وزيادة المشقة توجب مزيدَ الثواب .

ومنها أنه لو كان القرآن كلُّه محكَماً لما كان مطابقاً إلاّ لمذهب واحد ؛ وكان بصريحه مبطلا لكلٍّ ما سوى ذلك المذهب ؛ وذلك مما ينفّر أرباب سائر المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه والانتفاع به ؛ فإذا كان مشتملاً على المحكَم والمتشابه ، طمع صاحبُ كلّ مذهب أن يجدَ فيه ما يؤيِّد مذهبه ، وينصر مقالتَه ، فينظر فيه جميع أرباب المذاهب ، ويجتهد فى التأمُّل فيه صاحب كلّ مذهب ، وإذا بالغوا فى ذلك صارت المحكمات مفسِّرة للمتشابهات ، وبهذا الطريق يتخلّص المبطل من باطله ، ويتّصل إلى الحق .

ومنها أن القرآن إذا كان مشتملا على المتشابه ، افتقر إلى العلم بطريق التأويلات ، وترجيح بعضها على بعض ، وافتقر فى تعلّم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللّغة والنّحو والمعاني والبيان وأصول الفقه ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لم يحتجْ إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة ؛ فكان فى إيراد المتشابه هذه الفوائد الكثيرة .

ومنها أنّ القرآن مشتمِلٌ على دعوة الخواصّ والعوامّ ، وطبائع العوامّ تنفر فى أكثر الأمر عن دَرَك الحقائق ، فمن سمع من العوامّ فى أوّل الأمر إثباتَ موجود ليس بجسم ولا متحيّز ولا مشارٍ إليه ، ظنّ أنّ هذا عدمٌ ونفى ، فوقع التعطيل ؛ فكان الأصلح أن يخاطَبوا بألفاظٍ دالّةٍ على بعض ما يناسب ما توهّموه وتخيّلوه ، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدلّ على الحقّ الصريح ، فالقسم الأول وهو الذى يخاطَبون به فى أوّل الأمر يكون من المتشابهات ، والقسم الثانى وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر من المحكمات .

النوع الرابع والأربعون
فى مقدمه ومؤخره

وهو قسمان :

(الأول):ما أشكل معناه ، بحسب الظاهر ، فلمّا عرف أنه من باب التقديم والتأخير ، اتّضح. وهو جدير أن يفردَ بالتصنيف ، وقد تعرّض السلف لذلك فى آيات :

فأخرج ابن أبى حاتم ، عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وأولاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ﴾ [1] ، قال : هذا من تقاديم الكلام، يقول: « لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة » .

وأخرج عنه أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ [2] ، قال: هذا من مقاديم الكلام ، يقول : لولا كلمة وأجلٌ مسمى لكان لزاماً » .

وأخرج عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّماً ﴾ [3]، قال : هذا من التقديم والتأخير ، « أنزل على عبده الكتاب قيّما ولم يجعل له عوجاً » .

وأخرج عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [4]، قال : هذا من المقدّم والمؤخرّ ، أى رافعك إلىّ ومتوفيك .

وأخرج عن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [5] ،

---

(١) التوبة ٨٥ (٢) طه ١٢٩ (٣) الكهف ١ ، ٢

(٤) آل عمران ٥٥ (٥) ص ٢٦

قال : هذا من التقديم والتأخير ، يقول : « لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا » .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1]، قال : هذه الآية مقدمة ومؤخرة ، إنما هى « أذاعوا به إلا قليلا منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم ينج قليل ولا كثير » .

وأخرج عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [2] ، قال : إنهم إذا رأوا الله ،فقد رأوه، إنما قالوا: «جهرة أرنا الله»، قال: هو مقدّم ومؤخّر . قال ابن جرير: يعنى أن سؤالهم كان جهرة .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ [3]، قال البغوىّ : هذه أول القصة ، وإن كان مؤخراً فى التلاوة . وقال الواحدىّ : كان الاختلاف فى القاتل قبل ذبح البقرة ؛ وإنما أُخّر فى الكلام لأنه تعالى لما قال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ ... ﴾ [4]، الآية ، علم المخاطبون أنّ البقرة لا تُذبح إلاّ للدلالة على قاتل خفيت عينه عليهم ، فلما استقرّ علم هذا فى نفوسهم أتبع بقوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ [3]فسألتم موسى،فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [4] .

ومنه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [5] : والأصل « هواه إلهه »،لأن مَن اتخذ إلهه هواه غير مذموم ، فقدّم المفعول الثانى للعناية به .

وقوله: ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ [6]، على تفسير «أحوى» بالأخضر. وجعله نعتاً للمرعى ، أى أخرجه أحوى،وأُخّر رعاية للفاصلة .

وقوله : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [7]، والأصل«سود غرابيب»، لأن الغِربيب الشديد السّواد .

---

(١) النساء ٨٣ (٢) النساء ١٥٣ (٣) البقرة ٧٢
(٤) البقرة ٦٧ (٥) الفرقان ٤٣ (٦) الأعلى ٤،٥
(٧) فاطر ٢٧

وقوله : ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا ... ﴾[١] ، أى فبشرناها فضحكت .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[٢]،أى لهمّ بها،وعلى هذا فالهمّ منفىّ عنه .

(الثانى) : ماليس كذلك ، وقد ألف فيه العلامة شمس الدين بن الصائغ كتابه « المقدّمة فى سر الألفاظ المقدّمة » ، قال فيه : الحكمة الشائعة الذائعة فى ذلك الاهتمام كما قال سيبويه فى كتابه: كأنهم يقدّمون الذى بيانه أهمّ ، وهم ببيانه أعنى .

قال : هذه الحكمة إجمالية ،وأما تفاصيل أسباب التقديم وأسراره، فقد ظهر لى منها فى الكتاب العزيز عشرة أنواع :

الأول : التبرّك كتقديم اسم الله تعالى فى الأمور ذات الشأن ،ومنه قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ... ﴾[٤]،الآية .

الثانى:التعظيم ، كقوله :﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ ﴾[٥] ، ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ ﴾[٦] ، ﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾[٧] .

الثالث : التشريف ، كتقديم الذكر على الأنثى،نحو﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... ﴾[٨] الآية ، والحرّ فى قوله:﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾[٩] ،والحىّ فى قوله: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ... ﴾[١٠] ، الآية ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾[١١] ، والخيل فى قوله : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾[١٢] ، والسمع فى قوله : ﴿ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾[١٣] ، وقوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ

---

(١) هود ٧١ (٢) يوسف ٢٤ (٣) آل عمران ١٨
(٤) الأنفال ٤١ (٥) النساء ٦٩ (٦) الأحزاب ٥٦
(٧) التوبة ٦٢ (٨) الأحزاب ٣٥ (٩) البقرة ١٧٨
(١٠) الأنعام ٩٥ (١١) فاطر ٢٢ (١٢) النحل ٨
(١٣) البقرة ٧

وَالْفُؤَادَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ (٢) حكى ابن عطية عن النّقاش أنه استدلّ بها على تفضيل السمع والبصر، ولذا وقع فى وصفه تعالى : ﴿ سميع بصير ﴾ (٣) ، بتقديم « السميع » .

ومن ذلك تقديمه صلى الله عليه وسلم على نوح ومن معه فى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ... ﴾ (٤) ، الآية، وتقديم الرسول فى قوله : ﴿ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ ﴾ (٥)، وتقديم المهاجرين فى قوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ ﴾ (٦)، وتقديم الإنس على الجنّ حيث ذكرا فى القرآن، وتقديم النبيين، ثمّ الصِّدِّيقين، ثم الشهداء ، ثمّ الصالحين فى آية النساء ، وتقديم إسماعيل على إسحاق لأنه أشرف بكون النبيّ صلى الله عليه وسلم من ولده وأسنّ ، وتقديم جبريل على ميكائيل فى آية البقرة ؛ لأنه أفضل، وتقديم العاقل على غيره فى قوله: ﴿ متاعاً لَكُمْ ولأنعامِكُمْ ﴾ (٧) ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ (٨) .

وأما تقديم الأنعام فى قوله : ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ (٩) ؛ فلأنه تقدّم ذكر الزرع ، فناسب تقديم الأنعام ، بخلاف آية « عبس » ؛ فإنه تقدّم فيها ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ (١٠)، فناسب تقديم « لكم » وتقديم « المؤمنين » على « الكفار » فى كلّ موضع، وأصحاب اليمين على أصحاب الشمال، والسماء على الأرض، والشمس على القمر حيث وقع إلاّ فى قوله : ﴿ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ (١١) ؛ فقيل : لمراعاة الفاصلة ، وقيل : لأنّ انتفاع أهل السموات العائد عليهنّ الضمير به أكثر .

وقال ابن الأنبارى : يقال إنّ القمر وجهه يضىء لأهل السموات وظهره لأهل الأرض؛

---

(١) الإسراء ٣٦ (٢) الأنعام ٤٦ (٣) الحج ٦١

(٤) الأحزاب ٧ (٥) الحج ٥٢ (٦) التوبة ١٠٠

(٧) النازعات ٣٣ (٨) النور ٤١ (٩) السجدة ٢٧

(١٠) عبس ٢٤ (١١) نوح ١٥ ، ١٦

ولهذا قال تعالى: ﴿فيهن﴾، لما كان أكثر نوره يضيء إلى أهل السماء.

ومنه تقديم الغيب على الشهادة في قوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾(١)؛ لأن علمه أشرف، وأما ﴿فإنه يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾(٢) فأخر فيه رعاية للفاصلة.

الرابع: المناسبة، وهي إما مناسبة المتقدم لسياق الكلام، كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(٣)، فإن الجمال بالجمال، وإن كان ثابتاً حالتي السراح والإراحة، إلا أنها حالة إراحتها، وهو مجيئها من المرعى آخر النهار يكون الجمال بها أفخر، إذ هي فيه بطان، وحالة سراحها للمرعى أول النهار يكون الجمال بها دون الأول، إذ هي فيه خماص(٤). ونظيره قوله: ﴿والَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾(٥)، قدم نفي الإسراف لأن الشرف في الإنفاق.

وقوله: ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾(٦)، لأن الصواعق تقع مع أول برقة، ولا يحصل المطر إلا بعد توالي البرقات.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٧)، قدمها على الابن لما كان السياق في ذكرها في قوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾(٨)، ولذلك قدم الابن في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾(٩)، وحسنه تقدم موسى في الآية قبله.

ومنه قوله: ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾(١٠)، قدم الحكم وإن كان العلم سابقاً عليه؛ لأن السياق فيه لقوله في أول الآية: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾(١١).

وإما مناسبة لفظ هو من التقدم أو التأخر، كقوله: ﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾(١٢). ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾(١٣)، ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ

---

(١) الزمر ٤٦ (٢) طه ٧ (٣) النحل ٦
(٤) البطنة: امتلاء البطن، والخمص: الجوع (٥) الفرقان ٦٧ (٦) الروم ٢٤
(٧) الأنبياء ٩١ (٨) التحريم ١٢ (٩) المؤمنون ٥٠
(١٠) الأنبياء ٧٩ (١١) الأنبياء ٧٨ (١٢) الحديد ٣
(١٣) الحجر ٢٤

أنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (١)، ﴿ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ (٢)، ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ (٣)، ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ (٤)، ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ ﴾ (٥)، وأما قوله : ﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى ﴾ (٦)، فلمراعاة الفاصلة، وكذا قوله: ﴿ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ ﴾ (٧).

الخامس : الحثّ عليه والحضّ على القيام به ؛ حذراً من التهاون به. كتقديم الوصية على الدَّين فى قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ (٨) مع أن الدَّيْن مقدّم عليها شرعاً .

السادس : السبق ، وهو إمّا فى الزمان باعتبار الإيجاد بتقديم الليل على النهار ، والظلمات على النور ، وآدم على نوح ، ونوح على إبراهيم ، وإبراهيم على موسى ، وهو على عيسى ، وداود على سليمان ، والملائكة على البشر فى قوله : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وِمِنَ النَّاسِ ﴾ (٩) وعادٍ على ثمودٍ ، والأزواج على الذريّة فى قوله: ﴿ قُلْ لِأَزْواجِكَ وبَنَاتِكَ ﴾ (١٠).

والسِّنَة على النوم فى قوله : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ﴾ (١١) .

أو باعتبار الإنزال ، كقوله: ﴿ صُحُفِ إبرَاهِيمَ ومُوسَى ﴾ (١٢) ، ﴿ وأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى للنَّاسِ وأنزلَ الفُرْقَانَ ﴾ (١٣)

أو باعتبار الوجوب والتكليف ، نحو ﴿ ارْكَعُوا واسْجُدُوا ﴾ (١٤) ، ﴿ فَاغْسِلُوا

---

(١) المدثر ٣٧ (٢) القيامة ١٣ (٣) الواقعة ٣٩ ، ٤٠
(٤) الروم ٤ (٥) القصص ٧٠ (٦) النجم ٢٥
(٧) المرسلات ٣٨ (٨) النساء ١١ (٩) الحج ٧٥
(١٠) الأحزاب ٢٨ (١١) البقرة ٢٥٥ (١٢) الأعلى ١٩
(١٣) آل عمران ٣ (١٤) الحج ٧٧

وُجُوهَكُمْ وأيْدِيَكُمْ ... ﴾ الآية [1] ، ﴿ إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾ [2] ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « نبدأ بما بدأ الله به »

أو بالذّات، نحو ﴿ مَثْنَى وَثُلاثَ ورُبَاعَ ﴾ [3] ، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ولاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [4] وكذا جميع الأعداد كل مرتبةٍ هى متقدّمة على مافوقها بالذات . وأما قوله : ﴿ أنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وفُرَادَى ﴾ [5] ، فللحثّ على الجماعة والاجتماع على الخير .

السابع: السببيّة، كتقديم العزيز على الحكيم ، لأنه عزّ فحكَم ، والعليم عليه لأن الإحكام والإتقان ناشىء عن العلم . وأما تقديم الحكيم عليه فى سورة الانعام ، فلأنه مقام تشريع الأحكام .

ومنه تقدم العبادة على الاستعانة فى سورة الفاتحة ،لأنها سبب حصول الإعانة ، وكذاقوله: ﴿ يُحِبُّ التَّوابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ [6] ،لأن التوبه سبب الطهارة ، ﴿ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [7] ، لأن الإفك سبب الإثم ، ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ [8] ، لأنّ البصر داعية إلى الفرج .

الثامن : الكثرة ، كقوله : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [9] ، لأن الكفار أكثر ، ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ... ﴾ [10] الآية ، قدّم الظالم لكثرته ، ثم المقتصِد ، ثم السابق ، ولهذا قدمّ السارق على السارقة ، لأن السرقة فى الذكور أكثر ، والزانية على الزّانا لأن الزنى فيهنّ أكثر .

---

(١) المائدة ٦ — (٢) البقرة ١٥٨ — (٣) النساء ٣
(٤) المجادلة ٧ — (٥) سبأ ٤٦ — (٦) البقرة ٢٢٢
(٧) الجاثية ٧ — (٨) النور ٣٠ — (٩) التغابن ٢
(١٠) فاطر ٣٢

ومنه تقديم الرحمة على العذاب حيث وقع فى القرآن غالباً ، ولهذا وَرَدَ: « إنّ رحمتى غلبت غضبى » .

وقوله: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [1] ، قال ابن الحاجب فى أماليه : إنّما قدم الأزواج لأن المقصود الإخبار أن فيهم أعداء ، ووقوع ذلك فى الأزواج أكثر منه فى الأولاد ، وكان أقعد فى المعنى المراد فقدمّ ، ولذلك قدّمت الأموال فى قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [2] لأنّ الأموال لاتكاد تفارقها الفتنة ، ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [3] ، وليست الأولاد فى استلزام الفتنة مثلها ، فكان تقديمها أولى .

التاسع : الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا... ﴾ [4] الآية ، بدأ بالأدنى لغرض الترقّى ، لأن اليد أشرف من الرِّجْل ، والعين أشرف من اليد ، والسّمع أشرف من البصر . ومن هذا النوع تأخير الأبلغ ، وقد خرّج عليه تقديم الرحمن على الرحيم ، والرءوف على الرحيم ، والرسول على النبىّ ، فى قوله ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [5] ، وذكر لذلك نكت أشهرها مراعاة الفاصلة .

العاشر : التدلّى من الأعلى إلى الأدنى ، وخرّج عليه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [6] ، ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ [7] ، ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [8] .

هذا ماذكره ابن الصائغ [9] ، وذكر غيره أسباباً أُخر ، منها كونه أدلّ على القدرة وأعجب

---

(١) التغابن ١٤ (٢) التغابن ١٥ (٣) العلق ٦ ، ٧
(٤) الأعراف ١٩٥ (٥) مريم ٥١ (٦) البقرة ٢٥٥
(٧) الكهف ٤١ (٨) النساء ١٧٢ (٩) هو محمد بن عبدالرحمن ابن على شمس الدين الحنفى ، من علماء مصر فى القرن الثامن ، اشتغل بالتأليف والتصنيف ، وكتابه المقدمة ذكره صاحب كشف الظنون . توفى سنة ٨٧٦ . وانظر الدرر الكامنة ٣ : ٩٩ .

كقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ... ﴾ (١) . الآية ، وقوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ ﴾ (٢) ، قال الزمخشريّ : قدّم الجبال على الطّير ، لأن تسخيرها له وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة ، وأدخل فى الإعجاز ، لأنها جماد والطير حيوان ناطق .

ومنها رعاية الفواصل ، وسيأتى لذلك أمثلة كثيرة .

ومنها إفادة الحصر للاختصاص ، وسيأتى فى النوع الخامس والخمسين .

تنبيه

قد يُقَدَّم لفظ فى موضع ويؤخّر فى آخر ، ونكتة ذلك إمّا لكون السِّياق فى كلّ موضع يقتضى ماوقع فيه كما تقدمت الإشارة إليه ، وإما لقصد البداءة والختم به للاعتناء بشأنه ، كما فى قوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ... ﴾ (٣) الآيات ، وإمّا لقصد التفنّن فى الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب ، كما فى قوله : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (٦) .

وقال فى الأنعام : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ (٧) .

---

(١) النور ٤٥ (٢) الأنبياء ٧٩ (٣) آل عمران ١٠٦
(٤) البقرة ٥٨ (٥) الأعراف ١٦١ (٦) المائدة ٤٦
(٧) الأنعام ٩١



النوع الخامس والأربعون

في عامه وخاصه

العام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر، وصيغته «كل» مبتدأة، نحو ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[1]، أو تابعة، نحو ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[2].

وَالَّذِي وَالَّتِي وتثنيتهما وجمعهما، نحو ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾[3]، فإن المراد به كل من صدر منه هذا القول، بدليل قوله بعد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[4]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[5]، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[6]، ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾[7]، ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ...﴾[8] الآية ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا...﴾[9]، الآية، ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا﴾[10].

وأيّ وما ومَنْ، شرطاً واستفهاماً موصولا، نحو: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[11]، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[12]، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[13].

والجمع المضاف، نحو ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾[14]. والمعرّف بأل نحو ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[15]، ﴿وَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[16].

واسم الجنس المضاف، نحو ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[17]، أي كل أمر الله.

---

(١) الرحمن ٢٦ — (٢) الحجر ٣٠ — (٣) الأحقاف ١٧
(٤) الأحقاف ١٨ — (٥) البقرة ٨٢ — (٦) يونس ٢٦
(٧) آل عمران ١٥ — (٨) الطلاق ٤ — (٩) النساء ١٥
(١٠) النساء ١٦ — (١١) الإسراء ١١٠ — (١٢) الأنبياء ٩٨
(١٣) النساء ١٢٣ — (١٤) النساء ١١ — (١٥) المؤمنون ١
(١٦) التوبة ٥ — (١٧) النور ٦٣

والمعرّف بأل ، نحو ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ ﴾ (١) ، أى كلّ بيع ، ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، أى كلّ إنسان ، بدليل ﴿ إلاّ الذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) .

والنكرة فى سياق النفى والنهى، نحو ﴿ فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُه ﴾ (٤) ، ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٥) ، ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحجِّ ﴾ (٦) . وفى سياق الشرط ، نحو ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ﴾ (٧) . وفى سياق الامتناع ، نحو ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ (٨) .

* * *

فصل

العام على ثلاثة أقسام :

الأول : الباقى على عمومه ، قال القاضى جلال الدين البُلقينى : ومثاله عزيز، إذْ ما مِنْ عامٍّ إلا ويتخيّل فيه التخصيص ، فقوله : ﴿ يأيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ (٩) ، قد يخص منه غير المتكلّف، وَ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ (١٠) خصّ منها حالة الاضطرار، وميتة السمك والجراد ، وحرّم الرّبا خصّ منه العرايا .

وذكر الزركشى فى البرهان أنّه كثير فى القرآن، وأورد منه: ﴿ وأنّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ (١١) : ﴿ إنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً ﴾ (١٢) ، ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (١٣) ، ﴿ واللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ (١٤) ، ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً ﴾ (١٥) .

قلت : هذه الآيات كلّها فى غير الأحكام الفرعية، فالظاهر أن مراد البلقينى أنه عزيز

---

(١) البقرة ٢٧٥
(٢) العصر ٢ ، ٣
(٣) الإسراء ٢٣
(٤) الحجر ٢١
(٥) البقرة ٢
(٦) البقرة ١٩٧
(٧) التوبة ٦
(٨) الفرقان ٤٨
(٩) الحج ١
(١٠) المائدة ٣
(١١) ٩٧
(١٢) يونس ٤٤
(١٣) الكهف ٤٩
(١٤) فاطر ١١
(١٥) غافر ٦٤

فى الأحكام الفرعيّة ، وقد استخرجت من القرآن بعد الفكر آية فيها، وهى قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... ﴾ [1] ، الآية ، فإنه لا خصوص فيها .

الثانى : العامّ المراد به الخصوص .

الثالث : العام المخصوص ، وللناس بينهما فروق .

أن الأوّل لم يرد شموله لجميع الأفراد، لا من جهة تناول اللفظ، ولا من جهة الحكم ؛ بل هو ذو أفراد استعمل فى فرد منها .

والثانى أريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لها ، لا من جهة الحكم .

ومنها أن الأوّل مجاز قطعاً لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلىّ بخلاف الثانى فإنّ فيه مذاهب أصحّها أنه حقيقة، وعليه أكثر الشافعية وكثير من الحنفية وجميع الحنابلة ، ونقله إمام الحرمين عن جميع الفقهاء. وقال الشيخ أبو حامد إنه مذهب الشافعىّ وأصحابه ، وصحّحه السبكىّ ، لأنّ تناول اللفظ للبعض الباقى بعد التخصيص كتناوله له بلا تخصيص ، وذلك التناول حقيقىّ اتفاقاً ، فليكن هذا التناول حقيقيّاً أيضاً .

ومنها أن قرينة الأول عقلية والثانى لفظية .

ومنها أن الأول قرينة لا تنفك عنه، وقرينة الثانى قد تنفكّ عنه .

ومنها أن الأول يصحّ أن يراد به واحد اتفاقاً ، وفى الثانى خلاف .

ومن أمثلة المراد به الخصوص قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ [2]، والقائل واحد نعيم بن مسعود الأشجعىّ أو أعرابىٌّ من خُزاعة ، كما أخرجه ابن مردويه من حديث أبى رافع لقيامه مقام كثير فى تثبيط المؤمنين عن ملاقاة أبى سفيان .

قال الفارسىّ: ومما يقوىّ أن المراد به واحد قوله : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ [3] ، فوقعت الإشارة بقوله « ذلكم » إلى واحدٍ بعينه ، ولو كان المعنى جمعاً لقال : « إنّما أولئكم الشّيطان » ، فهذه دلالة ظاهرة فى اللفظ .

---

(١) النساء ٢٣ (٢) آل عمران ١٧٣ (٣) آل عمران ١٧٥

ومنها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾[1]، أى رسول الله صلى الله عليه وسلم لجمعه مافى الناس من الخصال الحميدة .

ومنها قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[2] أخرج ابن جرير من طريق الضَّحَّاك عن ابن عباس فى قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاس﴾ قال: إبراهيم .

ومن الغريب قراءة سعيد بن جبير ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسِى﴾ قال فى المحتسب: يعنى آدم، لقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[3].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾[4] أى جبريل، كما فى قراءة ابن مسعود .

* * *

وأما المخصوص فأمثلته فى القرآن كثيرة جدًّا، وهو أكثر من المنسوخ، إذ مامن عامّ إلا وقد خُصّ .

ثم المخصِّص له إمّا متصل وإما منفصل . فالمتصل خمسة وقعت فى القرآن :

أحدها الاستثناء نحو، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾[5]، ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ...﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...﴾[6] الآية. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ...﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾[7]، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[8]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[9].

الثانى : الوصف، نحو ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾[10].

---

(١) النساء ٥٤ (٢) البقرة ١٩٩ (٣) طه ١١٥
(٤) آل عمران ٣٩ (٥) النور ٥ (٦) الشعراء ٢٢٤، ٢٢٧
(٧) الفرقان ٦٨، ٧٠ (٨) النساء ٢٤ (٩) القصص ٨٨
(١٠) النساء ٢٣

الثالث : الشرط ، نحو ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (١)، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾ (٢).

الرابع : الغاية ، نحو ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ (٣)، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ (٤)، ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ (٥)، ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ... ﴾ (٦)، الآية .

والخامس : بدل البعض من الكل ، نحو ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (٧).

والمنفصل آية أخرى فى محل آخر أو حديث أو إجماع أو قياس .

* * *

ومن أمثلة ما خص بالقرآن قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (٨)، خص بقوله : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ (٩)، وبقوله : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١٠).

وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ (١١)، خص من الميتة السمك بقوله: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ (١٢)، ومن الدم الجامد بقوله : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ (١٣).

وقوله : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ... ﴾ (١٤)، الآية خص بقوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ (١٥).

---

(١) النور ٣٣ (٢) البقرة ١٨٠ (٣) التوبة ٢٩
(٤) البقرة ٢٢٢ (٥) البقرة ١٩٦ (٦) البقرة ١٨٧
(٧) آل عمران ٩٧ (٨) البقرة ٢٢٨ (٩) الأحزاب ٤٩
(١٠) الطلاق ٤ (١١) المائدة ٣ (١٢) المائدة ٩٦
(١٣) الأنعام ١٤٥ (١٤) النساء ٢٠ (١٥) البقرة ٢٢٩

وقوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحدٍ مِنْهُمَا مائةَ جَلْدَةٍ ﴾[١]، خصّ بقوله : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المُحْصَنَاتِ من العذاب ﴾[٢].

وقوله : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾[٣]، خصّ بقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... ﴾[٤] الآية .

ومن أمثلة ما خصّ بالحديث قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ ﴾[٥]، خصّ منه البيوع الفاسدة ، وهى كثيرة بالسّنّة ، ﴿ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[٥] خصّ منه العرايا بالسّنّة[٦].

وآيات المواريث خصّ منها القاتل والمخالف فى الدّين بالسنة .

وآية تحريم الميتة خص منها الجراد بالسنّة، وآية ﴿ ثلاثة قروء ﴾[٧] خصّ منها الأمة بالسنّة.

وقوله : ﴿ ماءً طَهُوراً ﴾[٨] خصّ منه المتقيّد بالسنّة .

وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا ﴾[٩]، خصّ منه من سرق دون ربع دينار بالسنّة .

ومن أمثلة ما خصّ بالإجماع آية المواريث ، خصّ منها الرقيق فلا يرث بالإجماع ، ذكره مكىّ .

ومن أمثلة ما خصّ بالقياس آية الزنا ﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾[١٠] خصّ منها العبد بالقياس على الأمة المنصوصة فى قوله : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾[١١] المخصّص لعموم الآية ، ذكره مكىّ أيضاً .

فصل

من خاص القرآن ما كان مُخَصّصاً لعموم السنّة ، وهو عزيز ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾[١٢] ، خصّ عموم قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرتُ أن أقاتلَ النَّاسَ حَتَّى يقولوا لا إله إلا الله » .

---

(١) النور ٢ (٢) النساء ٢٥ (٣) النساء ٣

(٤) النساء ٢٣ (٥) البقرة ٢٧٥

(٦) قال فى اللسان : « فى حديث أنه رخص فى العرية والعرايا ، قال أبو عبيد : العرايا واحدتها عرية ، وهى النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا ، والإعراء أن يجعل له ثمرة عامها »

(٧) البقرة ٢٢٨ (٨) الفرقان ٤٨ (٩) المائدة ٣٨

(١٠) النور ٢ (١١) النساء ٢٥ (١٢) التوبة ٢٩

وقوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾[1] ، خصّ عموم نهيه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى الأوقات المكروهة بإخراج الفرائض .

وقوله : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا .. ﴾[2] الآية ، خصّ عموم قوله صلى الله عليه وسلم: « ما أبينَ من حى فهو ميّت » .

وقوله : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾[3] ، خصّ عموم قوله صلى الله عليه وسلم والسلام: « لا تحلُّ الصَّدقة لغنىٍ ولا لذى مِرّةٍ سوىّ » .

وقوله : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى ﴾[4] ، خصّ عموم قوله صلى الله عليه سلم : « إذا التقى المسلمان بالسيف، فالقاتل والمقتول فى النار » .

فروع

منثورة تتعلق بالعموم والخصوص

الأول : إذا سِيق العامّ للمدح أو الذّم ؛ فهل هو باقٍ على عمومه ؟ فيه مذاهب :

أحدها : نعم ؛ إذ لا صارف عنه ، ولا تنافِىَ بين العموم وبين المدح أو الذّمّ .

والثانى : لا ، لأنّه لم يُسَقْ للتعميم بل للمدح أو للذمّ .

والثالثُ ــ وهو الأصح : التفصيل ، فيعمّ إن لم يعارضه عامٌّ آخر لم يُسَق لذلك ، ولا يعمّ إن عارضه ذلك ؛ جمعاً بينهما .

مثاله ولا معارض قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[5] .

ومع المعارض قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾[6] ، فإنّه سيق للمدح ، وظاهره يعمّ الأختين بملك اليمين جمعاً ؛ وعارضه فى ذلك ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾[7] ، فإنه شامل لجمعهما بملك اليمين ، ولم يُسَقْ للمدح ، فحمل الأول على غير ذلك بأن لم يُرَدْ تناوله له .

---

(١) البقرة ٢٣٨ (٢) النحل ٨٠ (٣) التوبة ٦٠
(٤) الحجرات ٩ (٥) الانفطار ١٣ ، ١٤ (٦) المؤمنون ٣ ، ٤
(٧) النساء ٢٣

ومثاله فى الذم: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ ...﴾[1] الآية ، فإنه سِيق للذّم ، وظاهره يعمّ الحلى المباح ؛ وعارضه فى ذلك حديث جابر : « ليس فى الحلى زكاة» فحمِل الأوّل على غير ذلك .

***

الثانى اختلف فى الخطاب الخاص به صلى الله عليه وسلم ، نحو ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ، ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ، هل يشمل الأمّة ؟ فقيل : نعم ؛ لأن أمرَ القدوَة أمر لأتباعه معه عُرْفًا ، والأصحّ فى الأصول المنع لاختصاص الصيغة به .

***

الثالث : اختلف فى الخطاب بـ « يأَيُّهَا النَّاسُ » ، هل يشمل الرسول صلى الله عليه وسلم على مذاهب :

أصحّها ـ وعليه الأكثرون : نعم لعموم الصيّغة له ؛ أخرج ابن أبى حاتم عن الزّهرىّ قال : إذا قال الله : « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا افْعَلُوا » ، فالنبىّ صلى الله عليه وسلم منهم .

والثانى : لا ، لأنه ورد على لسانه لتبليغ غيره ، ولما له من الخصائص .

والثالث: إن اقترن بـ « قل » لم يشمله لظهوره فى التبليغ ؛ وذلك قرينة عدم شموله ؛ وإلا فيشمله .

***

الرابع : الأصحّ فى الأصول أنّ الخطاب بـ « يأيها الناس » يشمل الكافر والعبد ، لعموم اللفظ . وقيل : لا يعمّ الكافر بناء على عدم تكليفه بالفروع ، ولا العبد ، لصرف منافعه إلى سيِّده شرعاً .

***

الخامس : اختلف فى « مَنْ » هل تتناول الأنثى ؟ فالأصحّ نعم ، خلافاً للحنفية ، لنا قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾[2] ، فالتفسير بهما دالٌّ على

---

(١) التوبة ٣٤ (٢) النساء ١٢٤

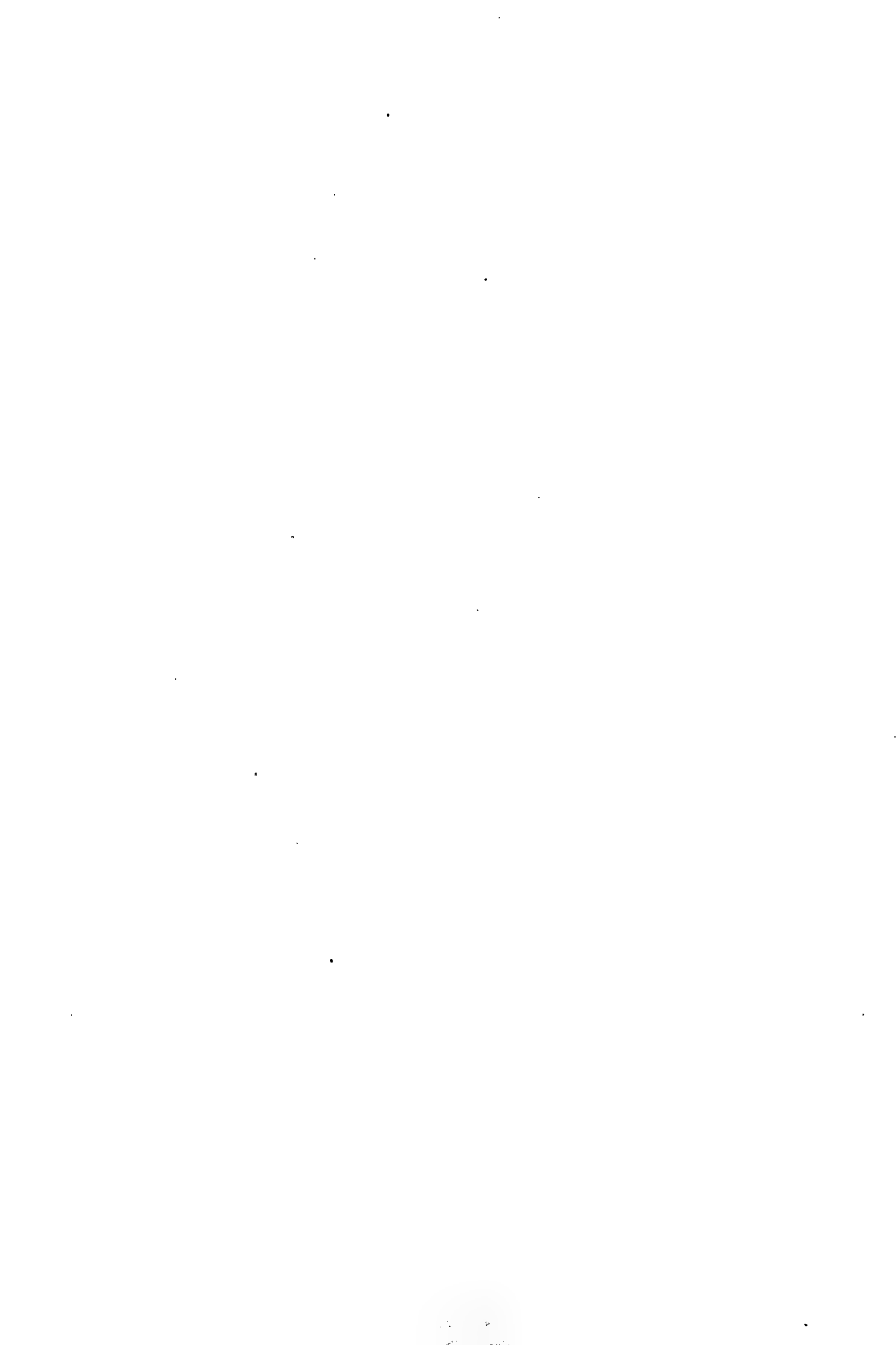
تناول «مَنْ» لها وقوله : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ ﴾[1] .

واختُلف فى جمع المؤنث السالم هل يتناولها ؟ فالأصح لا ، وإنما يدخلن فيه بقرنية ، أمّا المكسّر فلا خلاف فى دخولهنّ فيه.

***

السادس : اختلف فى الخطاب بـ« ياأهْلَ الكِتَابِ » ، هل يشمل المؤمنين ؟ فالأصحّ لا ، لأنّ اللفظ قاصرٌ على مَنْ ذُكر . وقيل : إن شركوهم فى المعنى شملهم ؛ وإلاّ فلا . واختلف فى الخطاب بـ« يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » ، هل يشمل أهل الكتاب ؟ فقيل : لا ، بناء على أنهم غير مخاطَبين بالفُروع . وقيل : نعمْ ؛ واختاره ابن السمعانىّ ، قال : وقوله : « يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » ، خطاب تشريف لا تخصيص .

(١) الأحزاب ٣١



النوع السادس والأربعون
في مجمله ومبينه

المجمل مالم تتضح دلالته ؛ وهو واقع في القرآن خلافاً لداود الظاهري ؛ وفي جواز بقائه مجملا أقوال ، أصحها : لا يبقى المكلف بالعمل به بخلاف غيره .

وللإجمال أسباب :

منها الاشتراك، نحو ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾[1] ، فإنه موضوع لأقبل وأدبر، ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[2] ، فإن القرء موضوع للحيض والطهر، ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾[3] ، يحتمل الزوج والولي ، فإن كلا منهما بيده عقده النكاح .

ومنها الحذف، نحو ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾[4]، يحتمل « في » و« عن ».

ومنها اختلاف مرجع الضمير ، نحو ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[5] ؛ يحتمل عود ضمير الفاعل في « يرفعه » إلى ما عاد عليه ضمير « إليه » ؛ وهو الله . ويحتمل عوده إلى العمل ؛ والمعنى أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب .

ويحتمل عوده إلى الكلم الطيب ؛ أي أن الكلم الطيب وهو التوحيد يرفع العمل الصالح ، لأنه لا يصح العمل إلا مع الإيمان .

ومنها احتمال العطف والاستئناف ، نحو ﴿ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴾[6] .

ومنها غرابة اللفظ ، نحو ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[7] .

---

(١) التكوير ١٧ . (٢) البقرة ٢٢٨ (٣) البقرة ٢٣٧
(٤) النساء ١٢٧ . (٥) فاطر ١٠ (٦) آل عمران ٧
(٧) البقرة ٢٣٢

ومنها عدم كثرة الاستعمال الآن، نحو ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾[1] أي يسمعون، ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾[2] أي متكبرا، ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾[3]، أي نادماً.

ومنها التقديم والتأخير، نحو ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾[4]، أي ولولا كلمة وأجل مسمّى لكان لزاماً، ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾[5]، أي يسألونك عنها كأنك حفيّ.

ومنها قلب المنقول، نحو ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾[6]، أي سيناء، ﴿ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾[7]، أي على الياس.

ومنها التكرير القاطع لوصل الكلام في الظاهر، نحو ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾[8].

فصل

قد يقع التبيين متصلا، نحو ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ بعد قوله: ﴿ الخيط الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾[9].

ومنفصلا في آية أخرى، نحو ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾[10] بعد قوله ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾[11]، فإنها بيّنت أنّ المراد به الطلاق الّذي يملك الرّجعة بعده، ولولاها لكان الكلّ منحصراً في الطلقتين.

وقد أخرج أحمد وأبو داود في ناسخه وسعيد بن منصور وغيرهم، عن أبي رزين الأسدي، قال: قال رجل: يارسول الله، أرأيت قول الله: ﴿ الطلاقُ مرّتان ﴾[12]، فأين الثالثة؟ قال: التّسريح بإحسانٍ.

---

(١) الشعراء ٢٢٣ (٢) الحج ٩ (٣) الكهف ٤٢
(٤) طه ١٢٩ (٥) الأعراف ١٨٧ (٦) التين ٢
(٧) الصافات ١٣٠ (٨) الأعراف ٧٥ (٩) البقرة ١٨٧
(١٠) البقرة ٢٣٠ (١١) البقرة ٢٢٩

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس ، قال : قال رجل : يارسولَ الله ، ذكر الله الطلاق مرتين ، فأين الثالثة ؟ قال : ﴿ إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [١] .

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [٢] ، دال على جواز الرؤية ، ومفسر أنَّ المراد بقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [٣] لا تحيط به ، دون «لا تراه» .

وقد أخرج ابن جرير من طريق العوفيّ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ، لا تحيط به .

وأخرج عن عكرمة أنه قيل له عند ذكر الرؤية : أليس قد قال : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ؟ فقال : ألستَ ترى السماء؟ أفكلها ترى !.

وقوله : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ... ﴾ [٤] الآية .

فسره قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [٥]

وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [٦] ، فسَّره قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ ... ﴾ [٧] ، الآية .

وقوله : ﴿ فتلقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [٨] ، فسَّره قوله : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ... ﴾ [٩] الآية .

وقوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ [١٠]، فسره قوله فى آية النحل: ﴿ بالأنثى ﴾ [١١].

وقوله : ﴿ وأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [١٢] ، قال العلماء : بيان هذا العهد قوله : ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي .. ﴾ [١٣] إلى آخره فهذا عهده وعهدهم ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ... ﴾ [١٣] إلى آخره .

---

(١) البقرة ٢٢٩ (٢) القيامة ٢٢، ٢٣ (٣) الأنعام ١٠٣
(٤) المائدة ١ (٥) المائدة ٣ (٦) فاتحة الكتاب ٤
(٧) الانفطار ١٨، ١٩ (٨) البقرة ٣٧ (٩) الأعراف ٢٣
(١٠) الزخرف ١٧ (١١) النحل ٥٨ (١٢) البقرة ٤٠
(١٣) المائدة ١٢

وقوله : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[1] بيّنه قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ... ﴾[2] الآية .

وقد يقع التبيين بالسنّة ، مثل ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[3] ، ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾[4] ؛ وقد بيّنت السنة أفعال الصلاة والحج ومقادير نُصُب الزكوات فى أنواعها .

* * *

تنبيـــه

اختُلف فى آيات ، هل هى من قبيل المجمل أولا ؟

منها آية السرقة ؛ قيل: إنها مجملة فى اليد ؛ لأنها تطلق على العضو إلى الكوع ، وإلى المرفق، وإلى المنكب ؛ وفى القطع لأنه يطلق على الإبانة ، وعلى الجُرح ولا ظهور لواحد من ذلك وإبانة الشارع من الكوع تبيّن أن المراد ذلك . وقيل : لا إجمال فيها ؛ لأن القطع ظاهر فى الإبانة .

ومنها ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾[5] ؛ قيل : إنها مجملة لتردّدها بين مسح الكلّ والبعض ؛ ومسحُ الشارع الناصيةَ مبيّن لذلك . وقيل: لا، وإنما هى لمطلق المسح الصادق بأقلّ مايطلق عليه الاسمُ ويفيده .

ومنها: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾[6]، قيل : مجملة لأنّ إسناد التحريم إلى العين لايصحّ ؛ لأن إنما يتعلّق بالفعل ، فلابدّ من تقديره ، وهو محتَمل لأمور لاحاجة إلى جميعها ، ولا مرجِّح لبعضها . وقيل: لا ،لوجود المرجِّح ؛ وهو العرْف ؛ فإنه يقضى بأن

---

(١) الفاتحة ٣ (٢) مريم ٥٨ (٣) البقرة ٤٣
(٤) آل عمران ٩٧ (٥) المائدة ٦ (٦) النساء ٤٣

المراد تحريم الاستمتاع بوطء أو نحوه ؛ ويجرى ذلك فى كل ماعُلِّق فيه التحريم والتحليل بالأعيان .

ومنها ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ ؛ قيل : إنها مجملة لأنّ الربا الزيادة ؛ وما من بيع إلاّ وفيه زيادة ، فافتقر إلى بيان مايحلّ وما يحرم . وقيل : لا ؛ لأنّ البيع منقول شرعاً ، فحُمِل على عمومه ؛ مالم يقم دليل التخصيص .

وقال المـاوردىّ : للشافعىّ فى هذه الآية أربعة أقوال :

أحدها : أنّها عامّة ؛ فإن لفظها لفظ عموم يتناول كلّ بيع ، ويقتضى إباحة جميعها ؛ إلاّ ماخصّه الدليل ؛ وهذا القول أصحّها عند الشافعىّ وأصحابه ، لأنّه صلى الله عليه وسلم نهى عن بيوعٍ كانوا يعتادونها ، ولم يبيّن الجائز ، فدلّ على أن الآية تناولت إباحةَ جميع البيوع ؛ إلاّ ماخُصّ منها ، فبيّن صلّى الله عليه وسلم المخصوص . قال : فعلى هذا فى العموم قولان:

أحدهما : أنه عموم أريد به العموم ، وإن دخله التخصيص .

والثانى : أنه عموم أريد به الخصوص قال : والفرق بينهما أن البيان فى الثانى متقدّم على اللفظ ، وفى الأول متأخر عنه مقترن به . قال : وعلى القولين يجوز الاستدلال بالآية فى المسائل فى المختلف فيها مالم يقم دليل تخصيص .

والقول الثانى : أنّها مجملة لا يُعقل منها صحّة بيع من فساده إلاّ ببيان النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، قال : ثمّ هل هى مجملة بنفسها أم بعارض مانُهِى عنه من البيوع ؟ وجهان . وهل الإجمال فى المعنى المراد دون لفظها ؛ لأن لفظ البيع اسم لغوىّ معناه معقول لكن، لما قام بإزائه من السنّة ما يعارضه ، تدافع العمومان ، ولم يتعيّن المراد إلاّ ببيان السنّة ، فصار محلاًّ لذلك دون اللفظ ، أو فى اللفظ أيضا لأنّه لمّا لم يكن المراد منه ماوقع عليه الاسم ، وكانت له شرائط غير معقولة فى اللغة ، كان مشكلا أيضا ؟ وجهان. قال : وعلى الوجهين لا يجوز الاستدلال بها على صحّة بيع ولا فساده ؛ وإن دلّت على صحة البيع من أصله . قال : وهذا هو الفرق بين العموم والمجمَل ؛ حيث جاز الاستدلال بظاهر العموم ، ولم يجز الاستدلال بظاهر المجمل .

والقول الثالث : أنّها عامّة مجملة معاً ،قال: واختُلف فى وجه ذلك على أوجه :

أحدها : أن العموم فى اللفظ والإجمال فى المعنى ، فيكون اللفظ عاماًّ مخصوصاً والمعنى مجملا لحقه التفسير .

والثانى : أن العموم فى ﴿ وأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ ﴾ والإجمال فى ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[١].

والثالث : أنّه كان مجملا ، فلمّا بيّنه صلّى الله عليه وسلم صار عامًّا ، فيكون داخلاً فى المجمل قبل البيان ، وفى العموم بعد البيان ، فعلى هذا يجوز الاستدلال بظاهرها فى البيوع المختلف فيها .

والقول الرابع : أنّها تناولت بيعاً معهوداً ، ونزلت بعد أن أحلّ النبىّ صلى الله عليه وسلم بيوعاً وحرّم بيوعاً ، فاللّام للعهد ؛ فعلى هذا لايجوز الاستدلال بظاهرها. انتهى .

ومنها الآيات التى فيها الأسماء الشرعيّة .نحو﴿وأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[٢] ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [٣] . ﴿ولِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾[٤]، قيل إنها مجملة لاحتمال الصلاة لكل دعاء،والصوم لكل إمساك ، والحجّ لكل قصد،والمراد بها لاتدلّ عليه اللغة ، فافتقر إلى البيان . وقيل : لا ، بل يحمل علىَ كل ماذكر إلاّ ماخُصّ بدليل .

تنبيـــه

قال ابن الحصّار[٥]: من الناس من جعل المجمل والمحتَمل بإزاء شئ واحد.قال:والصواب أن المجمل اللفظُ المبهم الذى لايفهم المراد منه ، والمحتَمل اللفظ الواقع بالوضع الأول على معنيين مفهومين فصاعداً،سواء كان حقيقة فى كلّها أو بعضها . قال : والفرق بينهما أنّ المجمل يدلّ على أمور معروفة،واللفظ مشترك متردّد بينهما، والمبهم لايدلّ على أمر معروف مع القطع بأن الشارع لم يفوّض لأحد بيان المجمل ، بخلاف المحتَمل .

---

(١) البقرة ٢٧٥ (٢) البقرة ٤٣ (٣) البقرة ١٨٥

(٤) آل عمران ٩٧ (٥) هو على بن محمد بن محمد بن إبراهيم الخزرجى الإشبيلى ، له مؤلفات، منها أصول الفقه ، والناسخ والمنسوخ ، والبيان فى تنقيح البرهان . توفى سنة ٦١١ . التكملة لابن أبار ٦٨٦ .

النوع السابع والأربعون

في ناسخه ومنسوخه

أفرده بالتصنيف خلائق لايُحصَوْن ، منهم أبو عبيد القاسم بن سلاّم ، وأبو داود السجستانيّ وأبو جعفر النحّاس ، وابن الأنباريّ ، ومكيّ ، وابن العربيّ ، وآخرون .

قال الأئمة : لايجوز لأحد أن يفسّر كتاب الله إلاّ بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ .

وقد قال عليّ لقاضٍ : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : هَلَكْتَ وأهلكت .

وفى هذا النوع مسائل :

الأولى : يرد النسخ بمعنى الإزالة ، ومنه قوله : ﴿ فَيَنْسَخُ اللهُ مَايُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ ﴾[1] .

وبمعنى التبديل ، ومنه : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾[2] .

وبمعنى التحويل ، كتناسخ المواريث ، بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد .

وبمعنى النقل من موضع إلى موضع ، ومنه : نسخت الكتاب ، إذا نقلتَ مافيه حاكياً للفظه وخطّه .

قال مكيّ : وهذا الوجه لايصحّ أن يكون فى القرآن ، وأنكر على النحّاس إجازته ذلك ، محتجاً بأن الناسخ فيه لايأتى بلفظ المنسوخ ؛ وأنه إنما يأتى بلفظ آخر .

---

(١) الحج ٥٢ (٢) النحل ١٠١

وقال السعيدىّ : يشهد لما قاله النحّاس قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١) ، وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾(٢) .

ومعلوم أن ماتزل من الوحى نجوماً جَمِيعُهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ، وهو اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾(٣) .

* * *

الثانية : النسخ مما خصّ الله به هذه الأمة لِحِكَمٍ ، منها التيسير . وقد أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بَداء ، كالذى يرى الرأى ثم يبدوله ، وهو باطل لأنه بيان مدّة الحكم كالإحياء بعد الإماتة وعكسه ، والمرض بعد الصحة وعكسه ، والفقر بعد الغنى وعكسه ، وذلك لا يكون بداء ، فكذا الأمر والنهى .

واختلف العلماء فقيل : لا يُنسخ القرآن إلا بقرآن ، لقوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾(٤) ، قالوا : ولا يكون مثلَ القرآن وخيراً منه إلا قرآن .

وقيل : بل يُنسخ القرآن بالسنّة ؛ لأنها أيضاً من عند الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾(٥) ، وجُعل منه آية الوصية الآتية .

والثالث : إذا كانت السنّة بأمر الله من طريق الوحى نسخت ، وإن كانت باجتهاد فلا . حكاه ابن حبيب النيسابورىّ فى تفسيره .

وقال الشافعىّ : حيث وقع نسخ القرآن بالسنّة ، فمعها قرآن عاضد لها ، وحيث وقع نسخ السنّة بالقرآن فمعه سنّة عاضدة له ، ليتبيّن توافق القرآن والسنّة ، وقد بسطت فروع هذه المسألة فى شرح منظومة جمع الجوامع فى الأصول .

---

(١) الجاثية ٢٩ (٢) الزخرف ٤ (٣) الواقعة ٧٩،٧٨
(٤) البقرة ١٠٦ (٥) النجم ٣

الثالثة : لا يقع النسخ إلاَّ فى الأمر والنّهى ، ولو بلفظ الخبر ، أما الخبر الذى ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ ، ومنه الوعد والوعيد . وإذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من أدخل فى كتب النسخ كثيراً من آيات الإخبار والوعد والوعيد .

* * *

الرابعة : النّسخ أقسام :

أحدها : نسخ المأمور به قبل امتثاله ، وهو النسخ على الحقيقة كآية النّجوى .

الثانى : ما نسخ مما كان شرعاً لمن قبلنا ، كآية شرع القصاص والدّية ، أو كان أُمِرَ به أمراً جُمْلياً كنسخ التوجّه إلى بيت المقدس بالكعبة ، وصوم عاشوراء برمضان ، وإنما يسمّى هذا نسخاً تجوّزاً .

الثالث : ما أُمِر به لسبب ، ثم يزول السبب ، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال، وهذا فى الحقيقة ليس نسخاً بل هو من قسم المُنْسَأ ، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ ننسأها ﴾ ، فالمُنْسَأ هو الأمر بالقتال إلى أن يَقْوى المسلمون ، وفى حال الضعف يكون الحكم وجوب الصَّبْر على الأذى ، وبهذا يضعف ما لَهِجَ به كثيرون من أنَّ الآية فى ذلك منسوخة بآية السيف ، وليس كذلك، بل هى من المُنْسَأ بمعنى أن كلّ أمرٍ ورد يجب امتثاله فى وقت ما ، لعله يقتضى ذلك الحكم ، ثمّ ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ ؛ إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله .

وقال مكىّ : ذكر جماعة أن ما ورد فى الخطاب مُشيرٌ بالتوقيت والغاية مثل قوله فى البقرة : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (١) ، محكَمٌ غير منسوخ ، لأنه مؤجَّل بأجلٍ ، والمؤجَّل بأجلٍ لا نسخ فيه .

* * *

الخامسة : قال بعضهم : سوَرُ القرآن باعتبار الناسخ والمنسوخ أقسام :

---

(١) البقرة ١٠٩

قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ ، وهو ثلاثة وأربعون: سورة الفاتحة ، ويوسف ، ويس ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والصفّ ، والجمعة ، والتحريم ، والملك ، والحاقة ، ونوح ، والجنّ ، والمرسلات ، وعمّ ، والنازعات ، والانفطار وثلاث بعدها ، والفجر وما بعدها إلى آخر القرآن ، إلا التين والعصر ، والكافرين .

وقسم فيه الناسخ والمنسوخ ، وهى خمسة وعشرون: البقرة وثلاث بعدها ، والحجّ ، والنور وتالياها ، والأحزاب ، وسبأ ، والمؤمن ، وشورى ، والذاريات ، والطور ، والواقعة ، والمجادلة ، والمزمّل ، والمدّثر ، وكُوِّرت ، والعَصْر .

وقسم فيه النّاسخ فقط ، وهو ستة : الفتح ، والحشر ، والمنافقون ، والتغابن ، والطّلاق ، والأعلى .

وقسم فيه المنسوخ فقط ، وهو الأربعون الباقية . كذا قال ، وفيه نظر يعرف مما سيأتى .

* * *

السادسة : قال مكيّ : الناسخ أقسام :

فرضٌ نسَخ فرضاً ، ولا يجوز العمل بالأول ، كنسخ الحبس للزواني بالحدّ .

وفرضٌ نسخ فرضاً ويجوز العمل بالأول كآية المصابَرَة .

وفرض نَسخ ندباً كالقتال ، كان ندْبا ثم صار فرضاً .

وندب نَسَخ فرضا ، كقيام الليل ، نسِخ بالقراءة فى قوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ ﴾ (١) .

* * *

السابعة : النسخ فى القرآن على ثلاثة أضرب :

أحدها : ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة : كان فِيما أنزل: « عشر رضعات معلومات فنسخنَ بخمس معلومات ، فتُوفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهنّ

---

(١) المزمل ٢٠

مما يقرأ من القرآن »، رواه الشيخان. وقد تكلموا فى قولها : « وهن مما يقرأ »: فإنّ ظاهره بقاء التلاوة ، وليس كذلك .

وأجيب بأن المراد : قارب الوفاة ، أو أنّ التلاوة نُسِخت أيضاً ، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَتُوُفِّىَ وبعض الناس يقرؤها .

وقال أبو موسى الأشعرىُّ : نزلت ثم رفعت .

وقال مكّى : هذا المثال فيه المنسوخ غير متلوّ ، والناسخ أيضاً غير متلوّ ، ولا أعلم له نظيراً . انتهى .

الضرب الثانى : ما نُسِخ حكمه دون تلاوته ، وهذا الضرب هو الذى فيه الكتب المؤلّفة ، وهو على الحقيقة قليل جدًّا ؛ وإنْ أكثر الناسُ من تعداد الآيات فيه ؛ فإن المحقّقين منهم كالقاضى أبى بكر بن العربىّ بيّن ذلك وأتقنه .

والذى أقوله : إن الذى أورده المكثرون أقسام : قسم ليس من النسخ فى شىء ولا من التخصيص ، ولا له بهما علاقة بوجه من الوجوه ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) ، و ﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٢) ، ونحو ذلك . قالوا : إنه منسوخ بآية الزكاة ، وليس كذلك بل هو باقٍ ، أمّا الأولى فإنها خبر فى معرض الثناء عليهم بالإنفاق ، وذلك يصلح أن يفسّر بالزكاة وبالإنفاق على الأهل وبالإنفاق فى الأمور المندوبة كالإعانة والإضافة ، وليس فى الآية ما يدلّ على أنها نفقة واجبة غير الزكاة ، والآية الثانية يصلحُ حملها على الزكاة ، وقد فسّرت بذلك .

وكذا قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٣) ، قيل : إنها مما نسِخ بآية السيف ، وليس كذلك ، لأنه تعالى أحكم الحاكمين أبداً ، لا يقبل هذا الكلام النّسخ ، وإن كانَ معناه الأمر بالتفويض وترك المعاقبة .

---

(١) الأنفال ٣ (٢) البقرة ٢٥٤ (٣) التين ٨

وقوله فى البقرة : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حسنا ﴾ (١) ، عدّه بعضهم من المنسوخ بآية السيف . وقد غلّطه ابن الحصّار بأنّ الآية حكاية عمّا أخذه على بنى إسرائيل من الميثاق، فهو خبر لا نَسخ فيه ، وقسْ على ذلك .

وقسم هو من قسم المخصوص ، لا من قسم المنسوخ وقد اعتنى ابن العربىّ بتحريره فأجاد ، كقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) ، ﴿ وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ (٣) ﴿ إِلاَّ الذِينَ آمَنُوا ... ﴾ (٤) ، ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّي يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٥) ، وغير ذلك من الآيات التى خُصَّت باستثناء أو غاية . وقد أخطأ من أدخلها فى المنسوخ .

ومنه قوله : ﴿ وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ﴾ (٦) ، قيل أنه نُسخ بقوله : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ (٧) ، وإنما هو مخصوص به .

وقسم رَفع ما كان عليه الأمر فى الجاهلية أو فى شرائع مَنْ قبلنا أو فى أوّل الإسلام ولم ينزَل فى القرآن ، كإبطال نكاح نساء الآباء ومشروعيّة القصاص والدِّيَة وحَصْر الطَّلاق فى الثلاث ، وهذا إدخاله فى قسم الناسخ قريب ، ولكن عدم إدخاله أقرب، وهو الذى رجّحه مكّى وغيره ، ووجّهوه بأن ذلك لو عُدّ فى الناسخ لعُدّ جميع القرآن منه، إذ كلّه أو أكثره رافع لما كان عليه الكفّار وأهل الكتاب . قالوا : وإنما حقّ الناسخ والمنسوخ أن تكون آية نسخت آية . انتهى .

نعم النوع الأخير منه ، وهو رافع ما كان فى أوّل الإسلام ، إدخاله أوْجَه من القسمين قبله .

إذا علمت ذلك فقد خرج من الآيات التى أوردها المكثرون الجمّ الغفير مع آيات

---

(١) البقرة ٨٣ (٢) العصر ٢، ٣ (٣) الشعراء ٢٢٤
(٤) الشعراء ٢٢٧ (٥) البقرة ١٠٩ (٦) البقرة ٢٢١
(٧) المائدة ٥

الصفح والعفو ، إن قلنا إن آية السيف لم تنسخها ، وبقى مما يصلح لذلك عدد يسير ، وقد أفردته بأدلته فى تأليف لطيف ، وها أنا أورده هنا محرراً :

فمن البقرة :

قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ... ﴾ (1) ، الآية منسوخة ، قيل بآية المواريث ، وقيل بحديث « ألا لا وصيّة لوارث » ، وقيل : بالإجماع ، حكاه ابن العربى .

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾ (2) ، قيل منسوخة بقوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (3) ، وقيل محكمة ولا مقدرة .

وقوله : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ﴾ (4) ، ناسخة لقوله : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (5) ، لأن مقتضاها الموافقة فيما كانوا عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النوم ، ذكره ابن العربى . وحكى قولا آخر أنه نسخ لما كان بالسنة .

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ (6) الآية منسوخة بقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ... ﴾ (7) ، الآية ، أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ... ﴾ (8) ، إلى قوله : ﴿ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ ﴾ (9) ، منسوخة بآية أربعة أشهر وعشراً ، والوصية منسوخة بالميراث والسكنى ثابتة عند قوم منسوخة عند آخرين بحديث « ولا سكنى » .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (10) ، منسوخة بقوله بعده : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (11) .

---

(1) آية ١٨٠ (2) آية ١٨٤ (3) آية ١٨٥
(4) آية ١٨٧ (5) آية ١٨٣ (6) آية ٢١٧
(7) التوبة ٣٦ (8) آية ٢٣٤ (9) آية ٢٤٠
(10) ٢٨٤ (11) آية ٢٨٦

ومن آل عمران :

قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [١] ، قيل إنه منسوخ بقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [٢] ، وقيل :لا ، بل هو محكم.وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية .

* * *

ومن النساء :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ [٣] ، منسوخة بقوله : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ [٤] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ... ﴾ [٥] ، الآية ، قيل منسوخة ، وقيل : لا ، ولكن تهاون الناس فى العمل بها .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفاحِشَةَ .. ﴾ [٦] ، الآية منسوخة بآية النور .

* * *

ومن المائدة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا الشَّهْرُ الْحَرَامُ ﴾ [٧] ، منسوخة بإباحة القتال فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [٨] ، منسوخة بقوله : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾ [٩] .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ [١٠] ، منسوخ بقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ [١١] .

* * *

---

(١) آية ١٠٢ (٢) التغابن ٦ (٣) النساء ٣٣
(٤) الأنفال ٧٥ (٥) النساء ٨ (٦) النساء ١٥
(٧) المائدة ٢ (٨) المائدة ٤٢ (٩) آية ٤٩
(١٠) آية ١٠٦ (١١) الطلاق ٢

ومن الأنفال :

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ... ﴾[١] ، الآية ، منسوخة بالآية بعدها .

* * *

ومن براءة :

قوله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[٢] ، منسوخة بآيات العذر ، وهو قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ... ﴾[٣] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ... ﴾[٤] الآيتين ، وبقوله : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّة ﴾[٥]

* * *

ومن النور :

قوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً ... ﴾[٦] ، الآية ، منسوخة بقوله : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴾[٨] ، الآية ، قيل منسوخة ، وقيل : لا ، ولكن تهاون الناس في العمل بها .

* * *

ومن الأحزاب :

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ... ﴾[٩] ، الآية ، منسوخة بقوله : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ... ﴾[١٠] الآية .

* * *

ومن المجادلة :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا ... ﴾[١١] ، الآية ، منسوخة بالآية بعدها .

* * *

(١) آية ٦٥ — (٢) التوبة ٤١ — (٣) النور ٦١
(٤) التوبة ٩١ — (٥) التوبة ١٢٢ — (٦) النور ٣
(٧) النور ٣٢ — (٨) النور ٥٨ — (٩) الأحزاب ٥٢
(١٠) الأحزاب ٣٣ — (١١) آية ١٢

ومن الممتحنة :

قوله تعالى : ﴿ فَآتُوا الذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ [١] ، قيل منسوخ بآية السيف ، وقيل : بآية الغنيمة ، وقيل : محكم .

* * *

ومن المزمّل :

قوله : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [٢] ، قيل : منسوخ بآخر السورة ، ثم نسخ الآخر بالصلوات الخمس .

فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة ، على خلاف فى بعضها ، لا يصح دعوى النسخ فى غيرها . والأصح فى آية الإستئذان والقسمة الإحكام ، فصارت تسعة عشر ، ويضمّ إليها قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [٣] ، على رأى ابن عباس أنها منسوخة بقوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... ﴾ [٤] الآية ، فتمت عشرون .

وقد نظمتها فى أبيات فقلت :

قد أكثر النّاس فى المنسوخ من عددٍ ... وأدخلوا فيه آياً ليس تنحصرُ

وهاكَ تحرير آيٍ لا مزيدَ لها ... عشرينَ حرَّرها الحذّاق والكُبَرُ

آى التوجّه حيث المرء كان وأنْ ... يوصِى لأهليه عند الموت محتضِرُ

وحرّمت الأكل بعد النّوم من رفثٍ ... وفديةٌ لمطيق الصّوم مشتهرُ

وحقّ تقواه فيما صحّ من أثرٍ ... وفى الحرام قتالٌ للألى كفرُوا

والاعتداد بحولٍ معْ وصيّتها ... وأنْ يُدَانَ حديثُ النفس والفِكَرُ

والحلف والحبس للزانى وترك أولى ... كفروا شهادتهم والصَّبْرُ والنَّفَرُ

ومنع عقدٍ لزانٍ أو لزانيةٍ ... وما على المصطفى فى العقد محتَظَرُ

ودفع مهرٍ لمن جاءت وآية نجـ ... ـواه كذاك قيامُ الليل مُستَطِرُ

وزيد آية الاستئذان مَنْ ملكت ... وآية القسمة الفُضلى لمن حضروا

(١) آية ١١ (٢) المزمل ١ (٣) البقرة ١١٥
(٤) البقرة ١٤٩

فإن قلت : ما الحكمة فى رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أنّ القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به ، فيتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه ، فتركت التلاوة لهذه الحكمة .

والثانى : أنّ النسخ غالباً يكون للتخفيف ، فأبقيت التلاوة تذكيراً للنعمة ، ورفع المشقّة ، وأمّا ما ورد فى القرآن ناسخاً لما كان عليه الجاهلية أو كان فى شرع مَنْ قبلنا ، أو فى أوّل الإسلام ، فهو أيضاً قليل العدد ، كنسخ استقبال بيت المقدس بآية القبلة ، وصوم عاشوراء بصوم رمضان ؛ فى أشياء أُخَر حَرَّرْتُها فى كتابى المشار إليه .

* * *

فوائد منثورة

قال بعضهم : ليس فى القرآن ناسخ إلاّ والمنسوخ قبله فى الترتيب ، إلا فى آيتين: آية العِدّة فى البقرة ، وقوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ﴾[1] ، تقدّم .

وزاد بعضهم ثالثة ، وهى آية الحشر فى الفىء على رأى من قال إنها منسوخة بآية الأنفال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾[2] .

وزاد قوم رابعة وهى قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾[3] يعنى الفضل من أموالهم ، على رأى من قال إنها منسوخة بآية الزكاة .

وقال ابن العربى : كلّ ما فى القرآن من الصفح عن الكفّار والتولّى والإعراض والكفّ عنهم فهو منسوخ بآية السيف ، وهى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ... ﴾[4] الآية ، نَسخت مائة وأربعاً وعشرين آية ، ثم نسخ آخرُها أوّلَها . انتهى

وقد تقدم ما فيه . وقال أيضاً . من عجيب المنسوخ قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ... ﴾[3] الآية ، فإن أوّلها وآخرها ، وهو ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[3] منسوخ، ووسطها محكَم : وهو ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾[3] .

---

(١) الأحزاب ٥٢ (٢) الأنفال ٤١ (٣) الأعراف ١٩٩ (٤) التوبة ٥

وقال : من عجيبه أيضاً آية أولها منسوخ وآخرها ناسخ ، ولا نظير لها ، وهي قوله ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[١] ، يعني بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فهذا ناسخ لقوله : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

وقال السعيدي : لم يمكث منسوخ مدة أكثر من قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ... ﴾[٢] الآية ، مكثت ست عشرة سنة حتى نسخها أول الفتح عام الحديبية .

وذكر هبة الله بن سلامة الضرير أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ... ﴾[٣] الآية : إنّ المنسوخ من هذه الجملة ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ والمراد بذلك أسير المشركين ، فقرئ عليه الكتاب وابنته تسمع ، فلما انتهى إلى هذا الموضع ، قالت له : أخطأت ياأبتِ ، قال : وكيف ! قالت : أجمع المسلمون على أن الأسير يُطعَم ولا يُقتَل جوعاً ، فقال : صدقتِ .

وقال شيذلة في البرهان : يجوز نسخ الناسخ فيصير منسوخاً ، كقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٤] ، نسخها قوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾[٥] ، ثم نسخ هذه بقوله : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾[٦] ، كذا قال ، وفيه نظر من وجهين :

أحدهما : ما تقدّمت الإشارة إليه .

والآخر : أن قوله : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾[٦] ، مخصِّص للآية لا ناسخ . نعم يمثّل له بآخر سورة المزّمّل ، فإنّه ناسخ لأوّلها منسوخ بفرض الصلوات .

وقوله : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[٧] ناسخ لآيات الكفّ ، منسوخ بآيات العُذر .

وأخرج أبو عبيد بن الحسن وأبي ميسرة ، قالا : ليس في المائدة منسوخ . ويشكل

---

(١) المائدة ١٠٥ — (٢) الأحقاف ٩ — (٣) الإنسان ٨
(٤) الكافرون ٦ — (٥) التوبة ٥ — (٦) التوبة ٢٩
(٧) التوبة ٤١

بما فى المستدرك عن ابن عباس أن قوله : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾[١] منسوخ بقوله : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾[٢].

وأخرج أبوعبيد وغيره عن ابن عباس ، قال : أوّل مانسخ من القرآن نسخ القِبْلة .

وأخرج أبو داود فى ناسخه من وجهٍ آخر عنه ، قال : أول آية نسخت من القرآن القبلة ثم الصيام الأول .

قال مكّى : وعلى هذا فلم يقع فى المكىِّ ناسخ . قال : وقد ذكر أنه وقع فى آيات: منها قوله تعالى فى سورة غافر: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾[٣] فإنه ناسخ لقوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾[٤] .

قلت : أحسن من هذه نسخ قيام الليل فى أول سورة المزمّل بآخرها ، أو بإيجاب الصلوات الخمس ، وذلك بمكّة اتفاقاً .

* * *

تنبيــــه

قال ابن الحصّار : إنما يُرجع فى النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن صحابىّ يقول : آية كذا نَسخت كذا.

قال : وقد يحكم به عند وجود التّعارض المقطوع به من علم التاريخ ، ليعرف المتقدّم والمتأخر .

قال : ولا يعتمَد فى النسخ قول عوامّ المفسرين ، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ، ولا معارضة بيّنة؛ لأن النسخ يتضمّن رفع حكم وإثبات حكم تقرر فى عهده صلى الله عليه وسلم . والمعتمَد فيه النّقل والتاريخ دون الرأى والاجتهاد .

---

(١) المائدة ٤٢ (٢) المائدة ٤٩ (٣) آية ٧
(٤) الشورى ٥

قال : والناس فى هذا بين طرفَىْ نقيض ، فمن قائل : لا يُقبَل فى النسخ أخبار الآحاد العُدول ؛ ومن متساهل يكتفى فيه بقول مفسّر أو مجتهد . والصواب خلاف قولهما : انتهى .

الضرب الثالث : ما نسخ تلاوته دون حكمه ، وقد أورد بعضهم فيه سؤالا وهو : ما الحكمة فى رفع التلاوة مع بقاء الحكم ؟ وهلاّ بقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها !

وأجاب صاحب الفنون : بأنّ ذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمّة فى المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظنّ ، من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به ، فيسرعون بأيسر شئ ، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام ، والمنام أدنى طريق الوحى ؛ وأمثلة هذا الضرب كثيرة . قال أبو عبيد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن نافع عن ابن عمر ، قال : لا يقولنّ أحدكم : قد أخذت القرآن كله ، وما يدريه ما كلّه ! قد ذهب منه قرآن كثير ، ولكن ليقل : قد أخذت منه ما ظهر .

وقال : حدثنا ابن أبى مريم ، عن أبى لَهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، قالت : كانت سورة الأحزاب تُقرأ فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم مائتى آية ، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن .

وقال : حدثنا إسماعيل بن جعفر ، عن المبارك بن فضالة ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن زِرّ بن حُبيش ، قال : قال لى أبىّ بن كعب : كأيّن تعدّ سورة الأحزاب ؟ قلت : اثنتين وسبعين آية ، أو ثلاثة وسبعين آية ، قال : إن كانت لتَعْدِل سورة البقرة ، وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم . قلت : وما آية الرجم ؟ قال : « إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتَّةَ نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

وقال : حدّثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن مَرْوان بن عثمان ، عن أبى أمامة بن سهل ، أن خالته قالت : لقد أقرأنا

رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الرجم : « الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة بما قضيا من اللذة » .

وقال : حدثنا حجاج ، عن ابن جُريج ، أخبرني ابن أبي حميد ، عن حميدة بنت أبي يونس ، قالت : قرأ عليّ أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة « إنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً . وعلى الذين يصلون الصفوف الأوَل » ، قالت : قبل أن يغيّر عثمان المصاحف .

وقال : حدثنا عبد الله بن صالح عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار عن أبي واقد الليثيّ ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحِيَ إليه أتيناه ، فعلّمنا مما أوحى إليه . قال : فجئت ذات يوم ، فقال : إن الله يقول : « إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم وادياً لأحبَّ أن يكون إليه الثاني ، ولو كان له الثاني لأحبَّ أن يكون إليهما الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

وأخرج الحاكم في المستدرك ، عن أبيّ بن كعب ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، فقرأ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والمُشْرِكِينَ ﴾ ومن بقيّتها : « لو أنّ ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه ، سأل ثانياً ، وإن سألَ ثانياً فأعطيه سأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . وإنّ ذات الدين عند الله الحنيفيّة غير اليهودية ولا النصرانية . ومن يعمل خيراً فلن يكفَرَه » .

وقال أبو عبيد ، حدّثنا حجّاج ، عن حماد بن سلمة ، عن عليّ بن زيد ، عن أبي حرب ابن أبي الأسود ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : نزلتْ سورة نحو براءة ، ثم رُفعت وحُفِظ منها : « إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم ، ولو أنّ لابن آدم واديين

من مال لتمنّى وادياً ثالثا ، ولا يملأ جوف ابنِ آدم إلاّ التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

وأخرج ابنُ أبى حاتم ، عن أبى موسى الأشعرىّ ، قال : كنا نقرأ سورة نشبِّهها المسبِّحات فأنسيناها ، غير أنى حفظت منها : « يَأيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا لا تقولُوا مالا تفعَلونَ ، فتكتب شهادة فى أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة » .

وقال أبو عبيد : حدّثنا حجّاج ، عن سعيد ، عن الحكم بن عتيبة ، عن عدىّ بن عدىّ ، قال : قال عمر كنا نقرأ : « لا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم » ، ثم قال لزيد بن ثابت : أكذلك ؟ قال : نعم .

وقال : حدّثنا ابن أبى أبى مريم ، عن نافع بن عمر الجمحىّ ، وحدثنى ابن أبى مُليكة ، عن المِسْوَر بن مخرمة ، قال : قال عمر لعبد الرحمن بن عوف : ألم تجدْ فيما أنزل علينا « أن جَاهِدوا كما جاهدتم أول مرة » ؟ فإنا لا نجدها ! قال : أسقِطت فيما أسقط من القرآن .

وقال : حدثنا ابن أبى مريم ، عن ابى لَهيعة ، عن يزيد بن عمرو المَعافرىّ ، عن أبى سفيان الكَلاعىّ ، أن مسلمة بن مخلَد الأنصارىّ قال لهم ذات يوم : أخبرونى بآيتين فى القرآن لم يكتبا فى المصحف ، فلم يخبروه ـ وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك ـ فقال مسلَمة : « إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاَجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَلاَ أَبْشِرُوا أَنْتُمُ الْمُفلِحُونَ * وَالَّذِينَ آوَوْهُمْ وَنَصَرُوهُمْ وَجَادَلُوا عَنْهُم الْقَوْمَ الَّذِينَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ أُولٰئِكَ لاَتَعْلَمُ نَفْسٌ مَاأُخفِي لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وأخرج الطّبرانى فى الكبير ، عن ابن عمر ، قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانا يقرآن بها ، فقاما ذات ليلة يصلّيان ، فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديَيْن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرا ذلك له ، فقال : إنها مما نسخ ، فالهوا عنها .

وفى الصحيحين ، عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الّذين قتلوا وقنت يدعو على قاتليهم ، قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رُفع : « أن بلّغوا عنا قومنا أنّا لقينا ربنا فرضىَ عنا وأرضانا » .

وفى المستدرك عن حذيفة ، قال : ماتقرءون ؟ ربعها ! يعنى براءة .

قال : الحسين بن المنادى فى كتابه «الناسخ والمنسوخ» : ومما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه، سورتا القنوت فى الوِتْر ، وتسمّى سورتَيِ الخَلْع والحفد .

* * *

تنبيه

حكى القاضى أبو بكر فى الانتصار عن قوم إنكار هذا الضّرْب ، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولايجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحادٍ لاحجّة فيها .

وقال أبو بكر الرازىّ : نسخُ الرسم والتلاوة ، إنما يكون بأن ينسيَهم الله إياه ، ويرفعه من أوهامهم ، ويأمرهم بالإعراض عن تلاوته وكَتْبه فى المصحف ، فيندرس على الأيام كسائر كتب الله القديمة التى ذكرها فى كتابه فى قوله : ﴿ إِنَّ هٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾[1] ، ولا يعرَف اليوم منها شىء . ثم لا يخلو ذلك من أن يكون فى زمان النبىّ صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا تُوُفِّىَ لا يكون متلوًّا فى القرآن، أو يموت وهو متلوّ موجود بالرّسْم ، ثم ينسيه الله الناس ، ويرفعه من أذهانهم . وغير جائز نسخ شىء من القرآن بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . انتهى .

وقال فى البرهان فى قول عمر : لولا أن يقولَ الناس : زاد عمر فى كتاب الله لكتبتها — يعنى آية الرجم — ظاهره أنّ كتابتها جائزة ، وإنما منعه قول الناس ، والجائز فى نفسه قد يقوم من خارج ما يمنعُه ، فإذا كانت جائزة لزم أن تكون ثابتةً ،

---

(١) الأعلى ١٨ ، ١٩

لأن هذا شأن المكتوب . وقد يقال : لو كانت التلاوة باقية لبادر عمر ولم يعرج على مقالة الناس ، لأن مقالة الناس لا تصلح مانعاً . وبالجملة هذه الملازمة مشكلة ، ولعله كان يعتقد أنه خبر واحد ، والقرآن لا يثبت به ، وإن ثبت الحكم ، ومن هنا أنكر ابن ظفر في « الينبوع »[1] عدّ هذا مما نسخ تلاوته ، قال : لأن خبر الواحد لا يُثبت القرآن .

قال : وإنما هذا من المنسأ لا النسخ ، وهما مما يلتبسان ، والفرق بينهما أن المُنسأ لفظُه قد يعلم حكمه[2] . انتهى .

وقوله : « لعلّه كان يعتقد أنه خبر واحد » مردود ، فقد صحّ أنه تلقاها من النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الحاكم من طريق كثير بن الصامت ، قال : كان زيد بن ثابت وسعيد ابن العاص يكتُبان المصحف ، فمرّا على هذه الآية ، فقال زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة » ، فقال عمر : لما نزلت أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : أكتبها ؟ فكأنه كره ذلك ، فقال عمر : ألا ترى أنّ الشيخ إذا زنى ولم يحصَن جُلِدَ ، وأنّ الشاب إذا زنى وقد أحصن رُجِمَ !

قال ابن حجر في شرح المنهاج : فيستفاد من هذا الحديث السبب في نسخ تلاوتها ؛ لكون العمل على غير الظاهر من عمومها .

قلت : وخطر لي في ذلك نكتة حسنة ، وهو أن سببه التخفيف على الأمّة بعدم اشتهار تلاوتها وكتابتها في المصحَف ، وإن كان حكمها باقياً ، لأنه أثقل الأحكام وأشدُّها ، وأغلظ الحدود ، وفيه الإشارة إلى ندب الستر .

وأخرج النسائيّ : أنّ مروان بن الحكم ، قال لزيد بن ثابت : ألا تكتبها

---

(١) الينبوع في التفسير لأبي عبدالله بن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٨ ، ومنه أجزاء متفرقة في دار الكتب المصرية برقم ٣١٠ تفسير

(٢) البرهان ٢ : ٣٦

فى المصحف ؟ قال : ألا ترى أنّ الشابين الثيّبين يُرجمان ! ولقد ذكرنا ذلك ، فقال عمر : أنا أكفيكم ، فقال : يارسولَ الله ، أكتِبْنِي آية الرجم ، قال : لاأستطيع .

قوله : « أكتبنى » أى ائذن لى فى كتابتها ، أو مكّنىّ من ذلك .

وأخرج ابن الضّريس فى فضائل القرآن ، عن يعلى بن حكيم ، عن زيد بن أسلم : أنّ عمر خطب الناس ، فقال : لا تشكُّوا فى الرَّجْم ، فإنه حقّ ، ولقد هممت أن أكتبه فى المصحف ، فسألت أبىّ بن كعب ، فقال: أليس أتيتَنى وأنا أستقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفعتَ فى صدرى وقلت: تستقرئه آية الرجم ، وهم يتسافدون تسافد الحمرُ !

قال ابن حجر : وفيه إشارة إلى بيان السّبب فى رفع تلاوتها وهو الاختلاف .

* * *

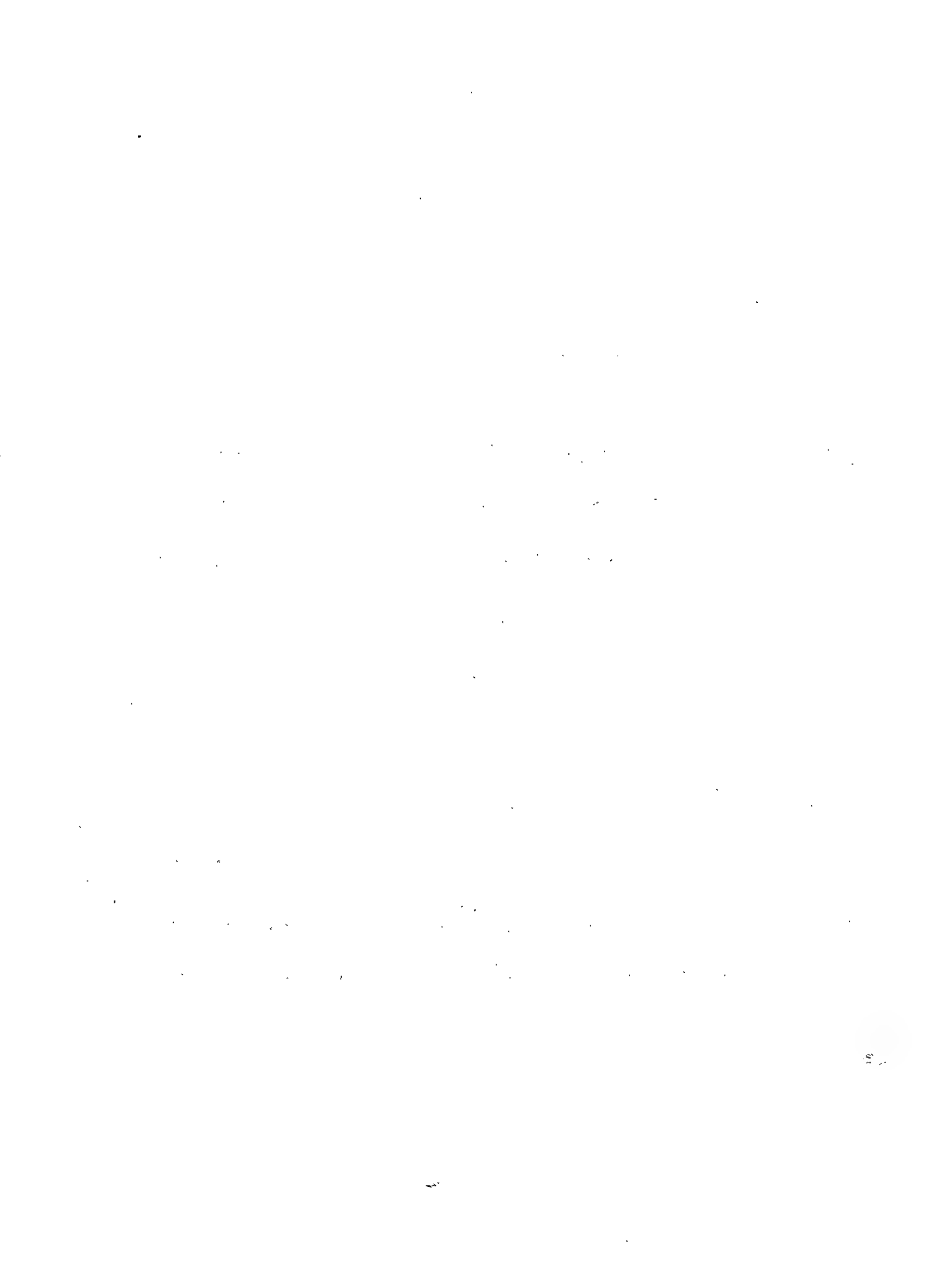
تنبيـــه

قال ابن الحصّار فى هذا النوع : إن قيل كيف يقع النسخ إلى غير بدل ، وقد قال تعالى : ﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾[1] ؛ وهذا إخبار لايدخله خلف ؟

فالجواب أن نقول : كلّ ماثبت الآن فى القرآن ولم يُنْسَخ فهو بدلٌ ممّا قد نسخت تلاوته ، وكلّ ما نسخه الله من القرآن مما لانعلمه الآن ، فقد أبدله بما علمناه ، وتواتر إلينا لفظهُ ومعناه .

---

(١) البقرة ١٠٦



النوع الثامن والأربعون

في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض

أفرده بالتصنيف قطرب والمراد به مايوهم التعارض بين الآيات ، وكلامه تعالى منزّه عن ذلك كما قال : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [1] ، ولكن قد يقع للمبتدئ مايوهم اختلافاً وليس به في الحقيقة ؛ فاحتيج لإزالته ، كما صُنِّفَ في مختلف الحديث وبيان الجمع بين الأحاديث المتعارضة، وقد تكلم في ذلك ابن عباس ، وحكى عنه التوقّف في بعضها .

قال عبد الرزّاق في تفسيره : أنبأنا مَعْمَر ، عن رجل ، عن المِنْهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبير ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، فقال : رأيت أشياء تختلف عليّ من القرآن ، فقال ابن عباس : ماهو؟ أشكّ! قال : ليس بشكّ ، ولكنه اختلاف، قال : هات مااختلف عليك من ذلك ، قال: أسمع الله يقول : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [2]، وقال : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [3] فقد كتموا ، وأسمعه يقول : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [4] ثم قال : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [5] :وقال : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ [6] حتى بلغ ﴿طائعين﴾ [6]، ثم قال في الآية الأخرى : ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [7] ثم قال : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [8]. وأسمعه يقول: ﴿كان الله﴾ ماشأنه يقول ﴿وكان الله﴾ !

فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلا أن قالوا والله ربِّنَا ما

---

(١) النساء ٨٢ — (٢) الأنعام ٢٣ — (٣) النساء ٤٢

(٤) المؤمنون ١٠١ — (٥) الطور ٢٥ — (٦) فصلت ٩ ـ ١١

(٧) النازعات ٢٧ — (٨) النازعات ٣٠

كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم لمّا رأوا يوم القيامة ، وأن الله يغفر الذنوب ولا يغفر شِركاً، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم فقالوا : واللهُ رَبِّنَا مَا كُنَا مُشْرِكِين فَختم الله عَلَى أفواهِهِمْ ، فتكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فعند ذلك يَوَدّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لو تسوَّى بهمْ الأَرْضِ وَلَا يَكْتُمُونَ الله حديثاً » .

وأما قوله : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ، فإنه إذَا نُفِخ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ الله فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيه أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُون ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

وأما قوله : ﴿ خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَينِ ﴾ ، فإن الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دخاناً فسواهنّ سبع سموات فى يومين بعد خلق الأرض .

وأما قوله : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، يقول : جعل فيها جبلاً ، وجعل فيها نهراً ، وجعل فيها شجراً ، وجعل فيها بحوراً .

وأما قوله : ﴿ كان الله ﴾ ، فإن الله كان ولم يَزَلْ كذلك ، وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير ، لم يَزَلْ كذلك .

فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك ، وإن الله لم ينزل شيئاً إلاّ وقد أصاب الذى أراد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

أخرجه بطوله الحاكم فى المستدرك وصححه ، وأصله فى الصحيح. قال ابن حجر فى شرحه : حاصل ما فيه السؤال عن أربعة مواضع :

الأول : نفى المسألة يوم القيامة وإثباتها .

الثانى : كتمان المشركين حالهم وإفشاؤه .

الثالث : خَلق الارض أو السماء ؛ أيهما تقدّم .

الرابع : الإتيان بحرف « كان » ، الدّالة على المضىّ مع أن الصفة لازمة .

وحاصل جواب ابن عباس عن الأول ، أنّ نفى المساءلة فيما قبل النفخة الثانية ، وإثباتها فيما بعد ذلك .

وعن الثانى ، أنهم يكتمون بألسنتهم ، فتنطق أيديهم وجوارحهم .

وعن الثالث ، أنه بدأ خلق الأرض فى يومين غير مدحُوّة ، ثم خلق السموات فسوّاهنّ فى يومين ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ؛ وجعل فيها الرّواسىَ وغيرها فى يومين ؛ فتلك أربعة أيام للأرض .

وعن الرابع ، بأنّ « كان » ، وإن كانت للماضى ، لكنها لا تستلزم الانقطاع ، بل المراد أنه لم يزَل كذلك .

فأما الأول فقد جاء فيه تفسير آخر ، أن نفى المساءلة عند تشاغلهم بالصّعق والمحاسبة والجواز على الصراط ، وإثباتها فيما عدا ذلك ؛ وهذا منقول عن السُّدّى ؛ أخرجه ابن جرير من طريق علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس أنّ نفى المساءلة عند النفخة الأولى وإثباتها بعد النفخة الثانية .

وقد تأوّل ابنُ مسعود نفىَ المساءلة على معنى آخر ، وهو طلب بعضهم من بعض العفو ، فأخرج ابن جرير من طريق زاذان ، قال : أتيت ابنَ مسعود ، فقال : يُؤخذ بيد العبد يوم القيامة ، فينادَى : ألا إن هذا فلان ، فمن كان له حقّ قِبَله فليأت ، قال : فتودُّ المرأة يومئذ أن يثبت لها حقٌّ على أبيها أو ابنها أو أخيها أو زوجها ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون .

ومن طريق أخرى قال : لا يُسأل أحد يومئذ بنسب شيئاً ولا يتساءلون به ولا يمتّ برحِم .

وأما الثانى ، فقد ورد بأبسط منه فيما أخرجه ابن جرير ، عن الضحّاك بن مزاحم ،

نافع بن الأزرق:أتى ابنَ عباس فقال:قول الله : ﴿ ولَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾،وقوله: ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ! فقال : إنى أحسبك قمتَ من عند أصحابك ، فقلتَ لهم : آتى ابن عباس ، أُلقِي عليه متشابهَ القرآن ؛ فأخبرْهم أن الله إذا جمع الناس يوم القيامة ، قال المشركون : إن الله لايقبل إلا ممّن وحّده ، فيسألهم فيقولون : ﴿ والله رّبنا ما كنا مشركين ﴾ ، قال : فيختم على أفواههم، وتُستَنْطق جوارحُهم .

ويؤيّده ما أخرجه مسلم،من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث،وفيه : « ثم يلقَى الثالث فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك وبرسولك ، ويُثنِي ما استطاع، فيقول : الآن نبعث شاهداً عليكَ ، فيذكر فى نفسه : مَن الذى يشهد علىّ ! فيختم على فيه ، وتنطِق جوارحه » .

أما الثالث ؛ ففيه أجوبه أخرى ، منها أن ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنى الواو ، فلا إيراد .

وقيل: المراد ترتيب الخبر لا المُخبَرِ بهِ ، كقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1]

وقيل : على بابها وهى لتعارف ما بين الخلقين ، لا للتراخِي فى الزمان .

وقيل : « خلق » بمعنى « قدّر » .

وأما الرابع وجواب ابن عباس عنه ،فيحتمل كلامُه أنه أراد أنه سمّى نفسه «غفوراً رحيما » وهذه التسمية مضتْ ، لأن التعلّق انقضى . وأما الصفتان فلا تزالان كذلك لاينقطعان ؛ لأنه تعالى إذا أراد المغفرة أو الرّحمة فى الحال أو الاستقبال ،وقع مرادُه . قاله الشمس الكرْمانىّ[2] .

قال : ويحتمل أن يكون ابنُ عباس أجاب بجوابين ، أحدهما أن التّسميةَ هى التى كانت وانتهت ، والصفة لانهاية لها ، والآخر أنّ معنى «كان» الدوام ؛ فإنه لايزال كذلك.

ويحتمل أن يُحمل السؤال على مَسْلكَيْن . والجواب على دفعها ، كأن يقال : هذا اللفظ مشعِر بأنه فى الزمان الماضى كان غفوراً رحيما ، مع أنه لم يكن هناك

(١) البلد ١٧

(٢) هو محمد بن يوسف بن على بن سعيد ، شمس الدين الكرمانى ، أحد علماء الحديث ، وشارح البخارى ، وصاحب كتاب ضمائر القرآن. توفى سنة ٧٨٦ .الدرر الكامنة ٤ : ٣١٠

مَنْ يُغفَر له أو يُرحَم ، وبأنه ليس فى الحال كذلك لما يشعر به لفظ « كان ».

والجواب عن الأول بأن كان فى الماضى تسمّى به . وعن الثانى : بأنّ « كان » تُعطى معنى الدوام ، وقد قال النحاة : كان لثبوت خبرها ماضياً دائماً أو منقطعاً .

وقد أخرج ابن أبى حاتم من وجهٍ آخر عن ابن عباس ، أن يهوديًا قال له : إنكم تزعمون أنّ الله كان عزيزاً حكيماً ، فكيف هو اليوم ؟ فقال : إنه كان فى نفسه عزيزاً حكيما .

* * *

موضع آخر ، توقّف فيه ابن عباس . قال أبوعُبيدة : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن ابن أبى مُلَيْكة ، قال : سأل رجلٌ ابنَ عباس عن ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلفَ سَنَةٍ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٢) ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه ؛ الله أعلم بهما .

وأخرجه ابنُ أبى حاتم من هذا الوجه ، وزاد : «ما أدرى ماهما ، وأكره أن أقول فيهما مالا أعلم » قال ابن أبى مُليكة : فضربُ الدهرُ حتى دخلت على سعيد بن المسيّب ، فسئل عن ذلك ؛ فلم يدرِ مايقول ؛ فقلت له : ألا أخبرُك بما حضرت من ابن عباس ! فأخبرته ، فقال ابن المسيّب للسائل: هذا ابنُ عباس قد اتقى أن يقول فيهما ، وهوأعلم منّى!

ورُوى عن ابن عباس أيضا أن يوم الألف هومقدار سير الأمر وعروجُه إليه ، ويومُ الألف فى سورة الحجّ هو أحد الأيام الستة ؛ التى خلق الله فيها السموات ، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة .

فأخرج ابنُ أبى حاتم من طريق سِماك ، عن عِكرمة ، عن ابن عباس ، أنّ رجلا قال له : حدِّثنى : ماهؤلاء الآيات : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ ﴾ و ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يعرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلفَ سَنَة ﴾ (١) . ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلفِ سَنَةٍ ﴾ (٣) ، فقال : يوم القيامة

---

(١) السجدة ٥ (٢) المعارج ٤ (٣) الحج ٤٧

حساب خمسين ألف سنة ، والسموات فى ستة أيام كلّ يوم يكون ألف سنة ، و﴿ يدبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ، قال : ذلك مقدار المسير .

وذهب بعضهم إلى أن المراد بهما يوم القيامة ، وأنه باعتبار حالِ المؤمن والكافر ، بدليل قوله : ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[1] .

* * *

فصــــل

قال الزركشيّ فى البرهان : للاختلاف أسباب :

أحدها : وقوع المخبَر به على أنواع مختلفة وتطويرات شتَّى ، كقوله فى خلق آدم : ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾[2] ، ومرة : ﴿ من حمإٍ مَسْنُونٍ ﴾[3] ، ومرة : ﴿ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ ﴾[4] ، ومرّة : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾[5] ، فهذه ألفاظ مختلفة ومعانيها فى أحوال مختلفة ، لأن الصلصال غير الحمإ ، والحمأ غير التراب ، إلاّ أنّ مرجعها كلها إلى جوهر ، وهو التراب ، ومن التّراب تدَرّجت[6] هذه الأحوال .

وكقوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾[7] ، وفى موضع : ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾[8] ، والجانُّ الصغير من الحيّات ، والثعبان الكبير منها ، وذلك لأنّ خلقها خلق الثعبان العظيم ، واهتزازها وحركتها وخِفّتها كاهتزاز الجانّ وخفّته .

* * *

الثانى : لاختلاف الموضوع[9] ، كقوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾[10] ، وقوله :

---

(١) المدثر ٩ ، ١٠
(٢) آل عمران ٥٩
(٣) الحجر ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣
(٤) الصافات ١١
(٥) الرحمن ١٤
(٦) ط : « درجت » .
(٧) الشعراء ٣٢
(٨) القصص ٣١
(٩) ط : « الموضع » والوجه ما أثبته من الأصل والبرهان
(١٠) الصافات ٢٤

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرْسَلِينَ ﴾[1] ، مع قوله : ﴿ فَيوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾[2] ، قال الحليمى :[3] فتحمل الآية الأولى على السّؤال عن التوحيد وتصديق الرّسل ، والثانية على ما يستلزمه الإقرار بالنبوّات من شرائع الدين وفروعه .

وحمله غيره على اختلاف الأماكن ، لأن فى القيامة مواقف كثيرة ، ففى موضع يُسألون ، وفى آخر لا يُسألون . وقيل : إن السؤال المثبت سؤال تبكيت وتوبيخ ، والمنفىّ سؤال المعذرة وبيان الحجة .

وكقوله : ﴿ اتقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[4] ، مع قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا استَطَعْتُمْ ﴾[5] ، حمل الشيخ أبو الحسن الشاذلىّ الآية الأولى على التوحيد بدليل قوله بعدها : ﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[5] ، والثانية على الأعمال . وقيل : بل الثانية ناسخة للأولى . وكقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾[6] ، مع قوله : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[7] ، فالأولى تفهم إمكان العدل ، والثانية تنفيه .

والجواب : أن الأولى فى توفية الحقوق ، والثانية فى الميل القلبىّ وليس فى قدرة الإنسان .

وكقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾[8] ، مع قوله : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾[9] ، فالأولى فى الأمر الشرعىّ ، والثانية فى الأمر الكونىّ بمعنى القضاء والتقدير .

* * *

الثالث : لاختلافهما فى جهتَى الفعل ، كقوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ

---

(١) الأعراف ٦ (٢) الرحمن ٣٩ (٣) الحليمى بفتح الحاء ، هو عبد الله حسن بن الحسن الحليمى الشافعى ، صاحب المنهاج على شعب الإيمان . المتوفى سنة ٤٠٣ . وانظر كشف الظنون
(٤) آل عمران ١٠٢ (٥) التغابن ١٦
(٦) النساء ٣ (٧) النساء ١٣٩ (٨) الأعراف ٢٨
(٩) الإسراء ١٦

قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ (١) ، أضيف القتل إليهم والرمى إليه صلى الله عليه وسلم على جهة الكسب والمباشرة ، ونفاه عنهم وعنه باعتبار التأثير .

* * *

الرابع : لاختلافهما فى الحقيقة والمجاز ، كقوله : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ (٢) ، أى سكارى من الأهوال مجازاً ، لا من الشراب حقيقة .

* * *

الخامس: بوجهين واعتبارين ، كقوله: ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (٣) ، مع قوله: ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ . (٤) قال قطرب : فبصرُك ، أى علمك ومعرفتك بها قوية ، من قولهم: بُصر بكذا أى علم ، وليس المراد رؤية العين . قال الفارسىّ: ويدلّ على ذلك قوله: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ .

وكقوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٥) مع قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٦) ، فقد يُظَنّ أن الوجل خلاف الطمأنينة. وجوابه : أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى ، فتوجّه القلوب لذلك ، وقد جمع بينهما فى قوله: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٧).

ومما استشكلوه قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ (٨) ، فإنه يدلّ على حصر المانع من الإيمان فى أحد هذين الشيئين .

وقال فى آية أخرى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا

---

(١) الأنفال ١٧ (٢) الحج ٢ (٣) ق ٢٢
(٤) الشورى ٤٥ (٥) الرعد ٢٨ (٦) الأنفال ٢
(٧) الزمر ٢٣ وانظر البرهان ٢ : ٥٤ — ٦٢ (٨) الكهف ٥٥

أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولا ﴾[1] ؛ فهذا حَصر آخر فى غيرها .

وأجاب ابن عبد السلام : بأن معنى الآية الأولى : « وما منع النَّاسَ ان يؤمنوا إلاّ إرادة أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ من الخسف غيره ، أَو يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ قبلًا فى الآخرة » ، فأخبر أنه أراد أن يصيبهم أحد الأمرين ، ولا شكّ أنّ إرادة الله مانعةٌ من وقوع ما ينافى المراد. فهذا حصر فى السبب الحقيقىّ لأن الله هو المانع فى الحقيقة .

ومعنى الآية الثانية : « وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إلاّ استغرابُ بعثه بشراً رسولاً »،لأن قولهم ليس مانعاً من الإيمان ؛ لأنه لايصلح لذلك ؛ وهو يدلّ على الاستغراب بالالتزام ؛ وهو المناسب للمانعيّة واستغرابهم ليس مانعاً حقيقيًّا ، بل عاديًّا لجواز وجود الإيمان معه ، بخلاف إرادة الله تعالى ؛ فهذا حصرفى المانع العادىّ ، والأول حصر فى المانع الحقيقىّ ، فلاتنافىَ أيضاً .

وممّا استشكل أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾[2] ، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾[3] ، مع قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾[4] ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾[5] ، إلى غير ذلك من الآيات . ووجهه أن المراد بالاستفهام هنا النفى ، والمعنى : « لا أحدَ أظلم » ، فيكون خبراً ، وإذا كان خبراً وأُخذت الآيات على ظواهرها أدّى إلى التناقض . وأجيب بأوجه :

منها تخصيص كلّ موضع بمعنى صلته ، أى لا أحدَ من المعاندين أظلمُ ممّن منع مساجد الله ، ولا أحد من المفترين أظلم ممّن افترى على الله كذباً ، وإذا تخصّص بالصِّلات زال التناقض .

ومنها، أن التخصيص بالنسبة إلى السَّبْق، لمّا لم يسبق أحد إلى مثله ، حكم عليهم بأنهم

---

(١) الإسراء ٩٤ — (٢) الأنعام ٢١ — (٣) الزمر ٣٢

(٤) الكهف ٥٧ — (٥) البقرة ١١٤

أظلم ممّن جاء بعدهم سالكاً طريقهم ؛ وهذا يئول معناه إلى ماقبله ؛ لأن المراد السبق إلى المانعيّة والافترائية .

ومنها — وادّعى أبو حيان أنه الصواب — أن نفي الأظلميّة لايستدعي نفي الظالمية ؛ لأن نفي المقيّد لايدلّ على نفي المطلق ، وإذا لم يدلّ على نفي الظالمية لم يلزم التناقض ؛ لأن فيها إثبات التسوية في الأظلميّة، وإذا ثبتت التسوية فيها لم يكن أحد ممّن وُصف بذلك يزيد على الآخر ، لأنهم يتساوون في الأظلميّة ، وصار المعنى :لا أحد أظلم ممّن افترى وممّن منع ونحوها، ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية ، ولا يدلّ على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر ، كما إذا قلت : لا أحد أفقه منهم . انتهى .

وحاصل الجواب أنّ نفي التفضيل لايلزم منه نفي المساواة .

وقال بعض المتأخّرين : هذا استفهام مقصود به التهويل والتفظيع من غير قصد إثبات الأظلمية للمذكور حقيقة ، ولا نفيها عن غيره .

وقال الخطّابيّ (١) : سمعت ابن أبي هريرة يحكي عن أبي العباس بن سريج ، قال : سأل رجل بعض العلماء عن قوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ (٢) فأخبر أنه لايقسم به . ثم أقسم به في قوله: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (٣) فقال :أيّما أحبّ إليك ؟أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك ؟ فقال : أقطعني ثم أجبني ، فقال له : اعلم أن هذا القرآن نزلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة رجال ، وبين ظهرانيْ قوم كانوا أحرصَ الخلق على أن يجدُوا فيه مغمزاً وعليه مطعناً ، فلو كان هذا عندهم مناقضةً لتعلّقوا به ، وأسرعوا بالردّ عليه ؛ ولكنّ القوم علموا وجهلتَ ، ولم ينكروا منه ماأنكرتَ . ثم قال له : إن العرب قدتدخل «لا» في أثناء كلامها وتلغي معناها ، وأنشد فيه أبياتاً .

---

(١) هو حمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان ، شارح سنن أبي داود ، ومؤلف كتاب بيان إعجاز القرآن وغيره توفي سنة ٣٨٨ . ابن خلكان ١ : ١٦٦

(٢) البلد ١

(٣) التين ١

تنبيـــه

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراينى[1] : إذا تعارضت الآى وتعذر فيها الترتيب والجمع ، طُلب التاريخ وترك المتقدم بالمتأخر ، ويكون ذلك نسخاً ، وإن لم يعلم ، وكان الإجماع على العمل بإحدى الآيتين علم بإجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا على العمل بها . قال: ولا يوجَد فى القرآن آيتان متعارضتان تخلوان عنْ هذين الوضعين .

قال غيره: وتعارض القراءتين بمنزلة تعارض الآيتين نحو : ﴿ وأرجُلَكُمْ ﴾[2] بالنصب والجرّ، ولهذا جمع بينهما بحمل النَّصْب على الغُسْل والجرّ على مسح الخفّ .

وقال الصيرفىّ :جماع الاختلاف والتناقض أنّ كلّ كلام صحّ أن يضاف بعض ما وقع الاسم عليه إلى وجه من الوجوه ، فليس فيه تناقض، وإنما التناقض فى اللفظ ما ضادّه من كلّ جهة ، ولا يوجد فى الكتاب والسنة شىء من ذلك أبداً ؛ وإنما يوجد فيه النسخ فى وقتين.

وقال القاضى أبو بكر : لا يجوز تعارض آى القرآن والآثار وما يوجبه العقل ، فلذلك لم يجعل قوله : ﴿ اللهُ خَالِقُ كل شىء ﴾[3] معارضا لقوله: ﴿ وتَخْلقُونَ إفْكاً ﴾[4] ، ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّين ﴾[5] لقيام الدليل العقلى، أنّه لا خالق غير الله ، فتعيّن تأويل ما عارضه ، فيؤوّل « وتخلقون » على « تكذبون » وتخلق على « تصور » .

فائـــدة

قال الكرمانىّ عند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[6] :الاختلاف على وجهين: اختلاف تناقض، وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر ، وهذا هو الممتنع على القرآن ، واختلاف تلازم وهو ما يوافق الجانبين ، كاختلاف مقادير السور والآيات ، واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهى والوعد والوعيد .

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفرايينى المعروف بالأستاذ ، صاحب كتاب جامع الحلى فى أصول الدين والرد على الملحدين . توفى سنة ٤١٨ . ابن خلكان ١ : ٤

(٢) المائدة ٦ — (٣) الزمر ٦٢ — (٤) العنكبوت ٤٧

(٥) المائدة ١١٠ — (٦) النساء ٨٢



النوع التاسع والأربعون

في مطلقه ومقيده

المطلق الدالّ على الماهية بلا قيد، وهو مع المقيد كالعامّ مع الخاصّ، قال العلماء: متى وُجِد دليل على تقييد المطلق صِير إليه، وإلاّ فلا؛ بل يبقى المطلق على إطلاقه، والمقيد على تقييده، لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب.

والضابط أنّ الله إذا حكم في شيء بصفة أو شرط، ثم ورد حكمٌ آخر مطلقا نُظِر، فإن لم يكن له أصل يُرَدّ إليه إلاّ ذلك الحكم المقيّد وجب تقييده به، وإن كان له أصل غيره لم يكن ردّه إلى أحدهما بأولَى من الآخر. فالأوّل مثل اشتراط العدالة في الشهود على الرّجعة والفراق والوصية في قوله: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنكُمْ ﴾[1]، وقوله: ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ ﴾[2]، وقد أطلق الشهادة في البيوع وغيرها في قوله: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾[3]، ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾[4].

والعدالة شرط في الجميع.

ومثل تقييده ميراث الزوجين، بقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾[5]، وإطلاقُه الميراث فيما أطلق فيه.

وكذلك ما أطلق من المواريث كلّها بعد الوصية والدَّين.

وكذلك ما اشترط في كفارة القتل من الرّقبة المؤمنة، وإطلاقها في كفّارة الظِّهار واليمين، والمطلق كالمقيّد في وصف الرقبة.

---

(١) الطلاق ٢ (٢) المائدة ١٠٦ (٣) البقرة ٢٨٢

(٤) النساء ٦ (٥) النساء ١١

وكذلك تقييد الأيدى بقوله : ﴿ إلى الْمَرَافِقِ ﴾ [(١)] ، فى الوضوء ، وإطلاقه فى التيمّم .

وتقييد إحباط العمل بالرِّدة بالموت على الكفر فى قوله : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ... ﴾ [(٢)] ، الآية ، وأطلق فى قوله: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [(٣)] .

وتقييد تحريم الدم بالمسفوح فى الأنعام ، وأطلق فيما عداها .

فمذهب الشافعىّ حمْل المطلق على المقيّد فى الجميع .

ومن العلماء من لايحمله ، ويجوّز إعتاق الكافرة فى كفارة الظهار واليمين ، ويكتفى فى التيمّم بالمسح إلى الكوعين ويقول: إن الردّة تحبط العمل بمجرّدها .

والثانى مثل تقييد الصوم بالتتابع فى كفارة القتل والظهار ، وتقييده بالتفريق فى صوم التمتع . وأطلق كفارة اليمين وقضاء رمضان ، فيبقى على إطلاقه من جوازه مفرّقاً ومتتابعاً لايمكن حمله عليهما ، لتنافى القيدين[(٤)] ، ولا على أحدهما لعدم المرجّح .

تنبيهــــات

الأول : إذا قلنا بحمل المطلق على المقيّد ، فهل هو من وضع اللغة أو بالقياس ؟ مذهبان :

وجه الأول أنّ العرب من مذهبها استحباب الإطلاق اكتفاء بالمقيد ، وطلباً للإيجاز والاختصار .

الثانى : ماتقدّم محلّه ، إذا كان الحكمان بمعنى واحد ، وإنما اختلفا فى الإطلاق

---

(١) المائدة ٦ (٢) البقرة ٢١٧ (٣) المائدة ٥

(٤) بعدها فى ط : « وهما فى التفريق والتتابع » .

والتقييد ، فأما إذا حكم فى شئ بأمور ، ثم فى أُخر ببعضها ، وسكت فيه عن بعضها ، فلا يقتضى الإلحاق ، كالأمر بغسل الأعضاء الأربعة فى الوضوء ، وذكر فى التيمم عضوين ، فلا يقال بالحمل ، ومسح الرأس والرجلين بالتراب فيه أيضاً ، وكذلك ذكَر العِتْق والصوم والإطعام فى كفّارة الظهار ، واقتصر فى كفارة القتل على الأولين ، ولم يذكر الإطعام ، فلا يقال بالحمْل وإبدال الصيام بالطعام .



النوع الخمسون

فى منطوقه ومفهومه

المنطوق مادلّ عليه اللفظ فى محل النّطق ، فإن أفاد معنى لايحتمل غيره فالنصّ ، نحو : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[1] ، وقد نُقِل عن قوم من المتكلمين أنهم قالوا بندور النصّ جدا فى الكتاب والسنة . وقد بالغ إمام الحرمين[2] وغيره فى الردّ عليهم ، قال : لأن الغَرض من النصّ الاستقلال بإفادة المعنى على قطع ، مع انحسام جهات التأويل والاحتمال ؛ وهذا وإن عزّ حصوله بوضع الصيغ ردًّا إلى اللغة ، فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية ! انتهى.

أو مع احتمال غيره احتمالا مرجوحاً ، فالظاهر نحو : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ ﴾[3] ، فإن الباغِيَ يُطلق على الجاهل وعلى الظالم ، وهو فيه أظهر وأغلب ، ونحو : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾[4] ، فإنه يقال للانقطاع طهر ، وللوضوء والغسل ، وهو فى الثانى أظهر .

فإن حُمِل على المرجوح لدليلٍ فهو تأويل ، ويسمَّى المرجوح المحمول عليه مؤوّلا ، كقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾[5] ؛ فإنه يستحيل حمل المعيّة على القرب بالذّات ، فتعيّن صرفه عن ذلك ، وحمله على القدرة والعلم أو على الحفظ والرعاية .

وكقوله : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾[6] ، فإنه يستحيل حمله على الظاهر ، لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة ، فيُحمل على الخضوع وحسن الُخلق .

وقد يكون مشتركا بين حقيقتين ، أو حقيقة ومجاز ، ويصحّ حمله عليهما جميعاً ، سواء.

---

(١) البقرة ١٩٦ (٢) هو أبو المعالى عبد الملك بن أبى عبد الله بن يوسف الجوينى ، شيخ الغزالى ، وأعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى . توفى سنة ٤٧٨ . ابن خلكان ١ : ٢٨٧

(٣) البقرة ١٧٣ (٤) البقرة ٢٢٢ (٥) الحديد ٤

(٦) الإسراء ٢٤

قلنا بجواز استعمال اللفظ فى معنييه أولا ؛ ووجهه على هذا أن يكون اللفظ قد خوطب به مرّتين ، مرّةً أريد هذا ، ومرة أريد هذا .

ومن أمثلته: ﴿ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ ﴾[١] ، فإنه يحتمل لا يضارِرُ الكاتبُ والشهيدُ صاحب الحقّ بجَوْرٍ فى الكتابة والشهادة و« لا يُضارَر » بالفتح ، أى لا يضرهما صاحب الحق بإلزامهما مالا يلزمهما ، وإجبارهما على الكتابة والشهادة .

ثم إن توقفت صحة دلالة اللفظ على إضمارٍ سُمِّيتْ دلالة اقتضاء ، نحو : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[٢] ، أى أهلها ، وإن لم تتوقّف ودلّ اللفظ على مالم يُقصد به سميت دلالة إشارة كدلالة قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾[٣] على صحة صوم من أصبح جُنباً ، إذ إباحة الجماع إلى طلوع الفجر تستلزم كونه جُنباً فى جزء من النهار . وقد حُكِى هذا الاستنباط عن محمد بن كعب القُرظىّ .

* * *

فصل

والمفهوم مادلّ عليه اللفظ ، لا فى محل النطق ، وهو قسمان: مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة.

فالأول : ما يوافق حكمه المنطوق ، فإن كان أولى سُمِّىَ فحوى الخطاب كدلالة : ﴿ فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾[٤] على تحريم الضرب لأنه أشدّ ، وإن كان مساوياً سُمِّى لحن الخطاب ، أى معناه ، كدلالة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً ﴾[٥] ، على تحريم الإحراق لأنه مساوٍ للأكل فى الإتلاف . واختلف : هل دلالة ذلك قياسية أو لفظية مجازية أو حقيقية ؟ على أقوال بيناها فى كتبنا الأصولية .

والثانى : مايخالف حكمه المنطوق ، وهو أنواع :

مفهوم صفة ، نعتا كان أوحالا أوظرفاً أوعدداً ، نحو : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ

---

(١) البقرة ٢٨٢ (٢) يوسف ٨٢ (٣) البقرة ١٨٧
(٤) الإسراء ٢٣ (٥) النساء ١٠

فَتَبَيَّنُوا ﴾ (١) ، مفهومه أنّ غير الفاسق لايجب التّبيّن فى خبره ؛ فيجب قبول خبر الواحد العدل .

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ (٢). ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ (٣)، أى فلا يصح الإحرام به فى غيرها. ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (٤)، أى فالذّكر عند غيره ليس محصِّلا للمطلوب ، ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (٥) أى لا أقلّ ولا أكثر .

وشرطٍ ، نحو ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ (٦) أى فغير أولات الحمل لايجب الإنفاق عليهنّ .

وغايةٍ ، نحو ، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ (٧) أى فإذاً تحل للأوّل بشرطِه .

وحَصرٍ نحو ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ (٨) ، ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ﴾ (٩) ، أى فغيرُه ليس بإله، ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ (١٠) أى فغيره ليس بولىّ. ﴿لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١١)، أى لا إلى غيره ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (١٢)، أى لا غيرك .

واختلف فى الاحتجاج بهذه المفاهيم على أقوال كثيرة ، والأصحّ فى الجملة أنها كلّها حُجّه بشروط :

منها ألاّ يكون المذكور ، ومن ثمّ لم يعتبر الأكثرون مفهوم قوله: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ (١٣) ؛ فإن الغالب كون الربائب فى حجور الأزواج فلا مفهومَ له، لأنه إنّما خُصّ بالذكر لغلبة حضوره فى الذهن .

وألاّ يكون موافقاً للواقع ، ومن ثمّ لا مفهوم لقوله : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ

---

(١) الحجرات ٦ — (٢) البقرة ١٨٧ — (٣) البقرة ١٩٧
(٤) البقرة ١٦٨ — (٥) النور ٤ — (٦) الطلاق ٦
(٧) البقرة ٢٣٠ — (٨) الصافات ٥ — (٩) طه ٩٨
(١٠) الشورى ٩ — (١١) آل عمران ١٥٨ — (١٢) الفاتحة ٤
(١٣) النساء ٢٣

الله إلاهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَه بِهِ ﴾ (١)، وقوله: ﴿ لاَ يَتَّخِذِ المؤْمِنُونَ الـكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَلَا تُـكْرِهُوا فَتَيَاتِـكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ (٣).

والاطلاع على ذلك من فوائد معرفة أسباب النزول .

* * *

فائـــدة

قال بعضهم : الألفاظ إمّا أن تَدُلّ بمنطوقها أو بفحواها ، أو باقتضائها وضرورتها ، أو بمعقولها المستَنبَط منها . حكاه ابن الحصّار . وقال : هذا كلام حسن .

قلت : فالأول دلالة المنطوق ، والثانى دلالة المفهوم ، والثالث دلالة الاقتضاء ، والرابع دلالة الإشارة .

---

(١) المؤمنون ١١٧ (٢) آل عمران ٢٨ (٣) النور ٣٣

النوع الحادي والخمسون
في وجوه مخاطباته

قال ابن الجوزي في كتابه « النفيس » : الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهاً .

وقال غيره : على أكثر من ثلاثين وجهاً :

أحدها : خطاب العام ، والمراد به العموم ، كقوله : ﴿ اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ ﴾[1] :

والثاني : خطاب الخاصّ والمراد به الخصوص ، كقوله : ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[2] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾[3]

الثالث : خطاب العامّ والمراد به الخصوص ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾[4] ، لم يدخل فيه الأطفال والمجانين .

الرابع : خطاب الخاصّ ، والمراد العموم ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾[5] ، افتتح الخطاب بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمراد سائر من يملك الطلاق ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. ﴾[6] الآية ، قال أبو بكر الصيرفي[7] : كان ابتداء الخطاب له ، فلما قال في الموهوبة : ﴿ خالصةً لَكَ ﴾[6] ، عُلِم أن ما قبلها له ولغيره .

الخامس : خطاب الجنس ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ .

السادس : خطاب النوع ، نحو : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

السابع : خطاب العين ، نحو ﴿ وقلنا يا آدمُ اسْكُنْ ﴾[8] ، ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ ﴾[9] ، ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ﴾[10] ، ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾[11] ، ﴿ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾[12] .

ولم يقع في القرآن الخطاب بـ « يا محمد » ، بل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ تعظيماً

---

(1) الروم 54 — (2) آل عمران 106 — (3) المائدة ، 68

(4) الحج 1 — (5) الطلاق 1 — (6) الأحزاب 50

(7) هو أبو بكر محمد بن عبد الله الفقيه الشافعي المعروف بالصيرفي ، بغدادي له تصانيف في أصول الفقه . توفي سنة 330 ابن خلكان 1 : 458

(8) البقرة 35 — (9) هود 48 — (10) الصافات 105

(11) النمل 10 — (12) آل عمران 55

له ، وتشريفاً وتخصيصاً بذلك عمّا سواه ، وتعليما للمؤمنين ألاّ ينادوه باسمه .

الثامن : خطاب المدح ، نحو ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ﴾ (١) ، ولهذا وقع خطابا لأهل المدينة ، ﴿ والذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ﴾ (٢) . أخرج ابن أبى حاتم عن خَيْثَمة : ما تقرءون فى القرآن ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ﴾ ، فإنه فى التوراة « يأيها المساكين » . وأخرج البيهقى وأبو عبيد وغيرهما عن ابن مسعود ، قال : سمعت الله يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ﴾ ، فأوْعِها سمعك ، فإنه خيرٌ يأمُرُ به ، أو شرّ ينهى عنه .

التاسع : خطاب الذّم ، نحو ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (٤) ، ولتضمّنه الإهانة لم يقع فى القرآن غير هذين الموضعين ، وأكثر الخطاب بـ ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) ، على المواجهة وفى جانب الكفار بلفظ الغيبة ، إعراضاً عنهم كقوله : ﴿ إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٥) ، ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٦) .

العاشر : خطاب الكرامة ، كقوله : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ، ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ ، قال بعضهم : ونجد الخطاب بالنّبى فى محل لا يليق به الرسول ، وكذا عكسه ، كقوله فى الأمر بالتشريع العام ، ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٧) ، وفى مقام الخاصّ ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ (٨) ، قال : وقد يعبّر بالنبى فى مقام التشريع العامّ ، لكن مع قرينة إرادة العموم ، كقوله : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ ﴾ (٩) ، ولم يقل : « طلقت » .

الحادى عشر : خطاب الإهانة ، نحو ﴿ فإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (١٠) ، ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ (١١) .

---

(١) النساء ١٢٦ (٢) الأنفال ٧٤ (٣) التحريم ٧
(٤) الكافرون ١ (٥) البقرة ٦ (٦) الأنفال ٣٨
(٧) المائدة ٦٧ (٨) التحريم ١ (٩) الطلاق ١
(١٠) الحجر ٣٤ (١١) المؤمنون ١٠٨

الثانى عشر : خطاب التهكّم ، نحو ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[1] .

الثالث عشر : خطاب الجمع بلفظ الواحد ، نحو ﴿ يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[2] .

الرابع عشر : خطاب الواحد بلفظ الجمع ، نحو ﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ .. ﴾[3] ، إلى قوله : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾[4] ، فهو خطاب له صلى الله عليه وسلم وحده ، إذ لا نبىّ معه ولا بعده .

وكذا قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا .. ﴾[5] ، الآية ، خطاب له صلى الله عليه وسلم وحده ، بدليل قوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ... ﴾[6] الآية ، وكذا قوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا ﴾[7] ، بدليل قوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا ﴾[7] ، وجعل منه بعضهم: ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾[8] ، أى ارجعنى . وقيل : «ربّ» خطاب له تعالى ، و« ارجعون » للملائكة .

وقال السّهيلىّ : هو قول مَنْ حضرته الشياطين وزبانية العذاب، فاختلط فلا يدرى ما يقول من الشَّطَط . وقد اعتاد أمراً يقوله فى الحياة من ردّ الأمر إلى المخلوقين .

الخامس عشر : خطاب الواحد بلفظ الاثنين ، نحو ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾[9] والخطاب لمالك خازن النار ، وقيل: لخزنة النار والزبانية ، فيكون من خطاب الجمع بلفظ الاثنين وقيل: للملكين الموكّلين فى قوله : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾[10] ، فيكون على الأصل ، وجعل المهدوىّ من هذا النوع ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾[11] . قال : الخطاب لموسى وحده ، لأنه الدّاعى . وقيل لهما ، لأنّ هارون أمّن على دعائه والمؤمّن أحد الداعيَيْن .

---

(١) الدخان ٤٩ — (٢) الانفطار ٦ — (٣) المؤمنون ٥١
(٤) المؤمنون ٥٤ — (٥) النحل ١٢٦ — (٦) النحل ١٢٧
(٧) هود ١٣ ، ١٤ — (٨) المؤمنون ٩٩ — (٩) ق ٢٤
(١٠) ق ٢١ — (١١) يونس ٨٩

السادس عشر : خطاب الاثنين بلفظ الواحد ، كقوله: ﴿ فَمَنْ رَبُّكُما يَامُوسَى ﴾(١)، أى : وياهرون ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه أفرده بالنداء لإدلاله عليه بالتربية .

والآخر : لأنه صاحب الرسالة والآيات ، وهارون تبع له ، ذكره ابن عطية . وذكر فى الكشاف آخر ، وهو أن هارون لما كان أفصح من موسى ، نكب .

ومثله ﴿ فَلَا يُخرِجَنَّكُمَا من الجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾(٢). قال ابن عطية : أفرده بالشقاء لأنه المخاطب أولا ، والمقصود فى الكلام ، وقيل : لأنه الله جعل الشقاء فى معيشة الدنيا فى جانب الرِّجال . وقيل : إغضاء عن ذكر المرأة كما قيل : من الكرم ستر الحرم .

السابع عشر : خطاب الاثنين لفظ الجمع ، كقوله ﴿ أَنْ تَبَوَّآ لِقَومِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بيُوتَكُمْ قِبْلَة ﴾(٣) .

التاسع عشر : خطاب الجمع بعد الواحد كقوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾(٤) قال ابن الأنبارىّ : جمع فى الفعل الثالث ليدلّ على أنّ الأمة داخلون مع النبى صلى الله عليه وسلم، ومثله ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾(٥).

العشرون : عكسه ، نحو ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾(٦) ، ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٧) .

الحادى والعشرون : خطاب الاثنين بعد الواحد ، نحو ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الْأَرْضِ ﴾(٨) .

الثانى والعشرون : عكسه ، نحو : ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى ﴾ .

---

(١) طه ٤٩ — (٢) طه ١١٧ — (٣) يونس ٨٧
(٤) يونس ٦١ — (٥) الطلاق ١ — (٦) البقرة ٤٣
(٧) يونس ٨٧ — (٨) يونس ٧٨

الثالث والعشرون : خطاب العين والمراد به الغير ، نحو : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾[١] ، الخطاب له، والمراد أمّته لأنه صلى الله عليه وسلم كان تقيّاً ، وحاشاه من طاعةِ الكفّار ! ومنه ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ ... ﴾[٢] الآية ، حاشاه صلى الله عليه وسلم من الشّك ؛ وإنما المراد بالخطاب التعريض بالكفار .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى هذه الآية قال : لم يشكّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يسأل . ومثله ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ... ﴾[٣] الآية ، ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[٤] ، وأنحاء ذلك .

الرابع والعشرون : خطاب الغير والمراد به العين ، نحو : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾[٥] .

الخامس والعشرون : الخطاب العامّ الذى لم يقصد به مخاطب معيّن ، نحو : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ ﴾[٦] ، ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾[٧] ، ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ ﴾[٨] ، لم يقصد بذلك خطاب معيّن ، بل كل أحد ، وأخرج فى صورة الخطاب لقصد العموم ، يريد أن حالهم تناهت فى الظهور ، بحيث لا يختصّ بها راءٍ دون راءٍ ، بل كان من أمكن منه الرؤية داخل فى ذلك الخطاب .

السادس والعشرون : خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره ، نحو : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾[٩] ، خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال للكفار : ﴿ فاعلموا أنما أُنْزِل بعلم الله ﴾[٩] ، بدليل ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[٩] ، ومنه ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ... ﴾[١٠] إلى قوله : ﴿ لِتُؤْمِنُوا ﴾[١٠] ، فيمن قرأ بالفوقيّة .

---

(١) الأحزاب ١ (٢) يونس ٩٤ (٣) الزخرف ٤٥
(٤) الأنعام ٣٥ (٥) الأنبياء ١٠ (٦) الحج ١٨
(٧) الأنعام ٢٧ (٨) السجدة ١٢ (٩) هود ١٤
(١٠) الأحزاب ٤٥ ، ٤٦

السابع والعشرون : ، خطاب التلوين وهو الالتفات .

الثامن والعشرون : خطاب الجمادات خطابَ مَنْ يعقل ، نحو: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾(١) .

التاسع والعشرون : خطاب التهييج ، نحو : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

الثلاثون : خطاب التَّحنُّن والاستعطاف ، نحو ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... ﴾(٣) .

الحادى والثلاثون : خطاب التحبُّب ، نحو ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ﴾ (٤) ، ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ ﴾ (٥) ، ﴿ يَابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ﴾ (٦) .

الثانى والثلاثون : خطاب التعجيز ، نحو ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ (٧) .

الثالث والثلاثون : خطاب التشريف ، وهو كلّ ما فى القرآن مخاطبةً بـ«قل» ، فإنه تشريف منه تعالى لهذه الأمة ، بأن يخاطبها بغير واسطة ، لتفوز بشرف المخاطبة .

الرابع والثلاثون : خطاب المعدوم ، ويصح ذلك تبعا لموجود، نحو ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، فإنه خطاب لأهل ذلك الزمان ولكلّ مَنْ بعدهم .

فائدة

قال بعضهم : خطاب القرآن ثلاثة أقسام :

قسم لا يصلح إلا للنبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فصلت ١١ (٢) المائدة ٢٣ (٣) الزمر ٥٣
(٤) مريم ٤٤ (٥) لقمان ١٦ (٦) طه ٩٤
(٧) البقرة ٢٣

وقسم لا يصلح إلا لِغيره .

وقسم لهما .

قال ابن القيِّم : تأمّل خطاب القرآن تجد ملِكاً له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه ، ومردّها إليه ، مستوياً على العَرْش ، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالماً بما في نفوس عبيده ، مطّلعاً على أسرارهم وعلانيتهم، منفرداً بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ، ويعطى ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويُهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقدّر ويقضى ويدبّر ، الأمور نازلة من عنده ، دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه لا تتحرك ذَرّة إلاّ بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه . فتأمل كيف تجده يُثني على نفسه ، ويمجّد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ، ويدلّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغّبهم فيه ، ويحذّرهم مّما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحبّب إليهم بنِعَمه وآلائه ، يذكّرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ، ويحذّرهم من نقمه ، ويذكّرهم بما أعدّ لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوْه ، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذمّ أعداءه بسيّئ أعمالهم ، وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال ، وينوّع الأدِلّة والبراهين ، ويجيب عن شبَه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصدّق الصادق ، ويكذّب الكاذب ، ويقول الحق ويهدِي السبيل ويدعو إلى دار السلام ، ويذكر أوصافها وحسنَها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ، ويذكّر عذابهاَ وقبحها وآلامها ، ويذكّر عُبّاده فقرَهم إليه ، وشدّة حاجتهم إليه من كلّ وجه ، وأنّهم لا غنى لهم عنه طرفةَ عين ، ويذكّرهم غناه عنهم وعن جميع الموجودات ، وأنّه الغنيّ بنفسه عن كلّ ماسواه ، وكلّ ماسواه فقير إليه، وأنه لن ينال أحد ذرّةً من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته . ولا ذَرّةً من الشرّ فما فوقها إلاّ بعدله وحكمته، وتَشهد من خطابه عتابَه لأحبابِه ألطف عتاب ، وأنّه مع ذلك مقيلُ عثراتِهم ، وغافر زلاّتهم ، ومُقيم أعذارَهم ومصلح فسادهم ، والدافع عنهم ، والحامى عنهم والناصر لهم ،

والكفيل بمصالحهم ، والمنجى لهم من كل كَرْب والموفِي لهم بوعده ، وأنه وليُّهم الذى لا وليَّ لهم سواه ، فهو مولاهم الحقّ ، ونصيرهم على عدوّهم ، فنعم المولى ونعم النصير !

وإذا شهدت القلوبُ من القرآن ملكاً عظيماً، جواداً رحيماً جميلاً، هذا شأنه، فكيف لا تحبّه وتنافس فى القرب منه ، وتنفق أنفاسها فى التودّد إليه ، ويكون أحبّ إليها من كلّ ماسواه ، ورضاه آثر عندها من رضا كلِّ مَنْ سواه ! وكيف لا تلهَجُ بذكره وتصيّر حبَّه والشوقَ إليه والأنس به هو غِذاؤها ، وقُوتها ودواؤها بحيث إن فقدت وهلكت لم تنتفع بحياتها .

فائـــدة

قال بعض الأقدمين : أُنزِل القرآن على ثلاثين نحواً ، كل نحو منه غير صاحبه ؛ فمن عرف وجوهَها ، ثم تكلّم فى الدين أصاب ووفِّق ، ومن لم يعرفْها متكلّم فى الدّين الخطأ إليه أقرب ، وهى : المكىّ والمدنىّ ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكَم والمتشابه ، والتقديم والتأخير ، والمقطوع والموصول ، والسبب والإضمار ، والخاصّ والعامّ ، والأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والحدود والأحكام ، والخبَر ، والاستفهام والأبّهة ، والحروف المصرّفة ، والإعذار والإنذار ، والحجّة والاحتجاج ، والمواعظ والأمثال ، والقَسَم .

قال فالمكىّ : مثل ﴿ واهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [1] .

والمدنىّ : مثل ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [2] .

والناسخ والمنسوخ ، واضح .

والمحكم ، مثل ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ... ﴾ [3] الآية ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً ﴾ [4] ، ونحوه مما أحكمه الله وبيّنه .

---

(١) المزمل ١٠ (٢) البقرة ١٩٠ (٣) النساء ٩٣
(٤) النساء ١٠

والمتشابه ؛ مثل ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ... ﴾[1] الآية ، ولم يقل : ﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً ﴾[2]، كما قال فى المحكم ، وقد ناداهم فى هذه الآية بالإيمان ، ونهاهم عن المعصية ، ولم يجعل فيها وعيداً ، فاشتبه على أهلها مايفعل الله بهم .

والتقديم والتأخير : مثل ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ ﴾[3] ، التقدير : كتب عليكم الوصية إذا حضر أحدكم الموتُ .

والمقطوع والموصول ؛ مثل ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[4] فلا مقطوع من أقسم ، وإنما هو فى المعنى : « أقسم بيوم القيامة وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » ، ولم يقسم .

والسبب والإضمار : مثل ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[5] أى أهلَ القرية .

والخاصّ والعامّ : مثل ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ فهذا فى المسموع خاص : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾[6] ، فصار فى المعنى عاماً .

والأمر : وما بعده إلى الاستفهام أمثلتها واضحة .

والأبّهة : مثل ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا ﴾[7] ، ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾[8] عبّر بالصيغة الموضوعة للجماعة للواحد تعالى تفخيماً وتعظيماً وأبّهة .

والحروف المصرفة : كالفتنة تطلق على الشرك ، نحو : ﴿ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[9] .

وعلى المعذرة نحو : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾[10] أى معذرتهم .

وعلى الاختبار ، نحو : ﴿ قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾[11] .

والاعتذار ، نحو : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾[12] ، اعتذر أنه لم يفعل ذلك إلاّ بمعصيتهم .

والبواقى أمثلتها واضحة .

---

(١) النور ٢٧ (٢) النساء ٣٠ (٣) البقرة ١٨٠
(٤) القيامه ١ (٥) يوسف ٨٢ (٦) الطلاق ١
(٧) نوح ١ (٨) الزخرف ٣٢ (٩) البقرة ١٩٣
(١٠) الأنعام ٢٣ (١١) طه ٨٥ (١٢) المائدة ١١٣



النوع الثاني والخمسون
في حقيقته ومجازه

لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن ، وهي كلّ لفظ بقيَ على موضوعه ، ولا تقديم فيه ولا تأخير ، وهذا أكثر الكلام .

وأمّا المجاز فالجمهور أيضاً على وقوعه فيه ، وأنكره جماعة منهم الظاهرية وابن القاصّ من الشافعية وابن خويز منداد من المالكية ، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب ، والقرآن منزّه عنه ، وأن المتكلّم لا يعدل إليه إلاّ إذا ضاقت به الحقيقة ، فيستعير ، وذلك محال على الله تعالى . وهذه شبهة باطلة ، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسْن ، فقد اتّفق البلغاء على أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلوّ القرآن من المجاز وجب خلوّه من الحذف والتوكيد وتثنية القِصص وغيرها .

وقد أفرده بالتصنيف : الإمام عز الدين بن عبد السلام ؛ ولخصتُه مع زيادات كثيرة في كتاب سميته « مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن » ، وهو قسمان :

الأوّل : المجاز في التركيب ، ويسمّى مجاز الإسناد ، والمجاز العقلي وعلاقته الملابسة ، وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى ما هو له أصالة لملابسته له ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[1] ، نُسِبت الزيادة وهي فعل الله إلى الآيات، لكونها سبباً لها. ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾[2] ، ﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي﴾[3] ، نسب الذبح وهو فعل الأعوان إلى فرعون ، والبناء وهو فعل العملَة إلى هامان لكونهما آمرين به .

وكذا قوله : ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[4] ، نُسب الإحلال إليهم لتسبّبهم في كفرهم بأمرهم إيّاهم به .

---

(١) الأنفال ٢ (٢) القصص ٤ (٣) غافر ٣٦
(٤) إبراهيم ٢٨

ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[١] ، نسب الفعل إلى الظرف لوقوعه فيه.

﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[٢] ، أى مرضية .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾[٣] ، أى عزم عليه ، بدليل ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾[٤] .

* * *

وهذا القسم أربعة أنواع :

أحدها : ما طرفاه حقيقيان كالآية المصدر بها ، وكقوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[٥] .

ثانيها : مجازيان ، نحو : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾[٦] ، أى ما ربحوا فيها ، وإطلاق الربح والتجارة هنا مجاز .

ثالثها ورابعها : ما أحد طرفيه حقيقى دون الآخر .

أما الأول والثانى فكقوله : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾[٧] أى برهانا ، ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو ﴾[٨] فإن الدعاء من النار مجاز . وقوله : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[٩] ، ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾[١٠] ، ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[١١] ، واسم الأم الهاوية مجاز ، أى كما أن الأم كافلة لولدها وملجأ له ، كذلك النار للكافرين كافلة ومأوى ومرجع .

القسم الثانى : المجاز فى المفرد ، ويسمى اللغوى ، وهو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له أولا ، وأنواعه كثيرة :

---

(١) المزمل ١٧ — (٢) الحاقة ٢١ — (٣) محمد ٢١

(٤) آل عمران ١٥٩ — (٥) الزلزلة ٢ — (٦) البقرة ١٦

(٧) الروم ٣٥ — (٨) المعارج ١٥ — (٩) محمد ٤

(١٠) المنافقون ٤ — (١١) القارعة ٩

أحدها : الحذف ، وسيأتى مبسوطاً فى نوع المجاز ، فهو به أجدر ، خصوصاً إذا قلنا : إنه ليس من أنواع المجاز .

الثانى : الزّيادة ، وسبق تحرير القول فيها فى نوع الإعراب .

الثالث : إطلاق اسم الكل على الجزء ، نحو ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾[١] ، أى أناملهم ، ونكتة التعبير عنها بالأصابع الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغةً من ، الفرار فكأنّهم جعلوا الأصابع ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾[٢] ، أى وجوههم ، لأنّه لم ير جُمْلتهم ، ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[٣] ، أطلق الشَّهر وهو اسم لثلاثين ليلة ، وأراد جزء منه ؛ كذا أجاب به الإمام فخر الدين عن استشكال أنّ الجزاء إنما يكون بعد تمام الشرط ، والشَّرْط أن يشهد الشهر ، وهو اسم لكلّه حقيقة ؛ فكأنه أمر بالصوم بعد مضىّ الشهر ؛ وليس كذلك ، وقد فسّره علىّ وابن عباس وابن عمر على أنّ المعنى : من شهد منكم الشهر فليصمه جميعَه ؛ وإن سافر فى أثنائه . أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرها ، وهو أيضاً من هذا النوع ، ويصلح أن يكون من نوع الحذف .

الرابع : عكسه ، نحو ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾[٤] أى ذاته ، ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾[٥] ، أى ذواتكم إذ الاستقبال يجبّ بالصدر ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾[٦] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾[٧] عبّر بالوجوه عن جميع الأجساد ، لأن التنعّم والنّصب حاصل كلّها ، ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾[٨] ، ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[٩] ، أى قدّمت وكسبتم ، ونسب ذلك إلى الأيدى لأن أكثر الأعمال تزاوَل بها ، ﴿ قُمِ اللَّيْلَ ﴾[١٠] ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾[١١] ، ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[١٢] ، ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾[١٣] ،

---

(١) البقرة ١٩ (٢) إبراهيم ٢٥ (٣) البقرة ١٨٥
(٤) الرحمن ٢٧ (٥) البقرة ١٤٤ (٦) الغاشية ٨
(٧) الغاشية ٢ ، ٣ (٨) الحج ١٠ (٩) الأنفال ٥١
(١٠) المزمل ١ (١١) الإسراء ٧٨ (١٢) البقرة ٤٣
(١٣) الإنسان ٢٦

أطلق كُلاً من القيام والقراءة والركوع والسجود على الصّلاة وهو بعضها،﴿ هدْياً بالغَ الـكعبة ﴾[١] ، أي الحرم كلّه بدليل أنه لايذبح فيها .

تنبيـــه : أُلحقَ بهذين النوعين شيئان :

أحدها : وصف البعض بصفة الـكل، كقوله:﴿ نَاصِيَةٍ * كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾[٢]،فالخطأ صفة الـكلّ ، وصف به الناصية عكسه كقوله :﴿ إِنَّا مِنْـكُمْ وَجِلُونَ ﴾[٣] . والوجل صفة القلب ،﴿ ولملئتَ مِنهُمْ رُعْباً ﴾[٤]. والرّعب إنّما يـكون فى القلب.

والثانى : إطلاق لفظ بعض مراداً به الـكلّ ، ذكره أبوعبيدة ، وخرّج عليه قوله ﴿ ولأُبَيِّنَ لَـكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾[٥] أى كلّه، ﴿ وإنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْـكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾[٦]، و تُعُقِّبَ بأنه لايجب على النبيّ بيان كل مااختُلف ، فيه بدليل الساعة والرّوح ونحوهما ؛ وبأن موسى كان وعدهم بعذاب فى الدنياوفى الآخرة ، فقال : « يصيبكم هذا العذاب فى الدنيا ، وهو بعض الوعيدمن غير نفى عذاب الآخرة »، ذكره ثعلب

قال الزركشي : ويحتمل أيضاً أن يقال: إن الوعيد مما لا يُستنـكر تركُ جميعه ، فـكيف بعضه ! ويؤيد ما قاله ثعلب قوله:﴿ وإمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فإلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾[٧].

الخامس : إطلاق اسم الخاص على العام ، نحو ﴿ إنّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٨]، أى رسله .

السادس : عكسه ، نحو ﴿ ويَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾[٩]، أى المؤمنين بدليل قوله:﴿ ويَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾[١٠].

---

(١) المائدة ٩٥ (٢) العلق ١٦ ، ١٧ (٣) الحجر ٥٢
(٤) الـكهف ١٨ (٥) الزخرف ٦٣ (٦) غافر ٢٨
(٧) يونس ٤٦ (٨) الشعراء ١٦ (٩) الشورى ٥
(١٠) غافر ٧

السابع : إطلاق اسم الملزوم على اللازم ، نحو . . .[١]

الثامن: عكسه، نحو ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[٢] ، أي هل يفعل؟ أطلق الاستطاعة على الفعل لأنها لازمة له .

التاسع : إطلاق المسبّب على السبب، نحو ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾[٣] ، ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً﴾[٤] ، أي مطراً يتسبّب عنه الرزق واللباس ، ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾[٥] ، أي مؤنة من مهر ونفقة وما لابدّ للمتزوّج منه .

العاشر : عكسه ، نحو ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾[٦] ، أي القبول والعمل به لأنه مسبّب عن السمع .

تنبيه : من ذلك نسبة الفعل إلى سبب السبب ، كقوله : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[٧] ، ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾[٨] ، فإن المخرج في الحقيقة هو الله تعالى، وسبب ذلك أكل الشجرة، وسبب الأكل وسوسة الشيطان.

الحادي عشر : تسمية الشيء باسم ما كان عليه، نحو ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾[٩] ، أي الذين كانوا يتامى، إذ لا يُتْم بعد البلوغ، ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾[١٠] ، أي الذين كانوا أزواجهن، ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾[١١] ، سماه مجرماً باعتبار ما كان في الدنيا من الإجرام .

الثاني عشر : تسميته باسم ما يؤول إليه، نحو ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾[١٢] ، أي عنباً يؤول إلى الخمرية، ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾[١٣] ، أي صائراً إلى الكفر

---

(١) بياض في الأصل
(٢) المائدة ١١٢
(٣) غافر ١٣
(٤) الأعراف ٢٦
(٥) النور ٣٣
(٦) هود ٢٠
(٧) البقرة ٣٦
(٨) الأعراف ٢٧
(٩) النساء ٢
(١٠) البقرة ٢٣٢
(١١) طه ٧٤
(١٢) يوسف ٣٦
(١٣) نوح ٢٧

والفجور ، ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾(١) ، سماه زوجاً لأن العقد يؤول إلى زوجية ؛ لأنها لا تُنكح إلاّ فى حال كونه زوجاً ، ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ﴾(٢) ، ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ ، وصفه فى حالِ البشارة بما يؤول إليه من العلم والحلم .

الثالث عشر : إطلاق اسم الحالّ على المحلّ ، نحو ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣) ، أى فى الجنة ، لأنها محلّ الرحمة ، ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ﴾ ، أى فى الليل(٤) ، ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ﴾(٥) ، أى فى عينك ، على قول الحسن .

الرابع عشر : عكسه ، نحو ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾(٦) ، أى أهل ناديه ، أى مجلسه .

ومنه التعبير باليد عن القدرة ، نحو ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾(٧) .

وبالقلب عن العقل ، نحو ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(٨) ، أى عقول .

وبالأفواه عن الألسن ، نحو ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾(٩) .

وبالقرية عن ساكنيها ، نحو ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(١٠) .

وقد اجتمع هذا النوع وما قبله فى قوله تعالى : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(١١) ، فإنّ أخذَ الزينة غير ممكن لأنها مصدر ، فالمراد محلّها ، فأطلق عليه اسم الحالّ ، وأخذها للمسجد نفسه لا يجب ؛ فالمراد الصلاة ، فأطلق اسم المحلّ على الحالّ .

الخامس عشر : تسمية الشىء باسم آلته ، نحو ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾(١٢) ، أى ثناء حسناً لأن اللسان آلته ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾(١٣) ، أى بلغة قومه .

---

(١) البقرة ٢٣٠ — (٢) الصافات ١٠١ — (٣) آل عمران ١٠٧
(٤) سبأ ٣٣ — (٥) الأنفال ٤٣ — (٦) العلق ١٧
(٧) الملك ١ — (٨) الأعراف ١٧٩ — (٩) آل عمران ١٦٧
(١٠) يوسف ٨٢ — (١١) الأعراف ٣١ — (١٢) الشعراء ٨٤
(١٣) إبرهيم ٤

السادس عشر : تسمية الشيء باسم ضده ، نحو ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] ، والبشارة حقيقة فى الخبر السارّ ، ومنه تسمية الداعى إلى الشيء باسم الصارف عنه ، ذكره السكاكىّ ، وخرّج عليه قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾[2]، يعنى ما دعاك إلى ألاّ تسجد ؟ وسلِم بذلك من دعوى زيادة « لا »

السابع عشر : إضافة الفعل إلى ما لا يصح منه تشبيهاً ، نحو ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[3]، وَصَفَهُ بالإرادة ؛ وهى من صفات الحىّ ، تشبيهاً لميله للوقوع بإرادته .

الثامن عشر : إطلاق الفعل والمراد مشارفته ومقاربته وإرادته ، نحو: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾[4]أى قاربن بلوغ الأجل ، أى انقضاء العدّة ، لأن الإمساك لا يكون بعدّة ، وهو فى قوله: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[5]حقيقة ، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[6]، أى فإذا قرب مجيئه . وبه يندفع السؤال المشهور فيها، أنّ عند مجىء الأجل لا يُتصوّر تقديم ولا تأخير، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ...﴾[7] الآية ، أى لو قاربوا أن يتركوا خافوا لأنّ الخطاب للأوصياء ؛ وإنّما يتوجه إليهم قبل الترك لأنهم بعده أموات ، ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا ﴾[8]، أى أردتم القيام ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ ﴾[9]أى أردت القراءة ، لتكون الاستعاذة قبلها ، ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾[10]،أى أردنا إهلاكها، وإلاّ لم يصحّ العطف بالفاء .

وجعل منه بعضهم قوله : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾[11]، أى مَنْ يرد الله

---

(١) آل عمران ٢١
(٢) الأعراف ١٢
(٣) الكهف ٧٧
(٤) البقرة ٢٣٤
(٥) البقرة ٢٣٢
(٦) الأعراف ٣٤
(٧) النساء ٩
(٨) المائدة ٦
(٩) النحل ٩٨
(١٠) الأعراف ٤
(١١) الكهف ١٧

هدايته ، وهو حسن جدًّا لئلاّ يتّحد الشرط والجزاء .

التاسع عشر : القلب؛ إما قلب إسناد ، نحو: ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ [١]، أى لتنوء العصبة بها، ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [٢]، أى لكلّ كتاب أجل، ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ [٣]، أى حرّمناه على المراضع ، ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ [٤] ، أى تعرض النار عليهم ، لأن المعروض عليه هو الذى له الاختيار . ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [٥] أى وإن حبّه للخير، ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ [٦]، أى يرد بك الخير . ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [٧]؛ لأن المتلقّى حقيقة هو آدم كما قرئ بذلك أيضاً .

أو قلب عطف، نحو: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ﴾ [٨]، أى فانظر ثم تولّ، ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ [٩]، أى تدلّى فدنا ، لأنه بالتدلّى مالَ إلى الدنوّ .

أو قلب تشبيه، وسيأتى فى نوعه .

العشرون : إقامة صيغة مقام أخرى ، وتحته أنواع كثيرة :

منها إطلاق المصدر على الفاعل، نحو : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ [١٠]، ولهذا أفرده .

وعلى المفعول ، نحو ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ [١١] أى من معلومه، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ [١٢] أى مصنوعه ، ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [١٣]، أى مكذوب فيه، لأن الكذب من صفات الأقوال لا الأجسام .

ومنها إطلاق البشرى على المبشّر به ، والهوى على المهوىّ ، والقول على المقول .

ومنها إطلاق الفاعل والمفعول على المصدر ، نحو ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [١٤]،

---

(١) القصص ٧٦ (٢) الرعد ٣٨ (٣) القصص ١٢
(٤) الأحقاف ٢٠ (٥) العاديات ٨ (٦) يونس ١٠٧
(٧) البقرة ٣٧ (٨) النمل ٢٨ (٩) النجم ٨
(١٠) الشعراء ٧٧ (١١) البقرة ٢٥٥ (١٢) النمل ٨٨
(١٣) يوسف ١٨ (١٤) الواقعة ٢

أي تكذيب ، ﴿ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُون ﴾[١] أي الفتنة ، على أن الباء غير زائدة .

ومنها إطلاق فاعل على مفعول ، نحو ﴿ مَاء دَافِقٍ ﴾[٢] أي مدفوق ، ﴿ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ ﴾[٣] أي لا معصوم ، ﴿ جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾[٤] ، أي مأموناً فيه .

وعكسه نحو : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾[٥] أي آتياً ، ﴿ حجاباً مستوراً ﴾[٦] ، أي ساتراً . وقيل : هو على بابه ، أي مستوراً على العيون لا يحسّ به أحد .

ومنها إطلاق « فعيل » بمعنى « مفعول » ، نحو ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾[٧] .

ومنها إطلاق واحدٍ من المفرد والمثنى والجمع على آخر منها .

مثال إطلاق المفرد على المثنى ﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾[٨] أي يرضوهما ، فأفرد لتلازم الرضاءين .

وعلى الجمع ، نحو ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[٩] ، أي الأناسي ، بدليل الاستثناء منه ، ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾[١٠] بدليل ﴿ إلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾[١٠] .

ومثال إطلاق المثنى على المفرد ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾[١١] ، أي ألقِ .

ومنه كل فعل نسب إلى شيئين وهو لأحدهما فقط ، نحو ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[١٢] ، وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب ، ونظيره ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[١٣] ، وإنما تخرج الحلية من الملح ، ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾[١٤] أي في إحداهنّ ، ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾[١٥] ،

---

(١) القلم ٦ (٢) الطارق ٦ (٣) هود ٤٣
(٤) العنكبوت ٦٧ (٥) مريم ٦١ (٦) الإسراء ٤٥
(٧) الفرقان ٥٥ (٨) التوبة ٦٢ (٩) العصر ٢
(١٠) المعارج ١٩ ، ٢٢ (١١) ق ٢٤ (١٢) الرحمن ٢٢
(١٣) فاطر ١٢ (١٤) نوح ١٦ (١٥) الكهف ٦١

والناسي يوشع، بدليل قوله لموسى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾[١]، وإنما أضيف النسيان إليهما معاً لسكوت موسى عنه، ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾[٢]، والتعجيل في اليوم الثاني، ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٣]، قال الفارسيّ: أي من إحدى القريتين. وليس منه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٤]، وأنّ المعنى جنة واحدة، خلافاً للفراء. وفي كتاب «ذا القدّ» لابن جنّي أنّ منه ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾[٥]، وإنما المتّخذ إلهاً عيسى دون مريم.

ومثال إطلاقه على الجمع ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[٦]، أي كرّاتٍ؛ لأن البصر لا يحسَر إلاّ بها. وجعل منه بعضهم قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾[٧].

ومثال إطلاق الجمع على المفرد ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾[٨]، أي أرجعني. وجعل منه ابن فارس: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[٩]، والرسول واحد، بدليل ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾[١٠]. وفيه نظر لأنه يحتمل أنه خاطب رئيسهم، لاسيّما وعادة الملوك جارية ألاّ يرسلوا واحداً. وجعل منه: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾[١١]، ﴿ينزّل الملائكة بالرّوح﴾[١٢]، أي جبريل، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[١٣] والقاتل واحد.

ومثال إطلاقه على المثنى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١٤]، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾[١٥]، ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾[١٦] أي أخوان، ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[١٧] أي قلباكما. ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾[١٨] إلى قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[١٨].

ومنها إطلاق الماضي على المستقبل لتحقّق وقوعه، نحو: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾[١٩] أي

---

(١) الكهف ٦٣ (٢) البقرة ٢٠٣ (٣) الزخرف ٣١
(٤) الرحمن ٤٦ (٥) المائدة ١١٦ (٦) الملك ٤
(٧) البقرة ٢٢٩ (٨) المؤمنون ٩٩ (٩) النمل ٣٥
(١٠) النمل ٣٧ (١١) آل عمران ٣٩ (١٢) النحل ٢
(١٣) البقرة ٧٢ (١٤) فصلت ١١ (١٥) ص ٢٢
(١٦) النساء ١١ (١٧) التحريم ٤ (١٨) الأنبياء ٧٨
(١٩) النحل ١

الساعة، بدليل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[١]. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ﴾[٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ...﴾[٣] الآية. ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[٤]. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾[٥].

وعكسه، لإفادة الدوام والاستمرار، فكأنه وقع واستمرّ، نحو: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ﴾[٦]، ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[٧]. أى تلت، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾[٨] أى علمنا، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾[٩] أى علم، ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ﴾[١٠] أى قتلتم، ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[١١]، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾[١٢] أى قالوا.

ومن لواحق ذلك، التعبير عن المستقبل باسم الفاعل أو المفعول، لأنه حقيقة فى الحال لا فى الاستقبال، نحو ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[١٣]. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾[١٤].

ومنها إطلاق الخبر على الطلب أمراً أو نهياً أو دعاء، مبالغة فى الحثّ عليه حتى كأنه وقع وأخبر عنه. قال الزمخشرى: ورود الخبر، والمراد الأمر أو النهى أبلغ من صريح الأمر أو النهى؛ كأنه سورع فيه إلى الامتثال وأخبر عنه، نحو: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾[١٥]، ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾[١٦]، ﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ﴾[١٧] على قراءة الرافع، ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾[١٨]، أى لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[١٩] أى لا يمسّه، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾[٢٠]، أى لا تعبدوا بدليل ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[٢١].

---

(١) النحل ١ (٢) الزمر ٦٨ (٣) المائدة ١٦٦
(٤) إبراهيم ٢١ (٥) الأعراف ٤٨ (٦) البقرة ٤٤
(٧) البقرة ١٠٢ (٨) النحل ١٠٣ (٩) النور ٦٤
(١٠) البقرة ٩١ (١١) البقرة ٨٧ (١٢) الرعد ٤٣
(١٣) الذاريات ٦ (١٤) هود ١٠٣ (١٥) البقرة ٢٣٣
(١٦) البقرة ٢٢٨ (١٧) البقرة ١٩٧ (١٨) البقرة ٢٧٢
(١٩) الواقعة ٧٩ (٢٠) البقرة ٨٣ (٢١) البقرة ٨٣

﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ﴾(١) ، أى اللهم اغفر لهم

وعكسه ، نحو : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾(٢) ، أى يمدّ ، ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾(٣) ، أى ونحن حاملون ، بدليل ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾(٣) ، والكذب إنّما يرد على الخبر ، ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾(٤).

قال الكواشىّ : فى الآية الأولى الأمر بمعنى الخبر أبلغ من الخبر ، لتضمنه اللزوم نحو : « إن زرتنا فلنكرمك » ، يريدون تأكيد إيجاب الإكرام عليهم . وقال ابن عبد السلام : لأنّ الأمر للإيجاب ، فشبّه الخبر به فى إيجابه .

منها : وضع النداء موضع التعجّب ، نحو : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾(٥) . قال الفرّاء : معناه ، فيالها حسرة ! وقال ابن خالويه : هذه من أصعب مسألة فى القرآن ، لأنّ الحسرة لا تنادَى ، وإنّما ينادَى الأشخاص لأن فائدته التنبيه ، ولكن المعنى على التعجّب .

ومنها وضع جمع القلّة موضع الكثرة ، نحو ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾(٦) ، وغرَف الجنة لا تحصَى ، ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾(٧) ، ورُتب الناس فى علم الله أكثر من العشرة لا محالة ، ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ ﴾(٨) ، ﴿ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ﴾(٩) ، ونكتة التقليل فى هذه الآية التّسهيل على المكلفين .

وعكسه ، نحو ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾(١٠) .

ومنها تذكير المؤنّث على تأويله بمذكّر ، نحو : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾(١١) ، أى وعظ ، ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾(١٢) ، على تأويل البلدة بالمكان .

---

(١) يوسف ٩٢ (٢) مريم ٧٥ (٣) العنكبوت ١٢
(٤) التوبة ٨٢ (٥) يس ٣٠ (٦) سبأ ٣٧
(٧) الأنفال ٤ (٨) الزمر ٤٢ (٩) البقرة ١٨٤
(١٠) البقرة ٢٢٨ (١١) البقرة ٢٧٥ (١٢) ق ١١

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ [١] ، أى الشمس أو الطالع . ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٢] . قال الجوهرىّ : ذكّرت على معنى الإحسان .

وقال الشريف المرتضى فى قوله : ﴿ولا يزالون مختلفين * إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [٣] : إنّ الإشارة للرحمة ، وإنّما لم يقل : « ولتلك » لأن تأنيثها غير حقيقى ؛ ولأنه يجوز أن يكون فى تأويل « أن يرحم » .

ومنها تأنيث المذكّر ؛ نحو ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا ﴾ [٤] ، أنّث الفردوس وهو مذكّر حملا على معنى الجنة ، ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [٥] ، أنّث « عشراً » حيث حذف الهاء مع إضافتها إلى « الأمثال » وواحدها مذكر ، فقيل الإضافة الأمثال إلى مؤنّث ، وهو ضمير الحسنات ، فاكتسب منه التأنيث وقيل : هو من باب مراعاة المعنى ؛ لأن « الأمثال » فى المعنى مؤنثة ، لأنّ مثل الحسنة حسنة ، والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها . وقد قدّمنا فى القواعد المهمّة قاعدة فى التذكير والتأنيث .

ومنها التّغليب ، وهو إعطاء الشىء حكم غيره . وقيل : ترجيح أحد المغلوبين على الآخر ، وإطلاق لفظه عليهما إجراء للمختلفين مجرى المتفقين ، نحو ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [٦] ، ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [٧] ، والأصل : « من القانتات » و « الغابرات » ، فعدّت الأنثى من الذكّر بحكم التغليب ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [٨] ، أتى بتاء الخطاب تغليبا لجانب « أنتم » على جانب « قوم » ، والقياس أن يؤتى بياء الغيبة لأنّه صفة لـ « قوم » ، وحسّن العدولَ عنه وقوع الموصوف خبراً عن ضمير المخاطبين ، ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ [٩] ،

---

(١) الأنعام ٧٨ (٢) الأعراف ٥٦ (٣) هود ١١٨ ، ١١٩ ، وانظر أمالى المرتضى ١ : ٧٠
(٤) المؤمنون ١١ (٥) الأنعام ١٦٠ (٦) التحريم ١٢
(٧) الأعراف ٨٢ (٨) النمل ٥٥ (٩) الإسراء ٦٣

غلّب فى الضمير المخاطبَ وإن كان « مَنْ تَبِعَكَ » ، يقتضى الغيبة ، وحسّنه أنه لمّا كان الغائب تبعاً للمخاطب فى المعصية والعقوبة ، جُعل تبعاً له فى اللفظ أيضاً ، وهو من محاسن ارتباط اللّفظ بالمعنى ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[1] ، غلّب غيرَ العاقل ، حيث أتى بـ « ما » لكثرته وفى آية أخرى بـ « من » ، فغلّب العاقل لشرفه ، ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْب وَالذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[2] ، أدخل شعيب فى « لتعودنّ » بحكم التغليب ؛ إذ لم يكن فى ملّتهم أصلاً حتى يعود فيها ، وكذا قوله : ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾[3] ، ﴿ فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾[4] ، عُدّ منهم بالاستثناء تغليباً لكونه كان بينهم ، ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ ﴾[5] ، أى المشرق والمغرب . قال ابن الشجرىّ : وغلب المشرق لأنه أشهر الجهتين ، ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾[6] أى الملح والعذب ، والبحر خاصّ بالملح ، فغلّب لكونه أعظم ، ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾[7] ؛ أى من المؤمنين والكفار ، والدّرجات للعلوّ ، والدركات للسّفل ، فاستعمل الدرجات فى القسمين تغليباً للأشرف .

قال فى البرهان : وإنّما كان التّغليب من باب المجاز ؛ لأن اللفظ لَم يستعمل فيما وضع له ، ألاَ تَرَى أَنَّ « القَانِتِينَ » ، موضوع للذكور الموصوفين بهذا الوصف ، فإطلاقه على الذكور والإناث إطلاقٌ على غير ماوُضع له ، وكذا باقى الأمثلة .

ومنها استعمال حروف الجرّ فى غير معانيها الحقيقيّة كما تقدّم فى النوع الأربعين .

ومنها استعمال صيغة «أفعل» ، لغير الوجوب وصيغة «لاتفعل» لغير التحريم ، وأدوات الاستفهام لغير طلب التصوّر والتصديق ، وأداة التمنّى والتّرجّى والنّداء لغيرها ؛ كما سيأتى كلّ ذلك فى الإنشاء .

---

(١) الرعد ١٥ — (٢) الأعراف ٨٨ — (٣) الأعراف ٨٩
(٤) الحجر ٣٠، ٣١ — (٥) الزخرف ٣٨ — (٦) الرحمن ١٩
(٧) الأنعام ١٣٢

ومنها التضمين ؛ وهو إعطاء الشيء معنى الشيء ، ويكون فى الحروف والأفعال والأسماء .

أمّا الحروف فتقدّم فى حروف الجرّ وغيرها .

وأمّا الأفعال ؛ فأن يُضمَّنَ فعلٌ معنى فعل آخر ،فيكون فيه معنى الفعلين معاً؛ وذلك بأن يأتىَ الفعل متعدّياً بحرف ليس من عادته التعدّى به ، فيحتاج إلى تأويله أوتأويل الحرْف ليصح التعدّى به ، والأوّل تضمين الفعل والثانى تضمين الحرف .واختلفوا: أيّهما أولى ؟ فقال أهل اللغة وقومٌ من النّحاة : التوسّع فى الحرف . وقال المحقّقون : التوسع فى الفعل ؛ لأنه فى الأفعال أكثر ، مثاله ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾[1] ، ويشرب إنما يتعدّى بمن ، فتعديته بالباء إمّا على تضمينه معنى «يروى» و«يلتذ»، أو تضمين الباء معنى « من » نحو ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[2] ، فالرَّفَث لايتعدّى بإلى إلاّ على تضمّن معنى الإفضاء ، ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾[3] والأصل: « فى أن» ، فضمّن معنى« أدعوك»،﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[4] ، عديت بعن لتضمّنها معنى العفو والصفح .

وأما فى الأسماء ؛ فأن يضمّن اسم معنى اسم ، لإفادة معنى الاسمين معاً ، نحو : ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَلاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾[5] ، ضمّن « حقيق » معنى« حريص » ليفيد أنه محقوق بقول الحقّ وحريص عليه ؛ وإنما كان التضمين مجازاً ؛ لأن اللفظ لم يوضع للحقيقة والمجاز معاً ، فالجمع بينهما مجاز .

---

(١) الإنسان ٦ (٢) البقرة ١٨٧ (٣) النازعات ١٨
(٥) الشورى ٢٥ (٤) الأعراف ١٠٥

فصـــل

فى أنواع مختلَف فى عدّها من المجاز

وهى ستة :

أحدها : الحذف ، فالمشهور أنه من المجاز ، وأنكره بعضهم لأن المجاز استعمال اللفظ فى غير موضوعه ، والحذف ليس كذلك .

وقال ابن عطيّة : حَذف المضاف هو عين المجاز ومعظمه ، وليس كلّ حذفٍ مجازاً .

وقال القرافِيّ : الحذف أربعة أقسام :

قسم يتوقف عليه صحّة اللفظ ومعناه ، من حيث الإسناد ، نحو : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾(١) ، أى أهلها ، إذ لا يصحّ إسنادُ السؤالِ إليها .

وقسم يصحّ بدونه ، لكن يتوقف عليه شرعاً ، كقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيامٍ أُخَرَ ﴾(٢) ، أى فأفطر فعدّة .

وقسم يتوقّف عليه عادة لا شرعاً ، نحو : ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾(٣) ، أى فضربه .

وقسم يدلّ عليه دليل غير شرعىّ ولا هو عادة ، نحو : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾(٤) دلّ الدليل على أنه إنما قَبض من أثر حافر فرس الرسول .

وليس فى هذه الأقسام مجاز إلاّ الأول .

وقال الزّنجانىّ فى المعيار(٥) : إنّما يكون مجازاً إذا تغيّر حكم ؛ فأما إذا لم يتغيّر كحذف خبر المبتدأ المعطوف على جملة فليس مجازاً ، إذ لم يتغيّر حكم ما بقى من الكلام .

وقال القزوينىّ فى الإيضاح : متى تغيّر إعراب الكلمة بحذف أو زيادة ، فهى مجاز ،

---

(١) يوسف ٨٢ (٢) البقرة ١٨٤ (٣) الشعراء ٦٣

(٤) طه ٩٦ (٥) هو عبد الوهاب بن إبراهيم الخزرجى ، من علماء العربية وكتابه معيار النظار فى علوم الأشعار ، وهو أيضا صاحب كتاب المضنون به على غير أهله . توفى سنة ٦٥٥ .. بغية الوعاة ٢ : ١٢٢

نحو : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[١] ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[٢] ، فإنْ كان الحذف أو الزيادة لا يوجب تغيّر الإعراب نحو : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾[٣] ، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾[٤] فلا توصف الـكلمة بالمجاز .

الثانى : التأكيد ؛ زعم قومٌ أنه مجاز ، لأنّه لا يفيد إلاّ ماأفاده الأوّل . والصّحيح أنه حقيقة .

قال الطّرطوسىّ فى العمدة : ومن سمّاه مجازاً قلنا له : إذا كان التأكيد بلفظ الأول نحو : « عجّل عجل » ونحوه ، فإن جاز أن يكون الثانى مجازاً جاز فى الأوّل ، لأنّهما فى لفظٍ واحـد ، وإذا بطل حَمْل الأول على المجاز بطل حمل الثانى عليه ، لأنه مثل الأول .

الثالث : التشبيه ؛ زعم قوم أنّه مجاز ، والصحيح أنه حقيقة .

قال الزنجانىّ فى المعيار : لأنه معنى من المعانى ، وله ألفاظ تدلّ عليه وضعاً ، فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه .

وقال الشيخ عز الدين : إن كان بحرفٍ فهو حقيقة أو بحذفه فمجاز ، بناء على أنّ الحذف من باب المجاز .

الرابع : الـكناية ، وفيها أربعة مذاهب :

أحدها أنها حقيقة ، قال ابن عبدالسلام : وهو الظّاهر ، لأنّها استعملت فيما وضعت له وأريد بها الدلالة على غيره .

الثانى : أنها مجاز .

الثالث : أنها لا حقيقة ولا مجاز ، وإليه ذهب صاحب التلخيص لمنعه فى المجاز أن يُراد المعنى الحقيقىّ مع المجازىّ ، وتجويزه ذلك فيها .

---

(١) يوسف ٨٢ (٢) الشورى ١١ (٣) البقرة ١٩
(٤) آل عمران ١٥٩

الرابع ـ وهو اختيار الشيخ تقى الدين السّبكى : أنّها تنقسم إلى حقيقة ومجاز ، فإن استعملت اللفظ فى معناه مراداً منه لازم المعنى أيضاً فهو حقيقة ،وإن لم يُرَد المعنى بل عُبِّر بالملزوم عن اللازم فهو مجاز ، لاستعماله فى غير ماوضع له. والحاصل أن الحقيقة منها أن يُستعمل اللفظ فيما وضع له ليفيد غير ماوضع له ، والمجاز منها أن يريد به غير موضوعه استعمالاً وإفادة .

الخامس : التقديم والتأخير ، عدّه قومٌ من المجاز لأن تقديم ما رتبته التأخير كالمفعول وتأخير ما رتْبته التقديم كالفاعل نقلٌ لكل واحدٍ منهما عن مرتبته وحقّه .

قال فى البرهان : والصّحيح أنه ليس منه ، فإن المجاز نقل ماوضع إلى مالم يوضع له .

السادس : الالتفات ، قال الشيخ بهاء الدين السُّبْكىّ : لم أر من ذكر:هل هو حقيقة أو مجاز ؟ قال : وهو حقيقة حيث لم يكن معه تجريد .

* * *

فصل

فيما يوصف بأنه حقيقة ومجاز باعتبارين

هو الموضوعات الشرعيّة ، كالصلاة و الزكاة والصوم والحج ، فإنها حقائق بالنظر إلى الشرع ، مجازات بالنظر إلى اللغة

* * *

فصل

فى الواسطة بين الحقيقة والمجاز

قيل بها فى ثلاثة أشياء :

أحدها : اللّفظ قبل الاستعمال ، وهذا القسم مفقود فى القرآن ، ويمكن أن يكون منه أوائل السُّوَر على القول بأنّها للإشارة إلى الحروف التى يتركّب منها الكلام .

ثانيها : الإعلام .

ثالثها : اللفظ المستعمل فى المشاكلة ، نحو ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ﴾[١] ، ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[٢] . ذكر بعضهم أنه واسطة بين الحقيقة والمجاز ، قال : لأنه لم يوضع لما استُعمل فيه ، فليس حقيقة ، ولا علاقة معتبرة فليس مجازاً ، كذا فى شرح بديعيّة ابن جابر لرفيقه .

قلت : والذى يظهر أنها مجاز والعلاقة المصاحبة .

* * *

خاتمة

لهم مجاز المجاز ، وهو أن يُجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر ، فيتجوّز بالمجاز الأول عن الثانى لعلاقة بينهما ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾[٣] ، فإنه مجاز عن مجاز ، فإن الوطء تجوّز عنه بالسرّ لكونه لا يقع غالباً إلاّ فى السّرّ ، وتجوّز به عن العقد ، لأنه مسبّب عنه ، فالمصحّح للمجاز الأول الملازمة ، والثانى السّببيّة ، والمعنى : « لا تواعِدُوهُنّ عَقْد نكاح » .

وكذا قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾[٤] فإنّ قوله : ﴿ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ﴾[٥] ، مجاز عن تصديق القلب بمدلول هذا اللفظ ، والعلاقة السببيّة لأنّ توحيد اللسان مسبّب عن توحيد الجنان ، والتعبير بـ « لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ » عن الوحدانية من مجاز التعبير بالقول عن المقول فيه .

وجعل منه ابن السِّيد قوله : ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾[٦] ، فإن المنزّل عليهم ليس هو نفس اللباس ، بل الماء المنبِت للزرع المتّخذ منه الغزْل المنسوج منه اللباس .

---

(١) آل عمران ٥٤ — (٢) الشورى ٤٠ — (٣) البقرة ٢٣٥
(٤) المائدة ٥ — (٥) الصافات ٣٥ — (٦) الأعراف ٢٦

النوع الثالث والخمسون
فى تشبيهه واستعاراته

التشبيه نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها .

قال المبرِّد فى الكامل : لو قال قائل : هو أكثر كلام العرب لم يُبْعد .

وقد أفرد تشبيهات القرآن بالتصنيف أبو القاسم بن البندار البغدادىّ ، فى كتاب سمّاه « الجمان »[1] .

وعرّفه جماعة ، منهم السكاكىّ ، بأنه الدّلالة على مشاركة أمرٍ لأمرٍ فى معنًى

وقال ابن أبى الإصبع : هو إخراج الأغمض إلى الأظهر .

وقال غيره : هو إلحاق شىء بذى وصف فى وصفه .

وقال بعضهم : هو أن تثبت للمشبَّه حكماً من أحكام المشبَّهِ به ، والغرض منه تأنيس النفس بإخراجها من خفىّ إلى جلىّ ، وإدنائه البعيد من القريب ليفيد بياناً .

وقيل : الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار .

وأدواته حروف وأسماء وأفعال ؛ فالحروف : الكاف نحو « كرمادٍ » ، وكأنّ نحو ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[2] . والأسماء مثلٌ وشبه ونحوهما ممّا يشتقّ من المماثلة والمشابهة ، قال الطيبىّ : ولا تستعمل « مثل » إلاّ فى حال أو صفة لها شأن ، وفيها غرابة . نحو ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾[3] . والأفعال نحو ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾[4] ، ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾[5] .

قال فى التلخيص اتّباعا للسكاكىّ : وربّما يُذكر فعل ينبىء عن التشبيه ، فيؤتى

---

(١) هو كتاب الجمان فى تشبيهات القرآن ، لأبى القاسم عبدالله بن محمد بن حسين المعروف بابن ناقيا المتوفى سنة ٤٨٥ . ذكره فى كشف الظنون (٢) الصافات ٦٥ (٣) آل عمران ١١٧

(٤) النور ٣٩ (٥) طه ٦٦

فى التشبيه القريب بنحو « عَلِمت زيداً أسداً » الدالّ على التحقيق ، وفى البعيد بنحو « حَسِبْت زيداً أسداً » ، الدالّ على الظَّنّ وعدم التحقيق .

وخالفَه جماعة ، منهم الطيبىّ فقالوا : فى كون هذه الأفعال تنبئ عن التشبيه نوعُ خفاء ، والأظهر أن الفعل ينبئ عن حال التشبيه فى القُرْب والبعد ، وأن الأداة محذوفة مقدّرة لعدم استقامة المعنى بدونه .

ذكر أقسامه

ينقسم التشبيه باعتبارات :

الأول : باعتبار طرَفيه ، إلى أربعة أقسام ، لأنهما إمّا حسّيّان أو عقليّان ، أو المشبّه به حسّىّ ، والمشبّه عقلى ، أو عكسه .

مثال الأول : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾[1] ، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[2] .

ومثال الثانى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[3] ، كذا مثّل به فى البرهان ، وكأنه ظنّ أنّ التشبيه واقع فى القسوة ، وهو غير ظاهر ، بل هو واقع بين القلوب والحجارة ، فهو من الأوّل .

ومثال الثالث : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾[4] .

ومثال الرابع لم يقع فى القرآن ، بل منعه الإمام أصلاً ، لأن العقل مستفاد من الحسّ ، فالمحسوس أصل للمعقول وتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً ، وهو غير جائز . وقد اختلف فى قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[5] .

* * *

---

(١) يس ٣٩ — (٢) القمر ٢٠ — (٣) البقرة ٧٤

(٤) إبراهيم ١٨ — (٥) البقرة ١٨٧

الثانى : ينقسم باعتبار وجهه إلى مفردٍ ومركب، والمركب أن ينتزع وجه الشبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض ، كقوله : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[1] ، فالتشبيه مركب من أحوال الحمار ، وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نفع مع تحمل التعب فى استصحابه .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾[2] ، إلى قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾[2] ، فإن فيه عشر جمل ، وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه ، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا فى سرعة تقضيها وانقراض نعيمها واغترار الناس بها بحال ماء نزل من السماء ، وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض ، كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة ، فكأنها لم تكن بالأمس .

وقال بعضهم : وجه تشبيه الدنيا بالماء أمران :

أحدهما : أن الماء إذا أخذتَ منه فوق حاجتك تضررت ، وإن أخذت قدر الحاجة انتفعت به ، فكذلك الدنيا .

والثانى : أن الماء إذا طبقت عليه كفك لتحفظه لم يحصل فيه شئ ، فكذلك الدنيا .

وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... ﴾[3] الآية ، فشبه نوره الذى يلقيه فى قلب المؤمن بمصباح اجتمعت فيه أسباب الإضاءة ، إما بوضعه فى مشكاة وهى الطاقة التى لا تنفذ ، وكونها لا تنفذ لتكون أجمع للبصر ، وقد جعل فيها مصباح فى داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرى فى صفائها ، ودهن المصباح من أصفى الأدهان وأقواها وقوداً ، لأنه من زيت شجرة فى وسط السراج ، لا شرقية ولا غربية ، فلا تصيبها الشمس فى أحد طرفى النهار ، بل تصيبها الشمس أعدل إصابة ، وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن ، ثم ضرب للكافر مثلين ، أحدهما كسراب بقيعة ، والآخر كظلمات فى بحر لجى ... إلى آخره ، وهو أيضاً تشبيه تركيب .

* * *

---

(١) الجمعة ٥ (٢) يونس ٢٤ ، (٣) النور ٣٥

الثالث : ينقسم باعتبار آخر إلى أقسام :

أحدها : تشبيه ماتقع عليه الحاسّة بما لاتقع ، اعتماداً على معرفة النقيض والضد ، فإن إدراكهما أبلغ من إدراك الحاسّة ، كقوله : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1] ، شبّه بما لايُشَكُّ أنّه منكرٍ قبيح لِمَا حصل فى نفوس الناس من بشاعة صورة الشياطين وإن لم ترها عياناً .

الثانى : عكسه ، وهو تشبيه مالا تقع عليه الحاسّة بما تقع عليه ، كقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ . .﴾[2] الآية . أخرج مالا يُحَسّ وهو الإيمان، إلى مايُحَسّ وهو السراب ، والمعنى الجامع بطلان التوهّم مع شدّة الحاجة وعظم الفاقة .

الثالث : إخراج مالم تجرِ العادة به إلى ماجرت ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[3] ، والجامع بينهما الارتفاع فى الصّورة .

الرابع : إخراج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بها ، كقوله : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[4] ، والجامع العظَم ، وفائدته التّشويق إلى الجنّة بحُسن الصفة وإفراط السّعة .

الخامس: إخراج مالاقوّة له فى الصفة إلى ماله قوة فيها، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾[5] ، والجامع فيهما العِظَم ، والفائدة إبانة القُدرة على تسخير الأجسام العظام فى ألطف ما يكون من الماء ، وما فى ذلك من انتفاع الخلق بحمل الأثقال ، وقطعها الأقطار البعيدة فى المسافة القريبة ، وما يلازم ذلك من تسخير الرياح للإنسان ، فتضمّن الكلام نبأ عظيماً من الفخر وتعداد النّعم ؛ وعلى هذه الأوجه الخمسة تجرى تشبيهات القرآن .

---

(١) الصافات ٦٥ (٢) النور ٣٩ (٣) الأعراف ١٧١
(٤) الحديد ٢١ (٥) الرحمن ٢٤

السادس : ينقسم باعتبار آخر إلى :

مؤكّد،وهو ما حذفت فيه الأداة ، نحو ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ (١) ، أى مثل مرّ السحاب . ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهم ﴾ (٢) ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (٣) .

ومرسَل ، وهو ما لم تحذف كالآيات السابقة .

والمحذوف الأداة أبلغ لأنه نُزّل فيه الثانى منزلة الأوّل تجوّزاً .

قاعدة

الأصل دخول أداة التشبيه على المشبّه به ، وقد تدخل على المشبّه ، إمّا لقصد المبالغة فيقلب التشبيه ، ويُجعل المشبّه هو الأصل ، نحو ﴿ قَالُوا إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ (٤) ، كان الأصل أن يقولوا : إنما الربا مثل البيع ، لأنّ الكلام فى الرِّبا لا فى البيع ، فعدَلوا عن ذلك ، وجعلوا الرِّبا أصلاً ملحقاً به البيع فى الجواز ، لأنّه الخليق بالحلّ . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ ﴾ (٥) ، فإنّ الظاهر العكس، لأن الخطاب لعبَدة الأوثان الذين سمّوها آلهة ، تشبيهاً بالله سبحانه وتعالى ، فجعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فخولف فى خطابهم لأنّهم بالغوا فى عبادتهم ، وغلوْا حتى صارت عندهم أصلاً فى العبادة، فجاء الرّد على وِفْق ذلك .

وإمّا لوضوح الحال، نحو ﴿ولَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ (٦)، فإنّ الأصل : « وليس الأنثى كالذكر » ، وإنّما عُدِل عن الأصل، لأنّ المعنى « وليس الذكر الذى طَلبتْ كالأنثى التى وُهِبتْ » . وقيل : لمراعاة الفواصل ، لأنّ قبله: ﴿ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ (٦) .

وقد تدخل على غيرهما اعتماداً على فهم المخاطب ، نحو ﴿ كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ

---

(١) النمل ٨٨
(٢) الأحزاب ٦
(٣) آل عمران ١٣٣
(٤) البقرة ٢٧٥
(٥) النحل ١٧
(٦) آل عمران ٣٦

عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ...﴾(١) الآية ، المراد : « كونوا أنصار الله خالصين فى الانقياد كشأن مخاطبى عيسى إذ قالوا ... » .

* * *

قاعـــدة

القاعدة فى المدح تشبيه الأدنى بالأعلى، وفى الذم تشبيه الأعلى بالأدنى ؛ لأن الذم مقام الأدنى ،والأعلى طارئ عليه ،فيقال فى المدح:حصى كالياقوت، وفى الذم:ياقوت كالزجاج.

وكذا فى السلب ، ومنه ﴿ يانِسَاءَ النبيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾(٢)، أى فى النزول لا فى العلو . ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾(٣) ، أى فى سوء الحال ، أى لانجعلهم كذلك .

نعم أورِد على ذلك ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾(٤)، فإنه شبه فيه الأعلى بالأدنى ، لا فى مقام السلب . وأجيب بأنه للتقريب إلى أذهان المخاطَبين ، إذ لا أعلى من نوره فيشَبَّه به .

* * *

فائــدة

قال ابن أبى الإصبع(٥) : لم يقع فى القرآن تشبيه شيئين بشيئين ، ولا أكثر من ذلك، إنما وقع فيه تشبيه واحد بواحد .

* * *

فصـــل

زُوِّج المجاز بالتشبيه ، فتولد بينهما الاستعارة ، فهى مجاز علاقته المشابهة ، أو يقال

---

(١) الصف ١٤ (٢) الأحزاب ٣٢ (٣) ص ٢٨

(٤) النور ٣٥ (٥) هو عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر العدوانى المصرى ، صاحب التصانيف فى بديع القرآن وغيره .توفى سنة ٦٥٤ . النجوم الزهراء ٧ : ٣٧

فى تعريفها : اللفظ المستعمل فيما شبّه بمعناه الأصلىّ .

والأصح أنّها مجاز لغوىّ، لأنّها موضوعة للمشبّه به لا للمشبّه ، ولا لأعمّ منهما ، فأسد فى قولك : رأيت أسداً يرمى ، موضوعٌ للسبع لا للشجاع ، ولا لمعنًى أعمّ منهما كالحيوان الجرئ مثلا، ليكون إطلاقه عليهما حقيقة كإطلاق الحيوان عليهما .

وقيل : مجاز عقلىّ بمعنى أن التصرّف فيها فى أمر عقلىّ لا لغوىّ ، لأنّها لا تطلق على المشبّه إلا بعد ادّعاء دخوله فى جنس المشبَّه به ، فكان استعمالها فيما وُضِعت له ، فيكون حقيقة لغويّة ، ليس فيها غير نقل الاسم وحده، وليس نقل الاسم المجرّد استعارة ؛ لأنه لا بلاغة فيه ، بدليل الأعلام المنقولة ، فلم يبق إلاّ أن يكون مجازاً عقلياً .

وقال بعضهم : حقيقة الاستعارة أن تُستعار الكلمة من شىء معروف بها إلى شىء لم يعرَف بها ، وحكمة ذلك إظهار الخفىّ ، وإيضاح الظاهر الذى ليس بجلىّ ، أو حصول المبالغة أو المجموع ، مثالُ إظهار الخفىّ ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾[1] فإن حقيقته : « وإنه فى أصل الكتاب » ، فاستعير لفظ الأمّ للأصل ، لأن الأولاد تنشأ من الأمّ كما تنشأ الفروع من الأصول ، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئىّ حتى يصير مرئياً ، فينتقل السامع من حدّ السّماع إلى حدّ العيان ، وذلك أبلغ فى البيان . ومثال إيضاح ما ليس بجلىّ ليصير جلياً ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾[2] ، فإن المراد أمر الولد بالذّل لوالديه رحمة ، فاستعير للذلّ أوّلا « جانب » . ثم للجانب جناحٌ ، وتقدير الاستعارة القريبة : « واخفض لهما جانب الذل » ؛ أى اخفض جانبك ذُلاً ، وحكمة الاستعارة فى هذا جَعْلُ ما ليس بمرئىّ مرئياً ، لأجل حسن البيان ، ولمّا كان المراد خفض جانب الولد للوالدين بحيث لا يُبقى الولد من الذّل لهما والاستكانة ممكناً ، احتيج فى الاستعارة إلى ما هو أبلغ من الأولى ؛ فاستُعير لفظ الجناح لما فيه من المعانى التى لا تحصل من خفض الجانب ؛ لأن مَنْ مَيَلَ جانبه إلى جهة السُّفل أدنى ميل صدق عليه

---

(١) الزخرف ٤ (٢) الإسراء ٢٤

أنه خفض جانبه ، والمراد خفضٌ يلصق الجانب بالأرض ، ولا يحصل ذلك إلاّ بذكر الجناح كالطّائر .

ومثال المبالغة : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾[1] ، وحقيقته : « وفجّرنا عيون الأرض » ، ولو عبّر بذلك لم يكن فيه من المبالغة ما فى الأوّل المشعِر بأن الأرض كلّها صارت عيوناً .

* * *

فرع

أركان الاستعارة ثلاثة : مستعار ، وهو لفظ المشبّه به ، ومستعار منه ، وهو معنى اللفظ المشبّه ، ومستعار له ، وهو المعنى الجامع .

وأقسامها كثيرة باعتبارات ، فتنقسم باعتبار الأركان الثلاثة إلى خمسة أقسام :

أحدها : استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس ، نحو ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[2] ، فالمستعار منه هو النار ، والمستعار له الشّيب ، والوجه هو الانبساط ، ومشابهةُ ضوء النار لبياض الشيب ، وكلّ ذلك محسوس، وهو أبلغ مما لو قيل « اشتعل شيب الرأس » ، لإفادة عموم الشيب لجميع الرأس . ومثله ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾[3] ، أصل الموج حركة الماء ؛ فاستعمل فى حركتهم على سبيل الاستعارة ، والجامع سرعة الاضطراب وتتابعه فى الكثرة . ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[4] استعير خروج النَّفَس شيئاً فشيئاً لخروج النُّور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلاً قليلاً ، بجامع التتابع على طريق التّدريج ، وكلّ ذلك محسوس .

الثانى : استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلىّ . قال ابن أبى الإصبع : وهى ألطف

---

(١) القمر ١٢ (٢) مريم ٤ (٣) الكهف ٩٩
(٤) التكوير ١٨

من الأولى ، نحو ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ (١) ، فالمستعار منه السلخ الذى هو كشط الجلد عن الشاة ، والمستعار له كشف الضوء عن مكان الليل ؛ وهما حسّيان، والجامع مايُعقل من ترتب أمر على آخر وحصوله عقب حصوله ، كترتب ظهور اللحم على الكشط ، وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل، والترتب أمر عقلىّ .ومثله : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً ﴾ (٢)، أصل الحصيد النبات ، والجامع الهلاك ، وهو أمر عقلى .

الثالث : استعارة معقول لمعقول بوجه عقلىّ . قال ابن أبى الإصبع : وهى ألطف الاستعارات ، نحو ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ (٣) ، المستعار منه الرقاد ، أى النوم والمستعار له الموت ، والجامع عدم ظهور الفعل ، والكل عقلىّ . ومثله ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ (٤) ، المستعار السكوت ، والمستعار منه الساكت ، والمستعار له الغضب .

الرابع : استعارة محسوس لمعقول، بوجه عقلى أيضاً، نحو ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ ﴾ (٥) استعير المسّ وهو حقيقة فى الأجسام وهو محسوس ،لمقاساة الشدّة ،والجامع اللحوق،وهما عقليّان. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ (٦) ؛ فالقذف والدمغ مستعاران ، وهما محسوسان والحقّ والباطل مستعار لهما وهما معقولان . ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٧)، استُعير الحبل المحسوس للعهد وهو معقول .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (٨) ، استُعير الصَّدْع ، وهو كسر الزجاجة، وهو محسوس للتبليغ ، وهو معقول، والجامع التأثير، وهو أبلغ من « بَلِّغ »، وإن كان بمعناه ؛ لأن تأثير الصدع أبلغ من تأثير التبليغ، فقد لا يؤثر التبليغ، والصَّدع يؤثر جزماً . ﴿ واخْفِضْ لَهُمَا

---

(١) يس ٣٧ (٢) يونس ٢٤ (٣) يس ٥٢
(٤) الأعراف ١٥٠ (٥) البقرة ٢١٤ (٦) الأنبياء ١٨
(٧) آل عمران ١١٢ (٨) الحجر ٩٤

﴿جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [١] ، قال الراغب : لمّا كان الذّلّ على ضربين : ضرب يضع الإنسان وضرب يرفعه ، وقصد في هذا المكان إلى ما يرفع ، استعير لفظ الجناح ، فكأنه قيل : استعمل الذّل الذي يرفعك عند الله . وكذا قوله : ﴿يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [٢] ، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [٣] ، ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى﴾ [٤] ، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [٥] ، ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [٦] ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [٧] ، ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [٨] ، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [٩] ، كلها من استعارة المحسوس للمعقول والجامع عقليّ .

الخامس : استعارة معقول لمحسوس ، والجامع عقليّ أيضاً ، نحو ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ المستعار منه التكبّر ، وهو عقليّ ، والمستعار له كثرة الماء وهو حسّيّ ، والجامع الاستعلاء وهو عقليّ أيضاً ، ومثله ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [١٠] ، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [١١] .

* * *

وتنقسم باعتبار اللفظ إلى :

أصليّة ، وهي ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس ، كآية ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [١٢] ، ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [١٣] ، ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾ [١٤] .

وتبعيّة ، وهي ما كان اللفظ فيها غير اسم جنس ، كالفعل والمشتقات ، كسائر الآيات السابقة ، وكالحروف ، نحو ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [١٥] ، شبّه ترتّب

---

(١) الإسراء ٢٤ — (٢) الأنعام ٦٨ — (٣) آل عمران ١٨٧
(٤) التوبة ١٠٩ — (٥) الأعراف ٤٥ — (٦) الطلاق ١١
(٧) الفرقان ٢٣ — (٨) الشعراء ٢٢٥ — (٩) الإسراء ٢٩
(١٠) الملك ٨ — (١١) الإسراء ١٢ — (١٢) آل عمران ١٠٣
(١٣) الطلاق ١١ — (١٤) الشعراء ٢٢٥ — (١٥) القصص ٨

العداوة والحزن على الالتقاط بترتّب غلبة الغائيّة عليه، ثم استعير فى المشبّه اللّام الموضوعة للمشبّه به .

* * *

وتنقسم باعتبار آخر إلى : مرشحة ، ومجرّدة ، ومطلقة :

فالأولى : وهى أبلغها ، أن تقترن بما يلائم المستعار منه ، نحو ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾(١) ، استعير الاشتراء للاستبدال والاختيار ، ثم قُرِن بما يلائمه من الربح والتجارة .

والثانية : أن تقرَن بما يلائم المستعار له ، نحو : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾(٢) ،استعيرَ اللباس للجوع ، ثم قرِن بما يلائم المستعار له من الإذاقة ، ولو أراد الترشيح لقال: « فكساها » ، لكنّ التّجريد هنا أبلغُ ، لما فى لفظ الإذاقة من المبالغة فى الألم باطناً .

والثالثة : ألاّ تقرَن بواحد منهما .

* * *

وتنقسم باعتبار آخر إلى: تحقيقيّة ، وتخييليّة ، ومكنيّة ، وتصريحيّة .

فالأولى : ماتحقّق معناها حسّاً ، نحو : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ ... ﴾ الآية ، أو عقلا نحو ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾(٣) ، أى بياناً واضحاً وحجّة لامعة ، ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(٤) أى الدين الحق ، فإن كلاًّ منهما يتحقّق عقلا .

والثانية : أن يضمَر التشبيه فى النفس ، فلا يصرّح بشئ من أركانه سوى المشبّه .

---

(١) البقرة ١٦ — (٢) النحل ١١٢ — (٣) النساء ١٧٤
(٤) فاتحة الكتاب ٥

ويدلّ على ذلك التشبيه المضمَر فى النفس ، بأن يثبت للمشبّه أمر مختصٌّ بالمشبّه به .

ويسمى ذلك التشبيه المضمَر استعارة بالكناية، ومكنيًا عنها ، لأنه لم يصرّح به ، بل دلّ عليه بذكر خواصّه .

ويقابله التصريحيّة ، ويسمّى إثباتُ ذلك الأمر المختصّ بالمشبّه به للمشبّه استعارة تخييلية ، لأنه قد استعير للمشبّه ذلك الأمر المختصّ بالمشبّه به ، وبه يكون كمال المشبّه به وقوامه فى وجه الشبه لتخيّل أن المشبّه من جنس المشبّه به . ومن أمثلة ذلك : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾[1] ، شبّه العهد بالحبل وأضمر فى النفس ، فلم يصرّح بشئ من أركان التشبيه سوى العهد المشبّه ، ودلّ عليه بإثبات النقض الذى هو من خواصّ المشبه به وهو الحبل ، وكذا ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾[2] طوى ذكرَ المشبّه به وهو النار ، ودلّ عليه بلازمه وهو الاشتعال. ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ ... ﴾[3] الآية ، شبّه مايدرك من أثر الضرر والألم بما يُدرَك من طعم المرّ ، فأوقع عليه الإذاقة ، ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾[4] ، شبهها فى ألاّ تقبل الحق بالشئ الموثوق المختوم . ثم أثبت لها الختم ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾[5] ، شبّه ميلانه للسقوط بانحراف الحىّ ، فأثبت له الإرادة التى هى من خواصّ العقلاء .

ومن التصريحية آية ﴿ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ ﴾[6] ، ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾[7] .

* * *

وتنقسم باعتبار آخر إلى :

وفاقية ، بأن يكون اجتماعها فى شيء ممكنًا ، نحو : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾[8] أى ضالاً فهديناه ، استعير الإحياء من جعل الشئ حيًا للهداية التى بمعنى الدلالة على مايوصّل إلى المطلوب ، والإحياء والهداية ممّا يمكن اجتماعهما فى شيء .

---

(١) البقرة ٢٧ (٢) مريم ٤ (٣) النحل ١١٢
(٤) البقرة ٧ (٥) الكهف ٧٧ (٦) البقرة ٢١٤
(٧) يس ٥٢ (٨) الأنعام ١٢٢

وعنادِيّة ، وهى مالا يمكن اجتماعهما فى شىء ، كاستعارة اسم المعدوم للموجود لعدم نفعه ،واجتماع الوجود والعدم فى شىء ممتنع .

ومن العنادية التهكميَّة والتمليحيّة ، وهما مااستعمل فى ضدّ أونقيض ، نحو : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١) ، أى أنذرهم ، استعيرتْ البِشارة وهى الإخبار بما يسرّ،للإنذار الذىهو ضده،بإدخالهفى جنسهاعلى سبيل التهكّم والاستهزاء ، ونحو:﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾(٢) ، عنَى الغوىّ السفيه تهكّما ، ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾(٣) .

* * *

وتنقسم باعتبار آخرَ إلى تمثيلية ، وهى أن يكون وجه الشبه فيها منتزعاً من متعدّد نحو : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ﴾(٤) ، شبّه استظهار العبد بالله ووثوقه بحمايته ، والنجاة من المكاره باستمساك الواقع فى مَهْواةٍ بحبل وثيق مدلًى من مكان مرتفع يأمن انقطاعه(٥).

* * *

تنبيـــه

قد تكون الاستعارة بلفظين ، نحو ﴿ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾(٦) ، يعنى تلك الأوانى ليست من الزجاج ولا من الفضّة ، بل فى صفاء القارورة وبياض الفضة.

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾(٧) ، فالصبّ كناية عن الدّوام ، والسوط عن الإيلام ، فالمعنى عذّبهم عذاباً دائماً مؤلماً .

* * *

فائدة

أنكر قومٌ الاستعارة بناء على إنكارهم المجاز ، وقومٌ إطلاقها فى القرآن لأنّ فيها

---

(١) آل عمران ٢١ (٢) هود ٨٧ (٣) الدخان ٤٩
(٤) آل عمران ١٠٣ (٥) والقسم الثانى غير تمثيلية. (٦) الإنسان ١٥
(٧) الفجر ١٣

إيهاماً للحاجة ؛ ولأنه لم يرد فى ذلك إذنٌ من الشرع ، وعليه القاضى عبد الوهّاب المالكىّ .

وقال الطرطوسىّ : إن أطلق المسلمون الاستعارة فيه أطلقناها ، وإن امتنعوا امتنعنا ، ويكون هذا من قبيل : « إن الله عالم » ، والعلم هو العقل لا نصفه به لعدم التوقيف . انتهى.

* * *

فائدة ثانية

تقدم أن التشبيه من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها ، واتفق البلغاء على أن الاستعارة أبلغ منه لأنّها مجاز وهو حقيقة ، والمجاز أبلغ ، فإذًا الاستعارة أعلى مراتب الفصاحة ؛ وكذا الكناية أبلغ من التصريح ، والاستعارة أبلغ من الكناية ، كما قال فى عروس الأفراح[1] : إنّه الظاهر ، لأنها كالجامعة بين كناية واستعارة ، ولأنها مجاز قطعاً . وفى الكناية خلاف .

وأبلغ أنواع الاستعارة التمثيلية ، كما يؤخذ من الكشّاف ، ويليها المكنية، صرّح به الطيبىّ لاشتمالها على المجاز العقلىّ ، والترشيحية أبلغ من المجرّدة والمطلقة ، والتخييلية أبلغ من التحقيقيّة والمراد بالأبلغيّة، إفادة زيادة التأكيد والمبالغة فى كمال التشبيه ، لا زيادة فى المعنى ، لا توجد فى غير ذلك .

* * *

خاتمة

من المهمّ تحرير الفرق بين الاستعارة والتشبيه المحذوف الأداة ، نحو « زيد أسد » .
قال الزمخشرىّ فى قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾[2] : فإن قلتَ : هل يسمّى ما فى الآية استعارة ؟ قلت : مختلَف فيه ، والمحقّقون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة، لأن المستعار له مذكور ، وهم المنافقون ؛ وإنّما تطلَق الاستعارة حيث يُطوَى ذكر

---

(١) عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح لأحمد بن على السبكى المتوفى سنة ٧٧٣
(٢) البقرة ١٨

المستعار له ، ويُجعل الكلام خلوًا عنه ، صالحاً لأن يراد المنقول عنه ، والمنقول له لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام ، ومن ثَمّ ترى المفلقين السّحرة يتناسَوْن التّشبيه ، ويضربون عنه صفحا .

وعلّله السّكاكيّ بأن من شرط الاستعارة إمكان حَمل الكلام على الحقيقة فى الظاهر وتناسِي التشبيه ، وزيد أسد لايمكن كونه حقيقةً ، فلا يجوز أن يكون استعارة ، وتابعه صاحب الإيضاح[١] .

قال فى عروس الأفراح : وماقالاه ممنوع ، وليس من شرط الاستعارة صلاحية الكلام لصرفه إلى الحقيقة فى الظاهر . قال : بل لو عكس ذلك ، وقيل : لابدّ من عدم صلاحيته لكان أقرب ، لأن الاستعارة مجاز لابدّ له من قرينة ؛ فإن لم تكن قرينة امتنع صرفُه إلى الاستعارة ، وصرفناه إلى حقيقته ؛ وإنما نصرفه إلى الاستعارة بقرينة إمّا لفظيّة أو معنويّة نحو « زيد أسد » ، فالإخبار به عن زيد قرينةٌ صارفةٌ عن إرادة حقيقته . قال : والذى نختاره فى نحو « زيد أسد » أنه قسمان : تارة يقصَد به التشبيه ، فتكون أداة التشبيه مقدّرة ، وتارة يُقصَد به الاستعارة فلا تكون مقدّرة ، ويكون الأسد مستعملاً فى حقيقته ، وذكر زيد والإخبار عنه بما لايصلح له حقيقة قرينة صارفة إلى الاستعارة ، دالّة عليها ؛ فإن قامت قرينة على حذف الأداة صرنا إليه ، وإن لم تقم فنحن بين إضمار واستعارة ، والاستعارة أوْلى ، فيُصار إليها .

وممّن صرح بهذا الفرق عبد اللطيف البغداديّ فى « قوانين البلاغة »[١] . وكذا قال حازم[٢] : الفرق بينهما أن الاستعارة وإن كان فيها معنى التشبيه ، فتقدير حرف التشبيه لايجوز فيها ، والتشبيه بغير حرف على خلاف ذلك ، لأن تقدير حرف التشبيه واجب فيه .

---

(١) الإيضاح فى المعانى والبيان لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى ، المتوفى سنة ٧٢٩

(٢) قوانين البلاغة لموفق الدين عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩

(٣) هو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى الأنصارى القرطبى ، شيخ البلاغة والأدب ، وصاحب كتاب منهاج البلغاء . توفى سنة ٦٨٤ — بغية الوعاة ١ : ٤٩١

النوع الرابع والخمسون

فى كناياته وتعريضه

هما من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة ، وقد تقدّم أنّ الكناية أبلغ من التصريح .

وعرّفها أهل البيان بأنّها لفظ أريد به لازم معناه .

وقال الطِّيبيّ : ترك التصريح بالشئ إلى مايساويه فى اللزوم ، فينتقل منه إلى الملزوم .

وأنكر وقوعها فى القرآن مَنْ أنكر المجاز فيه، بناء على أنها مجاز ، وقد تقدّم الخلاف فى ذلك .

* * *

وللكناية أسباب :

أحدها : التنبيه على عظم القدرة ، نحو ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [1] كناية عن آدم .

ثانيها : ترك اللفظ إلى ماهو أجمل ، نحو ﴿إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [2] ، فكنّى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب فى ذلك ؛ لأن ترك التصريح بذكر النساء أجملُ منه ؛ ولهذا لم تذكر فى القرآن امرأة باسمها إلا مريم . قال السهيلىّ : وإنما ذكرت مريم باسمها على خلاف عادة الفصحاء لنكتة ، وهو أن الملوك والأشراف لايذكرون حرائرهم فى ملأ ، ولا يبتذلون أسماءهنّ ، بل يكنون عن الزّوجة بالعِرْس والعيال ونحو ذلك ؛ فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهنّ ،ولم يصونوا أسماءهنّ عن الذكر ، فلمّا قالت النصارى فى مريم ماقالوا ، صرّح الله باسمها ؛ ولم يكنْ تأكيداً للعبوديّة التى هى صفة لها وتأكيداً ، لأن عيسى لا أبَ له وإلاّ لنُسب إليه .

ثالثها : أن يكون التصريح ممايستقبح ذكره ، ككناية الله عن الجماع بالملامسة والمباشرة والإفضاء والرّفث والدخول، والسّر فى قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [3] .

---

(١) الأعراف ١٨٩ (٢) ص ٢٣ (٣) البقرة ٢٣٥

والغِشيان فى قوله : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾(١)، أخرج ابنُ أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : المباشرة الجماع ، ولـكنّ الله يكنِي .

وأخرج عنه قال: إنّ الله كريم يكنِي ماشاء ، وإنّ الرفث هو الجماع ،وكنَى عن طلبه بالمراودة فى قوله : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾(٢)، وعنه أوْ عن المعانقة باللباس فى قوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾(٣)، وبالحرْث فى قوله : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾(٤) .

وكَنَى عن البول ونحوه بالغائط فى قوله : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾(٥)، وأصله المكان المطمئنّ من الأرض .

وكَنَى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام فى قوله فى مريم وابنها : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾(٦) .

وكَنَى عن الأستاه بالأدبار فى قوله : ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾(٧)، أخرج بن أبى حاتم عن مجاهد فى هذه الآية ، قال : يعنى أستاههم ، ولـكن الله يكنِي .

وأورد على ذلك التصريح بالفرج فى قوله : ﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾(٨) . وأجيب : بأن المراد به فَرْج القميص ، والتعبير به من ألطف الكنايات وأحسنها ، أى لم يعلق ثوبها بريبة ، فهى طاهرة الثوب ، كما يقال : نقىّ الثوب وعفيف الذيل ، كناية عن العفة . ومنه : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾(٩) وكيف يُظنّ أن نفخ جبريل وقع فى فرجها ، وإنما نفخ فى جيب درعها .

ونظيره أيضاً: ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾(١٠) .

---

(١) الأعراف ١٨٩ (٢) يوسف ٢٣ (٣) البقرة ١٨٧
(٤) البقرة ٢٢٣ (٥) المائدة ٦ (٦) المائدة ٧٥
(٧) محمد ٢٧ (٨) التحريم ١٢ (٩) المدثر ٤
(١٠) الممتحنة ١٢

قلت : وعلى هذا فى الآية كناية عن كناية ، ونظيره ماتقدّم من مجاز المجاز .

رابعها : قصد البلاغة والمبالغة ، نحو : ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[1] ، كنَى عن النساء بأنهنّ يُنشَّأن فى الترفه والتزيّن الشاغل عن النظر فى الأمور ودقيق المعانى ، ولو أتى بلفظ « النساء » لم يشعر بذلك ، والمراد نفى ذلك عن الملائكة ، وقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[2] ، كناية عن سَعَة جوده وكرمه جداً .

خامسها : قصد الاختصار ، كالكناية عن ألفاظ متعدّدة بلفظ « فعل » نحو : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[3] ، ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾[4] ، أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله .

سادسها : التنبيه على مصيره ، نحو ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾[5] ، أى جهنّمِى مصيره إلى اللهب ، ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ ﴾[5] ، أى نمّامة مصيرها إلى أن تكون حطباً لجهنم ، فى جيدها غُلّ .

قال بدر الدين بن مالك فى المصباح[6] : إنّما يُعدَل عن التصريح إلى الكناية لنكتة ، كالإيضاح ، أو بيان حال الموصوف ، أو مقدار حاله ، أو القصد إلى المدح أو الذمّ ، أو الاختصار ، أو السّتر ، أو الصيانة ، أو التعمية والإلغاز ، أو التعبير عن الصعب بالسهل ، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن .

واستنبط الزمخشرىّ نوعاً من الكناية غريباً ، وهو أن تعمِد إلى جملة معناها على خلاف الظاهر ، فتأخذ الخلاصة ، من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة والمجاز ، فتعبّر بها عن المقصود ، كما تقول فى نحو ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[7] : إنه كناية عن المُلك ، فإنّ الاستواء على السرير لا يحصل إلاّ مع الملك ، فجُعل كناية عنه ، وكذا قوله :

---

(١) الزخرف ١٨ (٢) المائدة ٦٤ (٣) المائدة ٧٩
(٤) البقرة ٢٤ (٥) تبت ١ – ٥ (٦) المصباح فى تلخيص المفتاح لمحمد بن محمد بن عبدالله بن مالك بدر الدين ، الملقب بابن الناظم ، أحد أئمة النحو والمعانى والبيان والبديع ، توفى سنة ٦٨٦ . طبقات الشافعية ٥ : ٤١
(٧) طه ٥ .

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [١] ، كناية عن عظمته وجلالته، من غير ذهاب بالقبض واليمين إلى جهتين : حقيقة ومجاز .

* * *

تذنيب

من أنواع البديع التي تشبه الكناية الإرداف ؛ وهو أن يريد المتكلم معنى ،ولا يعبّر عنه بلفظه الموضوع له ، ولا بدلالة الإشارة ، بل بلفظ يُرادفه ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [٢] ،والأصل:«وهَلَك مَن قضى الله هلاكه،ونجا مَنْ قضى الله نجاته» .وعُدل عن ذلك إلى لفظ الإرداف لما فيه من الإيجاز، والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمرِ آمرٍ مطاعٍ ، وقضاء مَنْ لا يُرَدّ قضاؤه ، والأمر يستلزم آمراً ،فقضاؤه يدلّ على قدرة الآمر به وقهره ، وأن الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضّان على طاعة الآمر ؛ ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاصّ .

وكذا قوله : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ [٢] ، حقيقة ذلك « جلستْ » فعُدل عن اللفظ الخاصّ بالمعنى إلى مرادفه ، لما فى الاستواء من الإشعار بجلوس متمكّن لا زَيْغ فيه ولا ميل ؛ وهذا لا يحصل من لفظ «الجلوس».

وكذا : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ [٣] ، الأصل « عفيفات » ، وعُدل عنه للدلالة على أنهنّ مع العفة لا تطمح أعينهنّ إلى غير أزواجهنّ ، ولا يشتهين غيرهم . ولا يؤخذ ذلك من لفظ العفّة .

قال بعضهم : والفرق بين الكناية والإرداف ، أنّ الكناية انتقال من لازم إلى ملزوم ، والإرداف من مذكور إلى متروك .

ومن أمثلته أيضاً : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [٤]، عدل فى الجملة الأولى عن قوله « بالسوءى » ، مع أن فيه مطابقة للجملة

---

(١) الزمر ٦٧ (٢) هود ٤٤ (٣) الرحمن ٥٦
(٤) النجم ٣١

الثانية إلى « بما عملوا » ، تأدّباً أن يُضاف السّوء إلى الله تعالى .

* * *

فصل

للنّاس فى الفرق بين الكناية والتعريض عبارات متقاربة ، فقال الزمخشرىّ : الكناية ذكرُ الشىء بغير لفظه الموضوع له ، والتعريض أن تذكر شيئاً تدلّ به على شىء لم تذكره .

وقال ابن الأثير : الكناية ما دلّ على معنًى يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، بوصفٍ جامع بينهما ، والتّعريض اللفظ الدالّ على معنى لا من جهة الوضع الحقيقىّ أو المجازىّ ، كقول من يتوقّع صلةً : والله إنّى محتاج ؛ فإنه تعريض بالطلب ، مع أنه لم يوضع له حقيقةً ولا مجازاً ، وإنما فهِم من عُرض اللفظ ، أى جانبه .

وقال السُّبكىّ فى كتاب الإغريض فى الفرق بين الكناية والتعريض[1] : الكناية لفظ استُعمل فى معناه مراداً منه لازم المعنى ، فهى بحسب استعمال اللفظ فى المعنى حقيقة ، والتجوّز فى إرادة إفادة ما لم يوضع له. وقد لا يراد منها المعنى ، بل يعبّر بالملزوم عن اللاّزم ، وهى حينئذ مجاز ، ومن أمثلته : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾[2] ، فإنه لم يقصد إفادة ذلك لأنه معلوم ، بل إفادة لازمِه ، وهو أنهم يردُونها ويجدون حرّها إن لم يجاهدوا . وأمّا التعريض فهو لفظ استُعمل فى معناه للتلويح بغيره ، نحو ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾[3] ، نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتّخذة آلهة ، كأنه غضب أن تعبَد الصغار معه ، تلويحاً لعابدها بأنها لا تصلح أن تكون آلهةً ، لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل ، والإله لا يكون عاجزاً ، فهو حقيقة أبداً .

وقال السكاكىّ : التعريض ما سيق لأجل موصوف غير مذكورٍ ؛ ومنه أن يخاطب

---

(١) كتاب الإغريض، لتقى الدين على بن عبد الكافى السبكى المتوفى سنة ٧٥٦ ، ذكره صاحب كشف الظنون

(٢) التوبة ٨١

(٣) الأنبياء ٦٣

واحدٌ ويراد غيرُه ، وسُمِّيَ به لأنه أُمِيلَ الكلام إلى جانبٍ مشاراً به إلى آخر ، يقال : نظر إليه بعُرْض وجهه ، أي جانبه .

قال الطِّيبيّ : وذلك يُفعل إمّا لتنويه جانب الموصوف ، ومنه : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[١] أي محمداً صلى الله عليه وسلم إعلاءً لقدره ، أي أنه العلَم الذي لا يشتبه .

وإمّا لتلطف به واحتراز عن المخاشنة، نحو ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾[٢]، أي ومالكم لا تعبدون ! بدليل قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾،[٢] وكذا قوله: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾[٣]، ووجه حسنِه إسماع مَنْ يقصد خطابه الحقَّ على وجه يمنع غضبَه ، إذ لم يصرّح بنسبته للباطل والإعانة على قبوله إذ لم يُرِدْ له إلاّ ما أراده لنفسه .

وإمّا لاستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم ، ومنه ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[٤] ، خوطب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأريد غيره، لاستحالة الشرك عليه شرعاً .

وإمّا للذم ، نحو ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[٥] ، فإنه تعريض بذمّ الكفار وأنهم في حكم البهائم الذين لا يتذكّرون .

وإمّا للإهانة والتوبيخ ، نحو ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[٦].

وقال السبكيّ : التعريض قسمان :

قسم يراد به معناه الحقيقيّ ويشار به إلى المعنى الآخر المقصود كما تقدّم .

وقسم لا يُراد ، بل يُضرب مثلا للمعنى الذي هو مقصود التعريض، كقول إبراهيم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾[٧] .

---

(١) البقرة ٢٥٣ — (٢) يس ٢٢ — (٣) يس ٢٣
(٤) الزمر ٦٥ — (٥) الرعد ١٩ — (٦) التكوير ٨ ، ٩
(٧) الأنبياء ٦٣

النوع الخامس والخمسون

في الحصر والاختصاص

أمّا الحصر ـ ويقال له القصر ـ فهو تخصيص أمرٍ بآخرَ بطريق مخصوص . ويقال أيضاً : إثبات الحكم للمذكور ونفيه عمّا عداه .

وينقسم إلى قصر الموصوفِ على الصفة ، وقصر الصّفة على الموصوف ؛ وكلٌّ منهما إمّا حقيقيّ وإمّا مجازيّ .

مثال قصر الموصوف على الصفة حقيقيّاً نحو « مازيد إلاّ كاتب » ، أي لاصفة له غيرها ، وهو عزيز لايكاد يُوجد لتعذّر الإحاطة بصفات الشئ حتى يمكن إثبات شئ منها ونفيُ ماعداها بالكليّة ، وعلى عدم تعذّرها يبعد أن تكون للذّات صفة واحدة ، ليس لها غيرها ؛ ولذا لم يقع في التنزيل .

ومثاله مجازيّاً : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾[1] ، أي أنه مقصور على الرسالة ، لا يتعدّاها إلى التبرّي من الموت الذي استعظموه ، الذي هو من شأن الإله .

ومثال قصر الصفة على الموصوف حقيقيّاً ، ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[2] .

ومثاله مجازيّاً ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ... ﴾[3] الآية ، كما قال الشافعي فيما تقدّم نقله عنه في أسباب النزول : إنّ الكفار لمّا كانوا يُحلّونَ الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ لغير الله به ، وكانوا يحرّمون كثيراً من المباحات ؛ وكانت سجيّتهم تخالف وضعَ الشرع ، ونزلت الآية مسبوقةً بذكر شُبَهِهم في البَحيرة والسّائبة والوَصيلة والحامِي ؛ وكان الغرض إبانة كذبهم ؛ فكأنه قال : لاحرامَ إلاّ ماأحللتموه ؛ والغرض الردّ عليهم والمضادّة ، لا الحصر الحقيقيّ ؛ وقد تقدم بأبسط من هذا .

---

(١) آل عمران ١٤٤ (٢) محمد ١٩ (٣) الأنعام ١٤٥

وينقسم الحصر باعتبارٍ آخر إلى ثلاثة أقسام : قصر إفراد ، وقصر قلب ، وقصر تعيين .

فالأول يخاطَب به من يعتقد الشَّرِكة ، نحو : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[1]، خُوطب به مَن يعتقد اشتراك الله والأصنام فى الألوهية .

والثانى : يخاطَب به مَنْ يعتقد إثبات الحكم لغير من أثبته المتكلم له ، نحو: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾[2]، خوطب به نمروذ ، الذى اعتقد أنه هو المحيِي المميت دون الله، ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾[3]، خوطب به من اعتقد من المنافقين أن المؤمنين سفهاء دونهم ، ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾[4]، خوطب به مَنْ يعتقد من اليهود اختصاص بعثته بالعرب .

والثالث : يخاطَب به مَن تساوَى عنده الأمران ، فلم يحكم بإثبات الصفة لواحد بعينه، ولا لواحد بإحدى الصفتين بعينها .

* * *

فصـــل

طرق الحصر كثيرة :

أحدها: النفى والاستثناء، سواء كان النفى بلا أو ما أو غيرهما ، والاستثناء بإلاّ، أو غير ، نحو ﴿ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[5] ، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[6] ، ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾[7] . ووجْه إفادتِه الحصر أن الاستثناء المفرّغ لابدّ أن يتوجّه النفيُ فيه إلى مقدّر وهو مستثنى منه ؛ لأن الاستثناء إخراج ، فيحتاج إلى مُخرَج منه ، والمراد التقدير المعنوىّ لا الصناعىّ ، ولابدّ أن يكون عامًّا لأن الإخراج لا يكون إلاّ مِنْ عامّ ، ولا بدّ أن يكون مناسباً للمستثنى فى جنسه ؛ مثل ما قام إلا زيد ؛ أى أحد، وما أكلت إلا تمراً؛ أى مأكولا . ولابدّ أن يوافقه فى صفتِه أى إعرابه، وحينئذ يجب القصر إذا

---

(١) النحل ٥١ — (٢) البقرة ٢٥٨ — (٣) البقرة ١٣
(٤) النساء ٧٩ — (٥) الصافات ٣٥ — (٦) آل عمران ٦٢
(٧) المائدة ١١٧

أوجِبَ منه شيء بإلاّ ضرورة ببقاء ما عداه على صفة الانتفاء.

وأصل استعمال هـذا الطريق أن يكون المخاطَب جاهلاً بالحكم ؛ وقد يخرج عن ذلك فينزَّل المعلوم منزلة المجهول لاعتبار مناسب ، نحو ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾(١) ؛ فإنه خطاب للصحابة، وهم لم يكونوا يجهلون رسالة النبىّ صلى الله عليه عليه وسلم ؛ لأنه نزّل استعظامهم له عن الموت منزلة مَنْ يجهل رسالته ، لأن كلَّ رسول فلا بدّ من موته ؛ فمن استبعد موته فكأنه استبعد رسالته.

الثانى : إنّما ، الجمهور على أنها للحصر فقيل بالمنطوق ، وقيل بالمفهوم . وأنكر قوم أفادتها إياه ، منهم أبو حيّان. واستدلّ مثبتوه بأمور :

منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾(٢) بالنَّصب ؛ فإنّ معناه « ماحرّم عليكم إلاّ الميتة » ؛ لأنه المطابق فى المعنى لقراءة الرّفع : فإنَّها للقصر ، فكذا قراءة النصب ، والأصل استواء معنى القراءتين .

ومنها أن « إنّ » للإثبات و« ما » للنفى، فلابدّ أن يحصل القصر ، للجمع بين النّفى والإثبات ؛ لكن تُعُقِّب بأن « ما » زائدة كافة ، لا نافية .

ومنها أنَ « إنّ » للتأكيد و « ما » كذلك ، فاجتمع تأكيدان ، فأفادا الحصر. قاله السكّاكىّ ؛ وتُعُقِّب بأنه لو كان اجتماع تأكيدين يفيد الحصر لأفاده نحو « إنّ زيداً لقائم » . وأجيب بأنّ مراده :لايجتمع حرفا تأكيد متواليان إلا للحصر .

ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾(٣)، ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾(٤)، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾(٥)، فإنه إنما تحصل مطابقة الجواب إذا كانت إنّما للحصر

---

(١) آل عمران ١٤٤
(٢) البقرة ١٧٣ ، وانظر تفسير القرطبي ٢: ٢١٦
(٣) الأحقاف ٢٣
(٤) هود ٣٣
(٥) الأعراف ١٨٧

ليكون معناها « لا آتيكم به إنما يأتي به الله ، ولا أعلمها إنما يعلمها الله » ، وكذا قوله: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾(١)، ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾(٢)، ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾(٣)، ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾(٤). ولا يستقيم المعنى فى هذه الآيات ونحوها إلا بالحصر.

وأحسن ما تُستعمل « إنما » فى مواقع التعريض ، نحو ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(٥).

الثالث : أنّما ، بالفتح ، عدّها من طرق الحصر الزمخشريّ والبيضاويّ ، فقالا فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾(٦): إنّما لقصر الحكم على شيء ، أو لقصر الشيء على حكم، نحو « إنما زيدٌ قائم » و« إنما يقوم زيد ». وقد اجتمع الأمران فى هذه الآية، لأن « إنما يوحى إلىّ » مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد، و« إنما الهكم » بمنزلة إنما زيد قائم، وفائدة اجتماعهما الدّلالة على أن الوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مقصورٌ على استئثار الله بالواحدانيه(٧).

وصرّح التنوخيّ فى الأقصى القريب(٨) ، بكونها للحصر ، فقال : كلما أوجب أن « إنّما » بالكسر للحصر أوجب أن « أنّما » بالفتح للحصر، لأنها فرع عنها، وما ثبت للأصل ثبت للفرع ، مالم يثبت مانع منه ، والأصل عدمه .

وردّ أبو حيّان على الزمخشريّ ما زعمه بأنّه يلزمه انحصار الوحى فى الوحدانيّة ، وأجيب بأنه حصر مجازيّ باعتبار المقام .

الرابع : العطف بلا أو بل ، ذكره أهل البيان ، ولم يحكوا فيه خلافاً . ونازع فيه الشيخ بهاء الدين فى عروس الأفراح ، فقال: أيّ قصر فى العطف بلا ، إنما فيه نفى وإثبات، فقولك : زيد شاعر لا كاتب، لا تعرض فيه لنفى صفة ثالثة ، والقصر إنّما يكون بنفى

---

(١) الشورى ٤١ ، ٤٢ (٢) التوبة ٩١-٩٣ (٣) الأعراف ٢٠٣
(٤) آل عمران ٢٠ (٥) الرعد ١٩ (٦) الانبياء ١٠٨
(٧) الكشاف ٣ : ١٠٩ (٨) كذا ورد اسمه فى الأصول والبرهان ٢ : ٣٤٦ ، وسماه صاحب كشف الظنون « أقصى القرب فى صناعة الأدب » للشيخ زين الدين محمد بن محمد التنوخى ، المتوفى سنة ٧٨

جميع الصفات غير المثبَت حقيقة أو مجازاً ، وليس هو خاصاً بنفى الصفة التى يعتقدها المخاطب ، وأما العطف ببل ، فأبعد منه ، لأنه لا يستمرّ فيها النفى والإثبات .

الخامس : تقديم المعمول، نحو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[1] ، ﴿ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾[2] ، وخالف فيه قوم ، وسيأتى بسط الكلام فيه قريباً .

السادس : ضمير الفصل ، نحو ﴿ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيّ ﴾[3] ، أى لا غيره ؛ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقّ ﴾[5] ، ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[6] . وممن ذكر أنه للحصر البيانيون فى بحث المسند إليه . واستدلّ له السهيلىّ بأنه أُتِىَ به فى كل موضع ادّعى فيه نسبة ذلك المعنى إلى غير الله ، ولم يؤتَ به حيث لم يدّع ، وذلك فى قوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ... ﴾[7] ، إلى آخر الآيات ، فلم يؤتَ به فى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ ﴾[8] ، ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ ﴾[9] ، ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولَى ﴾[10] ، لأن ذلك لم يدّع لغير الله ، وأُتِىَ به فى الباقى لادعائه لغيره. قال فى عروس الأفراح: وقد استنبطت دلالته على الحصر من قوله : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ... ﴾[11] ، لأنّه لو لم يكن للحصر لما حسن ، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم ؛ وإنّما الذى حصل بتوفيته أنه لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى ، ومن قوله : ﴿ لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[12] ، فإنه ذكر لتبيين عدم الإستواء ؛ وذلك لا يحسن إلاّ بأن يكون الضمير للاختصاص .

السابع : تقديم المسنَد إليه ، على ماقال الشيخ عبد القاهر : قد يقدّم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلىّ. والحاصل على رأيه أن له أحوالا :

---

(١) فاتحة الكتاب ٤ (٢) آل عمران ١٥٨ (٣) الشورى ٩
(٤) البقرة ٥ (٥) آل عمران ٦٢ (٦) الكوثر ٣
(٧) النجم ٤٣ (٨) النجم ٤٥ (٩) النجم ٤٧
(١٠) النجم ٥٠ (١١) المائدة ١١٧ (١٢) الحشر ٢٠

أحدها : أن يكون المسنَد إليه معرفة والمسنَد مثبَتاً ، فيأتى للتخصيص ، نحو أنا قمت ، وأنا سعيت فى حاجتك ، فإن قُصد به قصر الإفراد أكِّدَ بنحو « وحدى » ، أو قصر القلب أكّد بنحو « لاغيرى » ، ومنه : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾[١] ، فإن ماقبله من قوله : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾[١] ، ولفظ « بل » المشعر بالإضراب يقضى بأن المراد « بل أنتم لاغيركم » ، فإن المقصود نفى فرحه هو بالهدية لا إثبات الفرح لهم بهديتهم . قاله فى عروس الأفراح . قال : وكذا قوله : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾[٢] ، أى لانعلمهم إلاّ نحن. وقد يأتى للتقوية والتأكيد دون التخصيص، قال الشيخ بهاء الدين : ولا يتميّز ذلك إلاّ بمايقتضيه الحال وسياق الكلام .

ثانيها : أن يكون المسنَد منفيًّا ، نحو « أنت لاتكذب » ، فإنه أبلغ فى نفى الكذب من « لاتكذب » ومن « لاتكذب أنت » . وقد يفيد التخصيص ، ومنه: ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾[٣] .

ثالثها : أن يكون المسنَد إليه نكرة مثبتاً ، نحو « رجلٌ جاءنى » ، فيفيدالتخصيص إما بالجنس أى لاامرأة ، أو الوحدة أى لارجلان .

رابعها : أن يَلِيَ المسند إليه حرف النفى ، فيفيده ، نحو « ما أنا قلت هذا » ، أى لم أقله مع أنّ غيرى قاله ومنه ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[٤] ، أى العزيز علينا رهطك لاأنت ، ولذا قال : ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾[٤] .

هذا حاصل رأى الشيخ عبدالقاهر ، ووافقه السكاكىّ ، وزاد شروطاً وتفاصيل بسطناها فى شرح ألفية المعانى .

---

(١) النمل ٣٦ (٢) التوبة ١٠١ (٣) القصص ٦٦
(٤) هود ٩١ ، ٩٢

الثامن : تقديم المسند ، ذكر ابن الأثير وابن النَّفيس وغيرهما أنّ تقديم الخبر على المبتدأ يفيد الاختصاص . وردّه صاحب الفَلَك الدائر ؛ بأنه لم يقل به أحد ، وهو ممنوع ، فقد صرّح السكاكىّ وغيره بأن تقديم ما رتبته التأخير يفيده ، ومثّلوه بنحو « تميمىٌّ أنا » .

التاسع : ذكْر المسند إليه ، ذكر السكاكىّ أنه قد يُذكَر ليفيد التخصيص . وتعقّبه صاحب الإيضاح . وصرّح الزمخشرىّ : بأنه أفاد الاختصاص فى قوله : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾[1] فى سورة الرّعد ، وفى قوله : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾[2] ، وفى قوله : ﴿ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴾[3] . ويُحتمل أنه أراد أن تقديمه أفاده ، فيكون من أمثلة الطريق السابع .

العاشر : تعريف الجزأين ، ذكر الإمام فخر الدين فى نهاية الإيجاز[4] ؛ أنه يفيد الحصر حقيقة أو مبالغة ، نحو : « المنطلق زيد » ، ومنه فى القرآن فيما ذكر الزَّمْلَكانىّ فى أسرار التنزيل : ﴿ الحمدُ لِلهِ ﴾[5] قال : إنه يفيد الحصر ، كما فى ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[5] ، أى ﴿ الحمدُ لِلهِ ﴾ لا لغيره .

الحادى عشر : نحو « جاء زيد نفسه » ، نقل بعض شرّاح التلخيص عن بعضهم أنه يفيد الحصر .

الثانى عشر : نحو « إنَّ زيداً لقائم » ، نقله المذكور أيضاً .

الثالث عشر : نحو « قائم » فى جواب « زيد إمّا قائم أو قاعد » . ذكره الطيبىّ فى شرح التبيان .

---

(١) الرعد ٢٦ (٢) الزمر ٢٣ (٣) الأحزاب ٤

(٤) نهاية الإيجاز فى علم البيان لفخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ ، ذكره صاحب كشف الظنون وقال : إنه هذب فيه كتابى عبدالقاهر .

(٥) فاتحة الكتاب ١ ، ٤

الرابع عشر : قلبُ بعض حروف الـكلمة ، فإنه يفيد الحصر على مانقله فى الـكشّاف فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾[١] ، قال : القلب للاختصاص بالنسبة إلى لفظِ « الطاغوت » ، لأن وزنه على قولٍ « فعَلوت » من الطغيان ، كملَكوت ورَحَموت ، قُلِبَ بتقديم اللام على العين ، فوزنه « فَلَعوت » ففيه مبالغات التسمية بالمصدر، والبناء بناء مبالغة ، والقلب وهو للاختصاص إذ لا يطلق على غير الشيطان .

* * *

تنبيـــــه

كاد أهل البيان يطبِقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر ، سواء كان مفعولا أو ظرفاً أو مجروراً ، ولهذا قيل فى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٢] : معناه « نخصّك بالعبادة والاستعانة » ، وفى ﴿ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٣] : معناه « إليه لا إلى غيره » ، وفى ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[٤] أخّرت الصلة فى الشهادة الأولى ، وقدّمت فى الثانية، لأن الغرض فى الأوّل إثبات شهادتهم ، وفى الثانى إثبات اختصاصهم بشهادة النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم .

وخالف فى ذلك ابن الحاجب فقال فى شرح المفصّل : الاختصاص الذى يتوهّمه كثير من الناس من تقديم المعمول وهْم ، واستدلّ على ذلك بقوله: ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾[٥] ، ثم قال : ﴿ بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ ﴾[٦] . وردّ هذا الاستدلال بأن « مخلصا له الدين » أغنى عن إفادة الحصر فى الآية الأولى، ولو لم يكن فما المانع من ذكر المحصور فى محل بغير صيغة الحصر، كما قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾[٧] ، وقال: ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾[٨] ، بل قوله: ﴿ بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ ﴾ من أقوى أدلّة الاختصاص ، فإنّ قبلها ﴿ لئن أشركت ليَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[٩] ، فلو لم يكن للاختصاص وكان معناها « اعبد الله » لما حصل الإضراب الذى هو معنى « بل » .

---

(١) الزمر ١٧ — (٢) فاتحة الكتاب ٤ — (٣) آل عمران ١٥٨
(٤) البقرة ١٤٣ — (٥) الزمر ٢ — (٦) الزمر ٦٦
(٧) الحج ٧٧ — (٨) يوسف ٤٠ — (٩) الزمر ٦٥

واعترض أبو حيّان على مدّعى الاختصاص بنحو : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ ﴾ (١) . وأجيب بأنه لمّا أشرك بالله غيرَه كأنه لم يعبد الله ، وكان أمرهم بالشرك كأنه أمرٌ بتخصيص غير الله بالعبادة . وردّ صاحب الفلك الدائر الاختصاص بقوله : ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ (٢)، وهو من أقوى ماردّ به . وأجيب بأنه لايدّعَى فيه اللزوم بل الغلبة وقد يخرج الشيءُ عن الغالب .

قال الشيخ بهاء الدين : وقد اجتمع الاختصاص وعدمه فى آية واحدة ، وهى : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ (٣)، فإنّ التقديم فى الأوّل قطعاً ليس للاختصاص وفى « إيّاه » قطعاً للاختصاص .

وقال والده الشيخ تقى الدين فى كتاب الاقتناص فى الفرق بين الحصر والاختصاص: اشتهر كلام الناس فى أنّ تقديم المعمول يفيد الاختصاص ، ومن الناسِ من ينكر ذلك ويقول : إنّما يفيد الاهتمام ، وقد قال سيبويه فى كتابه : وهم يقدّمون ماهم به أعنى. والبيانيون على إفادته الاختصاص ، ويفهم كثير من الناس من الاختصاص الحصر، وليس كذلك ، وإنّما الاختصاص شىءٌ والحصر شىءٌ آخر ، والفضلاء لم يذكروا فى ذلك لفظة « الحصر » ؛ وإنّما عبّروا بالاختصاص ؛ والفرق بينهما أن الحصْر نفى غير المذكور وإثبات المذكور، والاختصاص قصد الخاص من جهة خصوصه ، وبيان ذلك أن الاختصاص افتعال من الخصوص ، والخصوص مركّب من شيئين : أحدهما عام مشترك بين شيئين أو أشياء ، والثانى معنى منضمٌّ إليه يفصله عن غيره ، كضرب زيد، فإنه أخصّ من مطلق الضرب ، فإذا قلت : ضربت زيداً أخبرت بضرب عامّ وقع منك على شخص خاصّ ، فصار ذلك الضرب المخبَر به خاصاً لما انضم إليه منك ومن زيد . وهذه المعانى الثلاثة ـ أعنى مطلق

---

(١) الزمر ٦٤ (٢) الأنعام ٨٤ (٣) الأنعام ٤٠ ، ٤١

الضرب ، وكونه واقعاً منك، وكونه واقعاً على زيد — قد يكون قصد المتكلم لها ثلاثتها على السّواء. وقد يترجّح قصده لبعضها على بعض ، ويعرف ذلك بما ابتدأ به كلامه، فإن الابتداء بالشيء يدلّ على الاهتمام به ، وأنه هو الأرجح فى غرض المتكلم ؛ فإذا قلت: زيداً ضربت علم أن خصوص الضرب على زيد هو المقصود . ولا شك أن كلّ مركب من خاص وعام له جهتان ، فقد يقصد من جهة عمومه ، وقد يقصد من جهة خصوصه ، والثانى هو الاختصاص ، وأنه هو الأهمّ عند المتكلم ، وهو الذى قصد إفادته السامع من غير تعرّض ولا قصد لغيره بإثبات ولا نفى ، ففى الحصر معنى زائد عليه ، وهو نفى ما عدا المذكور . وإنّما جاء هذا فى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[١] ، للعلم بأنّ قائليه لا يعبدون غير الله تعالى ؛ ولذا لم يطّرد فى بقية الآيات ، فإن قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ﴾[٢] ، لو جُعل فى معنى «ما يَبْغُون إلا غير دين الله » وهمزة الإنكار داخلة عليه ، لزم أن يكون المنكَر الحصر، لا مجرّد بغيهم غير دين الله، وليس المراد . وكذلك ﴿ آلهة غَيْر الله تريدون ﴾،[٣] المنكر إرادتهم آلهة دون الله من غير حصر . وقد قال الزمخشرىّ فى ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[٤] : فى تقديم «الآخرة» وبناء« يوقنون »على« هُمْ » تعريض بأهل الكتاب وما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة ، على خلاف حقيقته، وأن قولَهُمْ ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه مَنْ آمَنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنَ قَبْلِكَ[٥] .

وهذا الذى قاله الزمخشرىّ فى غاية الحسن ، وقد اعترض عليه بعضهم فقال : تقديم « الآخرة » أفاد أن إيقانهم مقصورٌ على أنه إيقانٌ بالآخرة لا بغيرها ، وهذا الاعتراض من قائله مبنّى على ما فهمه من أن تقديم المعمول يفيد الحصر، وليس كذلك ؛ ثمّ قال المعترض: وتقديم «هُمْ» أفاد أن هذا القصر مختصٌّ بهم،فيكون إيقان غيرهم بالآخرة إيمانا بغيرها حيث قالوا : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّار ﴾[٦]،وهذا منه أيضاً استمرار على ما فى ذهنه من الحصر ،أى أنّ

---

(١) فاتحة الكتاب ٤ — (٢) آل عمران ٨٣ — (٣) الصافات ٨٦
(٤) البقرة ٤ — (٥) الكشاف ١ : ٢٣ — (٦) البقرة ٨٠

المسلمين لا يوقنون إلاّ بالآخرة ، وأهل الكتاب يوقنون بها وبغيرها . وهذا فهمٌ عجيب ألجأه إليه فهمه الحصر، وهو ممنوع . وعلى تقدير تسليمه فالحصر على ثلاثة أقسام :

أحدها : بما وإلاّ ، كقولك : « ماقام إلاّ زيد» صريح فى نفى القيام عمّن غير زيد ، ويقتضى إثباتَ القيام لزيد ، قيل : بالمنطوق ، وقيل : بالمفهوم وهو الصحيح، لكنّه أقوى المفاهيم ؛ لأن « إلا » موضوعة للاستثناء ، وهو الإخراج، فدلالتها على الإخراج بالمنطوق لا بالمفهوم ، ولكنّ الإخراج من عدم القيام ليس هو عين القيام ، بل قد يستلزمه ، فلذلك رجّحنا أنه بالمفهوم ؛ والتبسَ على بعض الناس لذلك فقال : إنه بالمنطوق .

والثانى :الحصر بـ«إنّما» ، وهو قريب من الأوّل فيما نحن فيه، وإن كان جانب الإثبات فيه أظهر ، فكأنه يفيد إثبات قيام زيد، إذا قلت: إنّما قام زيد، بالمنطوق ، ونفيه عن غيره بالمفهوم .

الثالث : الحصر الذى قد يفيده التقديم ؛ وليس هو على تقدير تسليمه مثل الحصرين الأوّلين ، بل هو فى قوّة جملتين : إحداهما ماصُدِّر به الحكم نفياً كان أو إثباتاً وهو المنطوق، والأخرى مافهم من التقديم ،والحصر يقتضى نفى المنطوق فقط،دون مادلّ عليه من المفهوم،لأن المفهوم لامفهوم له ؛ فإذا قلت : أنا لا أكرم إلاّ إياك،أفاد التّعريض بأن غيرك يكرم غيره، ولا يلزم أنك لاتكرمه ، وقد قال تعالى :﴿الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾[1] أفاد أن العفيف قد ينكح غير الزانية ، وهو ساكت عن نكاحه الزانية ، فقال سبحانه وتعالى بعده : ﴿وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهاَ إلاَّ زانٍ أَوْمُشْرِكٌ﴾[1] بياناً لما سكت عنه فى الأولى. فلو قال:« بالآخرة يوقنون »،أفاد بمنطوقه إيقانهم بها ،ومفهومه عند من يزعم أنهم لا يوقنون بغيرها. وليس ذلك مقصوداً بالذّات،والمقصود بالذات قوّة إيقانهم بالآخرة حتى صار غيرها عندهم كالمدحوض ، فهو حصر مجازىّ ، وهو دون قولنا : « يوقنون بالآخرة

---

(١) النور ٣

لا بغيرها »، فاضبط هذا وإيّاك أن تجعل تقديره : « لا يوقنون إلاّ بالآخرة » .

إذا عرفت هذا فتقديم « هُمْ » أفاد أن غيرهم ليس كذلك ؛ فلو جعلنا التقدير : لا يوقنون إلاّ بالآخرة » كان المقصود المهمّ النفى ، فيتسلّط المفهوم عليه ، فيكون المعنى إفادة أنّ غيرهم يوقن بغيرها ؛ كازعم المعترض ، ويُطرح أفهام أنه لايوقن بالآخرة . ولاشكّ أن هذا ليس بمراد ، بل المراد إفهام أن غيرهم لايوقن بالآخرة ؛ فلذلك حافظنَا على أن الغرض الأعظم إثبات الإيقان بالآخرة ، ليتسلّط المفهوم عليه ، وأن المفهوم لايتسلّط على الحصر ، لأن الحصر لم يدّل عليه بجملة واحدة ، مثل « ما » و « إلاّ » ومثل « إنما »، وإنما دلّ عليه بمفهوم مستفادٍ من منطوق ، وليس أحدهما متقيّداً بالآخر ؛ حتى نقول : إنّ المفهوم أفاد نفى الإيقان المحصور ، بل أفاد نفى الإيقان مطلقا عن غيرهم ؛ وهذا كله على تقدير تسليم الحصر ، ونحن نمنع ذلك ، ونقول : إنه اختصاص ، وأن بينهما فرقاً.

انتهى كلام السبكى .

النوع السادس والخمسون

في الإيجاز والإطناب

اعلم أنهما من أعظم أنواع البلاغة ، حتى نقل صاحب سرّ الفصاحة[1] عن بعضهم أنه قال : البلاغة هي الإيجاز والإطناب .

قال صاحب الكشّاف : كما أنّه يجب على البليغ في مظانّ الإجمال أن يُجْمِل ويؤخر ، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يُفصِّل ويُشبِع ، أنشد الجاحظ :

يَرْمُونَ بالخُطَبِ الطِّوال وتارَةً وَحْيَ المُلاحظ خيفة الرُّقَبَاء[2]

واختلف هل بين الإيجاز والإطناب واسطة وهي المساواة أولا وهي داخلة في قسم الإيجاز؟ فالسكّاكيّ[3] وجماعة على الأوّل ، لكنهم جعلوا المساواة غير محمودة ولا مذمومة ، لأنّهم فسّروها بالمتعارَف من كلام أوساط الناس الذين ليسوا في رتبة البلاغة ، وفسّروا الإيجاز بأداء المقصود بأقلّ من عبارة المتعارف ، والإطناب أداؤه بأكثر منها ، لكون المقام خليقاً بالبَسْط . وابن الأثير وجماعة على الثاني ، فقالوا : الإيجاز التعبير عن المراد بلفظ غير زائد والإطناب بلفظ أزيد .

وقال القزوينيّ : الأقربُ أن يقال : إن المقبول من طرق التعبير عن المراد تأدِية أصله ، إمّا بلفظ مساوٍ للأصل المراد ، أو ناقص عنه وافٍ ، أو زائد عليه لفائدة ، والأوّل المساواة ، والثاني الإيجاز ، والثالث الإطناب .

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الخفاجي المتوفى سنه ٤٦٦ هـ

(٢) البيان والتبين ١ : ٤٤ ، والبيت لأبي دواد الإيادي .

(٣) هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن علي الخوارزمي ، صاحب كتاب مفتاح العلوم . توفى سنة ٦٢٦ هـ

واحترز بـ«وافٍ» عن الإخلال ، وبقولنا: لفائدة،عن الحشو والتطويل ، فمنه ثبوت المساواة واسطة ، وأنها من قسم المقبول .

فإن قلت : عدم ذكرك المساواة فى الترجمة لماذا ؟ هل هو لرجحان نفيها أو عدم قبولها ، أو لأمرٍ غير ذلك ؟

قلت : لهما ، ولأمر ثالث، وهو أن المساواة لا تكاد توجد، خصوصاً فى القرآن، وقد مثّل لها فى التلخيص [١] بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [٢]، وفى الإيضاح [٣] بقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ [٤]. وتُعقِّب بأن فى الآية الثانية حذف موصوف « الّذين » ، وفى الأولى إطناب بلفظ « السّيِّئ » لأن المكر لا يكون إلاَّ سيئاً، وإيجاز بالحذف إن كان الاستثناء غير مفرّغ، أى بأحدٍ ، وبالقصر فى الاستثناء وبكونها حاثّة على كف الأذى عن جميع الناس ، محذّرةً عن جميع مايؤدِّى إليه ، وبأن تقديرها يضرّ بصاحبه مضرّة بليغة، فأخرج الكلام مخرج الاستعارة التبعيّة الواقعة على سبيل التمثيليّة ، لأن « يحيق » بمعنى « يحيط » ، فلا يستعمل إلاَّ فى الأجسام .

* * *

تنبيه

الإيجاز والاختصار بمعنى واحد ، كما يؤخذ من المفتاح ، وصرّح به الخطيبىّ .

وقال بعضهم : الاختصار خاصٌّ بحذف الجمل فقط بخلاف الإيجاز : قال الشيخ بهاء الدين : وليس بشئ ، والإطناب ، قيل بمعنى الإسهاب ، والحق أنه أخصّ منه، فإن الإسهاب التطويل لفائدة أو لا لفائدة كما ذكره التنوخى وغيره .

---

(١) هو تلخيص المفتاح للسكاكى ، ومؤلف كتاب التلخيص وهو جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزوينى المعروف بخطيب دمشق . توفى سنه ٧٣٩ (٢) فاطر ٤٣

(٣) هو كتاب الإيضاح فى علوم البلاغة ، للقزوينى أيضا ، جرى فيه على ترتيب التلخيص .

(٤) الأنعام ٦٨

فصل
[فى نوعى الإيجاز]

الإيجاز قسمان : إيجاز قِصَر ، وإيجاز حذف .

[إيجاز القصر]

فالأوّل : هو الوجيز بلفظه ، قال الشيخ بهاء الدين [١] : الكلام القليل إن كان بعضاً من كلام أطول منه فهو إيجاز حذف ، وإن كان كلاماً يعطِى معنًى أطولَ منه ، فهو إيجاز قِصَر .

وقال بعضهم : إيجاز القِصر هو تكثير المعنى بتقليل اللفظ .

وقال آخر : هو أن يكون اللفظ بالنسبة إلى المعنى أقلَّ من القدر المعهود عادة .

وسبب حُسْنِه أنّه يدلّ على التمكّن فى الفصاحة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «أوتيت جوامعَ الكلم» .

وقال الطِّيبىّ فى التبيان [٢] : الإيجاز الخالى من الحذف ثلاثة أقسام :

أحدها: إيجاز القِصَر ، وهوأن يُقصَرَ اللفظ على معناه ، كقوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيمانَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [٣] ، جمع فى أحرفٍ ، العنوانَ والكتاب والحاجة . وقيل فى وصف بليغ : كانتْ ألفاظه قوالبَ معناه .قلت : وهذا رأى من يُدخل المساواة فى الإيجاز .

الثانى : إيجاز التقدير ، وهو أن يقدّر معنًى زائد على المنطوق ، ويسمّى بالتضييق أيضاً ، وبه سمّاه بدر الدّين بن مالك فى المصباح ، لأنّه نقصَ من الكلام ماصار لفظه أضيق من قدرمعناه، نحو﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ [٤]، أى خطاياه غُفرت ، فهى له لا عليه، ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [٥] ، أى للضالّين الصائرين بعد الضلال إلى التقوى .

---

(١)صاحب كتاب عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، وهو بهاء الدين أحمد بن على بن عبد الكافى السبكى الشافعى ، أحد علماء القرن الثامن . توفى سنة ٧٧٣هـ

(٢)التبيان فى البيان لشرف الدين محمد بن عبد الله الطيبى ، المتوفى سنة ٧٤٣

(٣) النمل ٣٠، ٣١ (٤) البقرة ٢٧٥ (٥) البقرة ٢

الثالث : الإيجاز الجامع ، وهو أن يحتوىَ اللفظ على معانٍ متعدّدة ، نحو ﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَالإحْسَانِ ... ﴾ (١) ، الآية ،فإن العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفَيِ الإفراط والتفريط الموَمى به إلى جميع الواجبات فى الاعتقاد والأخلاق والعبودية . والإحسانُ هو الإخلاص فى واجبات العبوديّة لتفسيره فى الحديث بقوله: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » ،أى تعبده مخلصاً فى نيّتك،وواقفاً فى الخضوع آخذاً أهْبة الحذر إلى مالا يُحصى ﴿ وإيتاءِ ذِى القربَى ﴾ هو الزّيادة على الواجب من النوافل ، هذا فى الأوامر . وأمّا النواهى : فبالفحشاء الإشارة إلى القوة الشهوانية وبالمنكر إلى الإفراط الحاصل من آثار الغضبية أو كل محرّم شرعاً ، وبالبغى إلى الاستعلاء الفائض عن الوهمية.

قلت : ولهذا قال ابن مسعود : ما فى القرآن آية أجمع للخير والشرّ من هذه الآية ؛ أخرجه فى المستدرك . وروى البيهقىّ فى شعب الإيمان عن الحسن ، أنه قرأها يوماً ثم وقف فقال : إنّ الله جمع لكم الخير كلّه والشرّ كلَّه فى آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلاّ جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئاً إلا جمعه .

وروى أيضاً عن ابن أبى شهاب فى معنى حديث الشيخين : « بُعثت بجوامع الكلم » ، قال : بلغنى أن جوامع الكلم أنّ الله يجمع له الأمور الكثيرة التى كانت تكتَب فى الكتب قبله فى الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ ... ﴾ (٢) الآية ، فإنها جامعة لمكارم الأخلاق لأنّ فى أخذ العفو التساهل والتسامح فى الحقوق واللّين والرّفق فى الدّعاء إلى الدّين ، وفى الأمر بالمعروف كفّ الأذى وغضّ البصر ، وما شاكلهما من المحرّمات ، وفى الإعراض الصّبر والحلم والتؤدة .

ومن بديع الإيجاز قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ... ﴾ (٣) ، إلى آخرها ، فإنه نهاية التنزيه، وقد تضمّنت الردّ على نحو أربعين فرقة ، كما أفرد ذلك بالتصنيف بهاء الدين بن شداد .

---

(١) النحل ٩٠ (٢) البقرة ١٩٩ (٣) الإخلاص ١

وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾[١]، دلّ بهاتين الكلمتين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام؛ من العشب والشجر والحبّ والثمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح لأنّ النّار من العيدان والملح من الماء.

وقوله: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾[٢] جمع فيه جميع عيوب الخمر من الصّداع وعدم العقل وذهاب المال ونفاد الشراب.

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ...﴾[٣] الآية، أمر فيها ونهى، وأخبر ونادى، ونعت، وسمّى، وأهلك، وأبقى، وأسعد، وأشقى، وقصّ من الأنباء مالو شرح ما اندرج فى هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفّت الأقلام. وقد أفردتْ بلاغة هذه الآية بالتأليف. وفى العجائب للكرمانىّ: أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية، بعد أن فتّشوا جميع كلام العرب والعجم، فلم يجدوا مثلها فى فخامة ألفاظها وحسن نظمها وجَوْدة معانيها فى تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...﴾[٤] الآية، جمع فى هذه اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام: نادت، وكنّتْ، ونبّهت، وسمت، وأمرت، وقصّت، وحذّرت، وخصّت، وعمّت، وأشارت، وعذّرت؛ فالنداء «يا» والكناية «أىّ» والتنبيه «ها»، والتسمية «النمل» والأمر «ادخلوا»، والقصص «مساكنكم»، والتحذير «لا يحطمنكم»، والتخصيص «سليمان»، والتعميم «جنوده» والإشارة «وهم»، والعذر «لا يشعرون» فأدّت خمس حقوق: حق الله، وحق رسوله، وحقها، وحقّ رعيّتها، وحق جنود سليمان.

وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾[٥] الآية جمع فيها

---

(١) النازعات ٣١ (٢) الواقعة ١٩ (٣) هود ٤٤
(٤) النمل ١٨ (٥) الأعراف ٣١

أصول الكلام : النداء ، والعموم ، والخصوص ، والأمر ، والإباحة ، والنهى ، والخبر .

وقال بعضهم : جمع الله الحكمة فى شطر آية ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ... ﴾[2] الآية ، قال ابن العربى : هى من أعظم آى فى القرآن فصاحة ، إذ فيها أمران ونهيان وخبران وبشارتان .

وقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[3] ، قال ابن أبى الأصبع : المعنى : صرّح بجميع ما أوحِىَ إليك ، وبلّغْ كل ماأُمِرْت ببيانه ، وإن شق بعض ذلك على بعض القلوب فانصدعت ، والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصريح فى القلوب ، فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبّض والانبساط ، ويلوح عليهامن علامات الإنكار والاستبشار ، كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة ؛ فانظر إلى جليل هذه الاستعارة ، وعظم إيجازها وماانطوت عليه من المعانى الكثيرة ! وقد حُكِىَ أن بعض الأعراب لمّا سمع هذه الآية سجد وقال : سجدتُ لفصاحة هذا الكلام !

وقوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾[4] ، قال بعضهم : جمع بهاتين اللفظتين مالو اجتمع الخلق كلهم على وصف مافيها على التفصيل لم يخرجوا عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[5] ، فإن معناه كثير ولفظه قليل ، لأن معناه أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتل كان ذلك داعياً إلى ألاّ يُقدمَ على القتل ، فارتفع بالقتل الذى هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ، وكان ارتفاع القتل حياة لهم . وقد فُضِّلَتْ هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب فى هذا المعنى ، وهو قولهم : « القتل أنفى للقتل » ، بعشرين وجهاً أو أكثر ، وقد أشار ابن الأثير إلى إنكار هذا التفضيل وقال : لاتشبيه بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك .

---

(١) الأعراف ٣١ (٢) القصص ٧ (٣) الحجر ٩٤
(٤) الزخرف ٧١ (٥) البقرة ١٧٩

الأول : أنّ ما يُناظره من كلامهم ، وهو قوله : « القصاص حياة » ، أقلّ حروفاً ، فإنّ حروفه عشرة ، وحروف « القتل أنفى للقتل » أربعة عشر .

الثانى : أنّ نفى القتل لا يستلزم الحياة ، والآية ناصّة على ثبوتها التى هى الغرض المطلوب منه .

الثالث : أن تنكير « حياة » يفيد تعظيما ، فيدلّ على أنّ فى القصاص حياة متطاولة ، كقوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [1] ، ولا كذلك المَثَل ، فإن اللام فيه للجنس ، ولذا فسّروا الحياة فيها بالبقاء .

الرابع : أنّ الآية فيه مطّردة بخلاف المَثَل ؛ فإنه ليس كلّ قتل أنفى للقتل ، بل قد يكون أدعى له ، وهو القتل ظلماً ، وإنما ينفيه قتلٌ خاصٌّ وهو القصاص ، ففيه حياة أبداً .

الخامس : أن الآية خالية من تكرار لفظ « القتل » الواقع فى المَثَل ، والخالى من التكرار أفضلُ من المشتمِل عليه ، وإن لم يكن مخلاً بالفصاحة .

السادس : أنّ الآية مستغنيةٌ عن تقدير محذوف ، بخلاف قولهم ؛ فإن فيه حذف « من » التى بعد أفعل التفضيل — وما بعدها ، وحذف « قصاصاً » مع القتل الأوّل ، « وظلماً » مع القتل الثانى ، والتقدير : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً من تركه .

السابع : أن فى الآية طباقاً ؛ لأنّ القصاص مُشعر بضدّ الحياة، بخلاف المَثَل .

الثامن : أن الآية اشتملت على فنّ بديع ، وهو جعل أحد الضِّدَّين الذى هو الفناء والموت محلاً ومكاناً لضدّه ، الذى هو الحياة ، واستقرار الحياة فى الموت مبالغة عظيمة ، ذكره فى الكشّاف ، وعبّر عنه صاحب الإيضاح بأنّه جعل القصاص كالمنبع للحياة والمعدِن لها بإدخال « فى » عليه .

التاسع : أنّ فى المَثَل توالِىَ أسباب كثيرة خفيفة ، وهو السكون بعد الحركة ، وذلك

---

(١) البقرة ٩٦

مستكرَه،فإن اللفظ المنطوق بهإذا توالتْ حركاته تمكّن اللسان من النطق به، وظهرت فصاحته، بخلاف ما إذا تعقّب حركة سكون ، فالحركات تنقطع بالسكنات . نظيره إذا تحرّكت الدّابّة أدنى حركة فحُبِست ، ثم تحرّكت فحُبست لا يتبيّن إطلاقها ، ولا تتمكّن من حركتها على ما تختاره ، فهى كالمقيّدة .

العاشر : أنّ المثل كالمتناقض من حيث الظاهر ؛ لأنّ الشىء لا ينفى نفسه .

الحادى عشر : سلامة الآية من تكرير قَلْقلة القاف الموجب للضغطوالشدة وبُعدِها عن غنّة النون .

الثانى عشر : اشتمالها على حروفٍ متلائمة ، لما فيها من الخروج ، من القاف إلى الصّاد ؛ إذ القاف من حروف الاستعلاء،والصّاد من حروف الاستعلاء والإطباق،بخلاف الخروج من القاف إلى التّاء التى هى حرف منخفض ؛ فهو غير ملائم للقاف ، وكذا الخروج من الصّاد إلى الحاء ، أحسنُ من الخروج من اللاّم إلى الهمزة، لبُعد مادون طرَف اللسان وأقصى الحلق .

الثالث عشر : فى النّطق بالصّاد والحاء والتاء حسن الصّوت ؛ ولا كذلك تكرير القاف والتّاء .

الرابع عشر : سلامتها من لفظ القتل المشعِر بالوحشة ، بخلاف لفظ « الحياة » فإن الطباع أقبلُ له من لفظ القتل .

الخامس عشر : أنّ لفظ القصاص مشعِر بالمساواة ، فهو منبِئٌ عن العدل ، بخلاف مطلَق القتل .

السادس عشر : الآية مبنيّة على الإثبات ، والمَثل على النفى ، والإثبات أشرفُ لأنه أوّل ، والنفى ثان عنه .

السابع عشر : أنّ المَثل لايكاد يُفهم إلاّ بعد فهم أنّ القصاص هو الحياة ، وقوله : « فى القصاص حياة » مفهومٌ من أوّل وَهْلة .

الثامن عشر : أن فى المَثَل بناء « أفعل » التفضيل من فعل متعدّ ، والآية سالمة منه .

التاسع عشر : أن « أفعل » فى الغالب يقتضى الاشتراك ، فيكون ترك القصاص نافياً للقتل ، ولكن القصاص أكثر نفياً ، وليس الأمر كذلك والآية سالمة من ذلك .

العشرون : أنّ الآية رادعة عن القتل ، والجرح معاً لشمول القصاص لهما ، والحياة أيضاً فى قصاص الأعضاء ، لأنّ قطع العضو ينقص مصلحة الحياة ، وقد يسرى إلى النفس فيزيلها ، ولا كذلك المثَل فى أوّل الآية ، « ولكم » . وفيها لطيفة ، وهى بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص ، وأنهم المراد حياتهم لاغيرهم لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم .

تنبيهات

الأول : ذكر قدامة من أنواع البديع الإشارة ، وفسّرها بالإتيان بكلام قليل ذى معانٍ جمّة ، وهذا هو إيجاز القصَر بعينه ؛ لكن فرّق بينهما ابن أبى الأصبع ، بأن الإيجاز دلالته مطابقة ودلالة الإشارة إمّا تضمّن أو التزام ، فعُلم منه أن المراد بها ماتقدّم فى مبحث المنطوق .

الثانى : ذكر القاضى أبو بكر فى إعجاز القرآن أن من الإيجاز نوعاً يسمّى التضمين ؛ وهو حصول معنى فى لفظ من غير ذكر له باسم هى عبارة عنه ، قال : وهو نوعان : أحدهما ما يُفهم من البنية ، كقوله : معلوم ، فإنه يوجب أنه لابدّ من عالم ، والثانى من معنى العبارة لا كبسم الله الرحمن الرحيم ، فإنه تضمّن تعليم الاستفتاح فى الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تعالى والتبرّك باسمه .

الثالث : ذكر ابن الأثير وصاحب عروس الافراح وغيرهما ، أنّ من أنواع إيجاز القِصَر باب الحصر ، سواء كان بإلاّ أو بإنّما أوغيرهما من أدواته ، لأن الجملة فيها نابت

مناب جملتين ، وباب العطف لأن حرفه وضع للإغناء عن إعادة العامل ، وباب النائب عن الفاعل لأنه دلّ على الفاعل بإعطائه حكمَه ، وعلى المفعول بوضعه ، وباب الضمير لأنه وضع للاستغناء به عن الظاهر اختصاراً ، وكذا لا يُعدَل إلى المنفصل مع إمكانه المتّصل، وباب علمت أنك قائم ، لأنه منحلٌّ لاسمٍ واحد سدّ مسدّ المفعولين من غير حذف .

ومنها باب التنازع ، إذا لم نقدّر على رأى الفراء .

ومنها طرح المفعول ، اقتصاراً على جعل المتعدّى كاللاّزم ، وسيأتى تحريره .

ومنها جمع أدوات الاستفهام والشرط ؛ فإنّ « كم مالُك » يغنى عن قولك : « أهو عشرون أم ثلاثون ؟ » وهكذا إلى مالا يتناهى .

ومنها الألفاظ اللازمة للعموم كأحد .

ومنها لفظ التثنية والجمع ، فإنّه يغنى عن تكرير المفرد ، وأقيم الحرف فيهما مقامه اختصاراً .

وممّا يصلح أن يعدّ من أنواعه المسمّى بالاتّساع من أنواع البديع : وهو أن يُؤْتَى بكلام يتّسع فيه التأويل بحسب ما تحتمله ألفاظه من المعانى ، كفواتِح السّور ، ذكره ابن أبى الإصبع .

* * *

[إيجاز الحذف]

القسم الثانى من قسمَيِ الإيجاز : الحذف ، وفيه فوائد :

ذكر أسبابه :

منها مجرّد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره .

ومنها التنبيه على أنّ الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف ، وأن الاشتغال بذكره يفضى إلى تفويت المهمّ ، وهذه هى فائدة باب التحذير والإغراء ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى ، ﴿نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾[1] ، فناقة الله تحذير بتقدير « ذروا » و « سقياها » إغراء بتقدير « الزموا » .

---

(١) الشمس ١٣

ومنها التفخيم والإعظام لما فيه من الإبهام . قال حازم فى منهاج البلغاء : إنما يحسن الحذف لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكون فى تعدادها طول وسآمة ، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال ، وتترك النفس تجول فى الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها ، قال : ولهذا القصد يؤثر فى المواضع التى يراد بها التعجب والتهويل على النفوس ، ومنه قوله فى وصف أهل الجنة : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (١) ، فحذف الجواب إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى ، فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف مايشاهدونه ، وتركت النفوس تقدر ما شاءته ، ولا تبلغ مع ذلك كنه ما هنالك .

وكذا قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ (٢) ، أى لرأيت أمراً فظيعاً ؛ لا تكاد تحيط به العبارة .

ومنها التخفيف لكثرة دورانه فى الكلام ، كما فى حذف حرف النداء ، نحو ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ ﴾ (٣) ، ونون « لم يك » والجمع السالم ، ومنه قراءة ﴿ والمُقِيمِى الصَّلَاةَ ﴾ (٤) ، وياء ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (٥) . وسأل المؤرج السدوسى الأخفش عن هذه الآية ، فقال : عادة العرب أنها إذا عدلت بالشىء عن معناه ، نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسرى ، وإنما يسرى فيه نقص منه حرف ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ (٦) ، الأصل « بغية » ، فلما حول عن فاعل نقص منه حرف .

ومنها كونه لا يصلح إلا له ، نحو ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (٧) ، ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ (٨) .

ومنها شهرته ، حتى يكون ذكره وعدمه سواء ، قال الزمخشرى : وهو نوع من دلالة الحال ، التى لسانها أنطق من لسان المقال ، وحمل عليه قراءة حمزة ﴿ تساءلون

---

(١) الزمر ٧٣ (٢) الأنعام ٢٧ (٣) يوسف ٢٩

(٤) الحج ٣٥ ، بالنصب على توهم النون ، وهى قراءة أبى عمرو . وانظر تفسير القرطبى ١٤ : ٧٩

(٥) الفجر ٤ (٦) مريم ٢٨ (٧) الأنعام ٧٣

(٨) هود ١٠٧

به والأرحامِ ﴾ (١) ، لأن هذا مكان شهر بتكرر الجارّ ؛ فقامت الشهرة مقام الذكر .

ومنها صيانته عن ذكره تشريفاً كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين * قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ ... ﴾ ، الآيات ، حذف فيها المبتدأ فى ثلاثة مواضع : قبل ذكر الرّب أى « هُوَ ربّ » ، « الله رَبُّكُمْ » ، « الله رَبُّ الْمَشْرِق » (٢) ، لأنّ موسى استعظم حال فرعون وإقدامه على السؤال ، فأضمر اسم الله تعظيما وتفخيما ، ومثله فى عروس الافراح بقوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٣) ، أى ذاتك .

ومنها صيانة اللّسان عنه تحقيراً له ، نحو ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ (٤) ، أى هم أو المنافقون .

ومنها قصد العموم ، نحو ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٥) أى على العبادة وعلى أمورنا كلها . ﴿ والله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ (٦) ، أى كل واحد .

ومنها رعاية الفاصلة ، نحو ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ومَا قَلَى ﴾ (٧) أى « وما قلاك » .

ومنها قصد البيان بعد الإبهام ، كما فى فعل المشيئة ، نحو ﴿ ولو شَاءَ لَهَدَاكُمْ ﴾ (٨) ، أى ولو شاء هدايتكم ؛ فإنه إذا سمع السّامع « ولو شاء » تعلّقت نفسه بمشيئتهم عليه ، لا يدرَى ماهو ، فلمّا ذُكر الجواب استبان بعد ذلك ؛ وأكثر مايقع ذلك بعد أداة شرط ، لأنّ مفعول المشيئة مذكور فى جوابها .

وقد يكون مع غيرها استدلالاً بغير الجواب ، نحو ﴿ ولَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (٩) ، وقد ذكر أهل البيان أن مفعول المشيئة والإرادة لايذكر إلاّ إذا كان غريباً أو عظيما ، نحو ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ (١٠) ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ (١١) ، وإنما اطّرد أو كثر حذف مفعول المشيئة دون سائر الأفعال ، لأنه يلزم من وجود

---

(١) النساء ١ ، بخفض الميم ، وهى قراءة قتادة والأعمش ، وانظر تفسير القرطبي ٥ : ٢
(٢) الشعراء ٢٣ ــ ٢٨ (٣) الأعراف ١٤٣ (٤) البقرة ١٨
(٥) الفاتحة ٤ (٦) يونس ٢٥ (٧) الضحى ٢
(٨) النحل ٩ (٩) البقرة ٢٥٥ (١٠) التكوير ٢٨
(١١) الأنبياء ١٧

المشيئة وجودِ المشاء ، فالمشيئة المستازِمة لمضمون الجواب لايمكن أن تكون إلاّ مشيئة الجواب ، ولذلك كانت الإرادة مثلها فى اطّراد حذف مفعولها ، ذكره الزّملكانىّ والتنُّوخى فى الأقصى القريب ، قالوا : وإذا حذف بعد « لو » فهو المذكور فى جوابها أبدا ، وأورد فى عروس الافراح ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[1] ، فإن المعنى « لو شاء ربُّنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة » ، لان المعنى معيّن على ذلك .

فائـــدة

قال الشيخ عبدالقاهر : مامِنْ اسم حذف فى الحالة التى ينبغى أن يحذَف فيها إلاّ وحذفه أحسن من ذكره ، وسمّى ابن جِنّى الحذف شجاعة العربية ، لأنّه يشجّع على الكلام .

قاعدة فى حذف المفعول اختصاراً واقتصاراً

قال ابن هشام : جرت عادت النحويِّين أن يقولوا بحذف المفعول اختصاراً واقتصاراً ، ويريدون بالاختصار الحذف لدليل ، ويريدون بالاقتصار الحذف لغير دليل ، ويمثّلونه بنحو : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾[2] ، أى أوقعوا هذين الفعلين ، والتحقيق أن يقال — يعنى كما قال أهل البيان : تارةً يتعلق الغرض بالإعلام بمجرّد وقوع الفعل من غير تعيين مَنْ أوقعه ، ومن أوقع عليه ، فيُجاء بمصدره مسنداً إلى فعل كونٍ عامّ ، فيقال : حصل حريق أونهب ، وتارة يتعلّق بالإعلام بمجرّد إيقاع الفعل للفاعل ، فيقتصر عليهما ، ولا يذكر المفعول ولا ينوَى ، إذ المنوىّ كالثابت ، ولا يسمّى محذوفاً ، لأنّ الفعل ينزَّل لهذا القصدُ منزلة مالا مفعول له . ومنه ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[3] ، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4] ، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[5] ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾[6] إذ المعنى: ربّى الذى يفعل الإحياء والإماتة . وهل يستوى من

---

(١) فصلت ١٤ — (٢) الطور ١٩ — (٣) البقرة ٢٥٨
(٤) الزمر ٩ — (٥) الأعراف ٣١ — (٦) الإنسان ٢٠

يتّصف بالعلم ومن ينتفى عنه العلم ؟ وأوقعوا الأكل والشرب ، وذرُوا الإسراف .

ومنه ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ...﴾[1] الآية ، ألا ترى أنه عليه الصلاة والسلام رحمهما إذْ كانتا على صفة الذِّياد وقومهما على السقى ، لا لكون مذودهما غنماً وسقيهم إبلاً ، وكذلك المقصود من « لا نسقى » السّقى لا المسقىّ . ومن لم يتأمّل قدّر « يسقون إبلهم » و « تذودان غنمهما » و « لا نسقى غنماً » ، وتارة يقصد إسناد الفعل إلى فاعله ، وتعليقهُ بمفعوله فيذكران ، نحو : ﴿لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾[2] ، ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾[3] ، وهذا النّوع الذى إذا لم يذكر محذوفه قيل محذوف .

وقد يكون فى اللفظ مايستدعيه ، فيحصل الجزم بوجود تقديره ، نحو : ﴿أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾[4] ، ﴿وَكلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾[5] .

وقد يشتبه الحال فى الحذف وعدمه ، نحو : ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾[6] ، قد يتوهّم أن معناه « نادوا » فلا حذف ، أو « سمّوا » فالحذف واقع .

ذكر شروطه

هى ثمانية :

أحدها : وجود دليل ، إمّا حالىّ نحو : ﴿قَالُوا سَلاَماً﴾[7] ، أى سلّمنا سلاما ، أو مقالىّ نحو : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾[8] ، ﴿قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾[9] أى سلام عليكم أنتم قوم منكرون .

ومن الأدلّة العقل حيث يستحيل صحة الكلام عقلا إلاّ بتقدير محذوف .

ثم تارة يدلّ على أصل الحذف من غير دلالة على تعيينه ، بل يستفاد التعيين من دليل آخره نحو : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[10] ، فإن العقل يدلّ على أنها ليست المحرّمة ، لأنّ التحريم

---

(١) القصص ٢٣ (٢) آل عمران ١٣٠ (٣) الإسراء ٣٢
(٤) الفرقان ٤١ (٥) النساء ٩٥ (٦) الإسراء ١١٠
(٧) هود ٦٩ (٨) النحل ٣٠ (٩) الذاريات ٢٥
(١٠) المائدة ٣

لا يضاف إلى الإحْرام ، وإنما هو والحلّ يضافان إلى الأفعال، فعُلم بالعقل حذفُ شيء .
وأمّا تعيينه وهو التنازل فمستفاد من الشرع ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم . « إنما حرُم أكلها » لأن العقل لا يدرك محل الحلّ ، ولا الحرْمة [وأماقول صاحب التلخيص: إنّه من باب دلالة العقل أيضاً ، فتابعَ فيه السكاكىّ من غير تأمّل أنه مبنى على أصول المعتزلة].

وتارة يدل العقل أيضاً على التعيين ، نحو ﴿ وَجاءَ رَبُّكَ ﴾ [(١)] ، أى أمره ، بمعنى عذابه ، لإنّ الحقّ دلّ على استحالة مجىء البارىْ ، لأنه من سمات الحادث ، وعلى أن الجائى أمره،﴿ أوفُوا بالعقود ﴾ [(٢)] ، ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ ﴾ [(٣)] ، أى بمقتضى العقود وبمقتضى عهد الله ؛ لأن العقد والعهد قولان قد دخلا فى الوجود ، وانقضيا فلا يُتصوّر فيهما وفاء ولا نقض ، وإنما الوفاء والنقض بمقتضاهما وما ترتب عليهما من أحكامهما .

وتارة يدلّ على التعيين العادة ، نحو ﴿ فَذَلِكُنَّ الذِى لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾[(٤)] ، دلّ العقل على الحذف، لأنّ يوسف لا يصح ظرفاً للوم، ثم يحتمل أن يقدّر « لُمْتُنَّنِي فى حبّه» ، لقوله : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [(٥)] ، وفى مراوَدته لقوله : ﴿ تُرَاوِدُ فتَاهَا ﴾ [(٥)] ، والعادة دلّت على الثانى ، لأن الحبّ المفرط لا يلام صاحبه عليه عادة،لأنه ليس اختيارياً ، بخلاف المراودة ، للقدرة على دفعها .

وتارة يدلّ عليه التصريح به فى موضع آخر ، وهو أقواها،نحو ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ ﴾[(٦)] ، أى أمره ، بدليل ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [(٧)] ، ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ ﴾[(٨)] ، أى كعرض، بدليل التصريح به فى آية البيّنة. ﴿ رسولٌ من اللهِ ﴾[(٩)] ،أى من عند الله ، بدليل ﴿ ولمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾[(١٠)] .

---

(١) الفجر ٢٢ — (٢) المائدة ١ — (٣) النحل ٩١
(٤) يوسف ٣٢ — (٥) يوسف ٣٠ — (٦) البقرة ٢١٠
(٧) النحل ٣٣ — (٨) آل عمران ١٣٣ — (٩) البينة ٢
(١٠) البقرة ١٠١

ومن الأدلّة على أصل الحذف العادة بأن يكون العقل غير مانع من إجراء اللفظ على ظاهره من غير حذف، نحو ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لا تبَّعْنَاكُمْ ﴾[١] أىْ مكان قتال، والمراد مكاناً صالحاً للقتال، وإنّما كان كذلك لأنّهم كانوا أخبر الناس بالقتال، ويتعيّرون بأن يتفوّهوا بأنهم لا يعرفونه، فالعادة تمنع أن يريدوا: « لو نعلم حقيقه القتال »، فلذلك قدّره مجاهد « مكان قتال ». ويدلّ عليه أنهم أشاروا على النّبى صلى الله عليه وسلم ألاّ يخرج من المدينة:

ومنها الشّروع فى الفعل، نحو « بسم الله »، فيقدّر ماجعلت التسمية مبدأً له؛ فإن كانت عند الشروع فى القراءة قدّرت « أقرأ »، أو الأكل قدّرت « آكل »، ؛ وعلى هذا أهل البيان قاطبة؛ خلافاً لقول النّحاة أنه يقدّر « ابتدأت »، أو « ابتدائى » كائن « بسم الله ». ويدلّ على صحّة الأوّل التصريح به فى قوله: ﴿ وقَالَ ارْكبُوا فِيهَا باسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾، وفى حديث: « باسمك ربّى وضعت جنبى ».

ومنها الصناعة النحويّة، كقولهم فى ﴿ لا أُقْسِم ﴾[٢]: التقدير « لأنا أقسم »، لأنّ فعل الحال لا يقسم عليه، وفى ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ ﴾[٣] التقدير: « لا تفتأ »، لأنه لو كان الجواب مثبتاً دخلت اللّام والنّون، كقوله: ﴿ وتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ ﴾[٤].

وقد توجب الصناعة التقدير، وإن كان المعنى غير متوقّف عليه، كقولهم فى ﴿ لا إلهَ إلاّ الله ﴾[٥]: إنّ الخبر محذوف، أى موجود، وقد أنكره الإمام فخر الدين، وقال: هذا الكلام لا يحتاج إلى تقدير، وتقديرُ النحاة فاسد، لأنّ نفىَ الحقيقة مطلقة أعمّ من نفيها مقيّدة؛ فإنّها إذا انتفت مطلقة كان ذلك دليلاً على سلب الماهية مع القيْد، وإذا انتفت مقيدة بقيد مخصوص لم يلزم نفيُها مع قيد آخر. ورُدّ بأن تقديرهم: « موجود » يستلزم نفىَ كل إله غير الله قطعاً، فإن العدم لا كلام فيه؛ فهو فى الحقيقة نفىٌ للحقيقة مطلقة لا مقيدة. ثم

---

(١) آل عمران ١٦٧ (٢) القيامة ١ (٣) يوسف ٨٥
(٤) الأنبياء ٥٧ (٥) محمد ١٩

لا بدّ ، من تقدير خبر ، لاستحالة مبتدأ بلا خبر ظاهر أو مقدّر ، وإنّما يقدّر النحويّ ليعطى القواعد حقها ، وإن كان المعنى مفهوماً .

تنبيـــه

قال ابن هشام : إنّمـا يشترط الدليل فيما إذا كان المحذوف الجملة بأسرها ، أو أحد ركنيها ، أو يفيد معنًى فيها هى مبنيّة عليه ، نحو ﴿ تَاللهِ تَفْتأُ ﴾ (١) . أمّا الفضلة فلا يشترط لحذفها وجدان دليل ، بل يُشترط ألاّ يكون فى حذفها ضرر معنوىّ أو صناعىّ . قال : ويشترط فى الدليل اللفظىّ أن يكون طبق المحذوف ، وردّ قول الفراء فى ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ ﴾ (٢) : إن التقدير « بلى ليحسبُنا قادرين » ، لأن الحسبان المذكور بمعنى الظن والمقدّر بمعنى العلم ، لأن التردّد فى الإعادةِ كفر ، فلا يكون مأموراً به . قال : والصّواب فيها قول سيبويه : إن « قادرين » حال ، أى بل نجمعها قادرين ، لأنّ فعل الجمع أقرب من فِعْل الحسبان ، ولأن « بلى » لإيجاب المنفىّ وهو فيها فعل الجمع .

الشرط الثانى : ألاّ يكون المحذوف كالجزء ، ومن ثَمَّ لم يحذف الفاعل ولا نائبه ولا اسم كان وأخواتها ؛ قال ابن هشام : وأما قول ابن عطية فى ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ (٣) : إن التقدير « بئس المثلُ مثل القوم » ، فإن أراد تفسير الإعراب وأن الفاعل لفظ « المثل » محذوفاً فمردود ، وإن أراد تفسيرَ المعنى ، وأن فى « بئس » ضمير المثل مستتراً فسهل (٤) .

الثالث : ألاّ يكون مؤكّداً ؛ لأن الحذف منافٍ للتأكيد ، إذ الحذف مبنىٌّ على الإختصار ، والتأكيد مبنى على الطّول ، ومن ثَمّ ردّ الفارسىّ على الزّجّاج فى قوله فى ﴿ إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ (٥) : إنّ التقدير « إن هذان لهما ساحران » ، فقال : الحذف والتوكيد باللاّم متنافيان ، وأمّا حذف الشئ لدليل وتوكيده فلا تنافِىَ بينهما ، لأن المحذوف لدليل كالثابت .

---

(١) يوسف ٨٥
(٢) القيامة ٣ ، ٤
(٣) الجمعة ٥
(٤) المغنى ١ : ٦٠٩ وفيه : « فأين تفسيره » .
(٥) طه ٦٣

الرابع : ألاّ يؤدِّىَ حذفه إلى اختصار المختصر ، ومن ثَمَّ لم يحذف اسم الفعل ، لأنه اختصار للفعل .

الخامس : ألاّ يكون عاملاً ضعيفاً ، فلا يحذف الجار والناصب للفعل والجازم إلاّ فى مواضع قويتْ فيها الدلالة ، وكثر فيها استعمالُ تلك العوامل .

السادس : ألاّ يكون المحذوف عوضاً عن شىء ، ومن ثَمّ قال ابن مالك : إن حرف النداء ليس عوضاً من « أدعو » لإجازة العرب حذفه ، ولذا أيضاً لم تحذف التاء من إقامة واستقامة ؛ وأمّا ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ﴾ [1] فلا يقاس عليه ، ولا خبر كان ، لأنه عوض أو كالعوض من مصدرها .

السابع : ألاّ يؤدِّىَ حذفُه إلى تهيئة العامل القوى، ومن ثمّ لم يُقس على قراءة: ﴿ وكلٌّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [2] .

فائــــدة

اعتبر الأخفش فى الحذف التدريج حيث أمكن ، ولهذا قال فى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [3] : إنّ الأصل « لاتجزى فيه » ، فحذف حرف الجرّ ، فصار « تجزيه » ، ثم حُذِف الضمير ، فصار « تجزى » ؛ وهذه ملاطفة فى الصناعة ، ومذهب سيبويه أنهما حذفا معاً ، قال ابن جنى : وقول الأخفش أوفقُ فى النّفس ، وآنسُ من أن يُحذف الحرفان معاً فى وقت واحد .

* * *

قاعـدة

الأصل أنْ يقدّر الشىء فى مكانه الأصلىّ ، لئلاّ يخالف الأصل من وجهين : الحذف ووضع الشىء فى غير محله ؛ فيقدّر المفسَّر فى نحو « زيداً رأيته » ، مقدّماً عليه . وجوّز

---

(١) الأنبياء ٧٣ (٢) الحديد ١٠ ، وهى قراءة ابن عامر ، وانظر تفسير القرطبى ١٧ : ٢٤٢ والمغنى ٢ : ١١١ (٣) البقرة ٤٨

البيانيون تقديره مؤخراً عنه لإفادة الاختصاص ، كما قاله النحاة ، وإذا منع منه مانع ، نحو ﴿ وأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾[١] ، إذ لا يلى « أمّا » فعل .

* * *

قاعدة

ينبغى تقليل المقدّر مهما أمكن ، لتقلّ مخالفة الأصل ، ومن ثَمّ ضُعِّف قول الفارسىّ فى ﴿ واللائى لَمْ يَحِضْنَ ﴾[٢] : إن التقدير « فَعِدَّتُهُنّ ثلاثةُ أشْهرٍ » ، والأولى أن يقدّر « كذلك » . قال الشيخ عز الدّين : ولا يقدّر من المحذوفات إلاّ أشدّها موافقةً للغرض ، وأفصحُها ، لأنّ العرب لا يقدرون إلاّ مالو لفظوا به لكان أحسنَ وأنسب لذلك الكلام ، كما يفعلون فى ذلك فى الملفوظ به ، نحو ﴿ جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ ﴾[٣] ، قدّر أبو علىّ « جعل الله نَصْبَ الكعبة » ، وقدّر غيره « حُرْمة الكعبة » ، وهو أولَى لأن تقدير الحرمة فى الهدْى والقلائد والشهر الحرام لا شكّ فى فصاحته ، وتقدير النُّصب فيها بعيد من الفصاحة ، قال : ومهما تردّد المحذوف بين الحسَن والأحسن ، وجب تقدير الأحسن ، لأنّ الله وصف كتابه بأنه أحسنُ الحديث ؛ فليكن محذوفه أحسن المحذوفات ، كما أن ملفوظه أحسن الملفوظات . قال : ومتى تردّد بين أن يكون مجملاً أو مبيّناً فتقدير المبيّن أحسن ، نحو ﴿ ودَاوُدَ وسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾[٤] ، لك أن تقدّر « فى أمر الحرث » ، و « فى تضمين الحرث » ، وهو أولى لتعيّنه ، والأمر مجمَل لتردّده بين أنواع .

* * *

قاعدة

إذا دار الأمر بين كون المحذوف فعلاً ، والباقى فاعلا ، وكونه مبتدأ والباقى خبراً ؛ فالثانى أَولَى ؛ لان المبتدأ عين الخبر ، وحينئذ فالمحذوف عين الثابت ، فيكون حذفاً كلا

---

(١) فصلت ١٧ بقراءة النصب ، وانظر الكشاف ١٥٢ والمغنى ٢ : ٦١٣
(٢) الطلاق :
(٣) المائدة ٩٧
(٤) الأنبياء ٧٨

حذف ، فأمّا الفعل فإنه غير الفاعل ؛ اللهم إلاّ أن يعتضد الأول برواية أخرى فى ذلك الموضع ، أو بموضع آخر يشبهه ، فالأول كقراءة ﴿ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا ﴾[١] بفتح الباء ، ﴿ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ ﴾[٢] بفتح الحاء ، فإن التقدير : « يسبِّحه رجال » ، و « يوحيه الله » ، ولا يقدّران مبتدأين حذف خبرهما لثبوت فاعلية الاسمين فى رواية من بَنَى الفعل للفاعل ، والثانى نحو ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ ، فتقدير « خلقهم الله » أولى من « الله خالقهم » لمجىء ﴿ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾[٣] .

* * *

قاعـــدة

إذا دار الأمر بين كون المحذوف أوّلا أو ثانيا ، فكونه ثانياً أولى ، ومن ثمّ رجح أن المحذوف فى نحو : ﴿ أَتُحَاجُّونِّى ﴾[٤] نون الوقاية لانون الرفع ، وفى ﴿ نَاراً تَلَظَّى ﴾[٥] التاء الثانية لاتاء المضارعة ، وفى ﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾[٦] : أنّ المحذوف خبر الثانى لا الأوّل ، وفى نحو : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ ﴾[٧] أن المحذوف مضاف للثانى ، أىّ حجّ أشهر ، لا الأوّل ، أى أشهر الحج . وقد يجب كونه من الأول ، نحو : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾[٨] فى قراءة مَنْ رفع « ملائكته » لاختصاص الخبر بالثانى لوروده بصيغة الجمع ، وقد يجب كونه من الثانى نحو : ﴿ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾[٩] ، أى برىءٌ أيضاً ، لتقدّم الخبر على الثانى .

فصـــل

[فى أنواع الحذف]

الحذف على أنواع :

أحدها : مايسمّى بالاقتطاع ، وهو حذف بعض حروف الكلمة . وأنكر ابن الأثير ورود هذا النوع فى القرآن ، ورُدّ بأنَّ بعضهم جعل منه فواتح السّور ، على القول بأن

---

(١) النور ٣٦ ، وهى قراءة شعبة (٢) الشورى ٣ (٣) الزخرف ٩
(٤) الأنعام ٨٠ (٥) الليل ١٤ (٦) التوبة ٦٢
(٧) البقرة ١٩٧ (٨) الأحزاب ٥٦ (٩) التوبة ٣

كلّ حرف منها من اسم من أسمائه كما تقدّم. وادّعى بعضهم أن الباء فى ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءوسِكُمْ ﴾[١] ، أوّل كلمة بعض ، ثم حذف الباقى ، ومنه قراءة بعضهم : ﴿ وَنَادَوْا يامَالِ ﴾[٢] بالترخيم ، ولمّا سمعها بعض السلف ، قال : ماأغنى أهل النار عن الترخيم ! وأجاب بعضهم بأنهم لشدّة ماهم فيه عجزوا عن إتمام الكلمة . ويدخل فى هذا النوع حذف همزة « أنا » فى قوله : ﴿ لَـكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾[٣] ، إذ الأصل « لـكن أنا » ، حذفت همزة « أنا » تخفيفاً وأدغمت النون فى النون ، ومثله ماقرئ ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَرْضِ ﴾[٤] ، ﴿ بِمَا أنزلَيكَ ﴾[٥] ، ﴿ فَمَنْ تعجَّل فِى يَوْمَيْنِ فَلَثْمَ عليه ﴾[٦] ، ﴿ إنها لَحْدَى الـكُبَرِ ﴾[٧] .

النوع الثانى : مايسمّى بالاكتفاء ، وهو أن يقتضى المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط ، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة . ويختصّ غالباً بالارتباط العطفى كقوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحرّ ﴾[٨] أى والبرد ، وخصّص الحرّ بالذكر لأنّ الخطاب للعرب ، وبلادهم حارّة والوقاية عندهم من الحرّ أهمّ ، لأنه أشد عندهم من البرد . وقيل : لأن البرد تقدم ذكر الامتنان بوقايته صريحاً فى قوله : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾[٩] ، وفى قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَـكُمْ مِنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾[٨] ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَالأنعامَ خَلَقَهَا لَـكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾[١٠] . ومن أمثلة هذا النوع ﴿ بِيَدِكَ الخَيْرُ ﴾[١١] أى والشرّ ، وإنّما خصّ الخير بالذكر ، لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم ، أو لأنه أكثر وجوداً فى العالم ، أو لأن إضافة الشرّ إلى الله ليس من باب الآداب كما قال صلى الله عليه وسلم « والشرّ ليس إليك » .

ومنها ﴿ ولَهُ مَاسَكَنَ فِى اللَّيْلِ والنَّهَارِ ﴾[١٢] ، أى وماتحرّك ، وخصّ السكون بالذكر ، لأنّه أغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد ، ولأنّ كل متحرّك يصير إلى السكون .

---

(١) المائدة ٦ — (٢) الزخرف ٧٧ — (٣) الكهف ٣٨
(٤) الحج ٦٥ — (٥) البقرة ٤ — (٦) البقرة ٢٠٣
(٧) المدثر ٣٥ — (٨) النحل ٨١ — (٩) النحل ٨٠
(١٠) النحل ٥ — (١١) آل عمران ٢٦ — (١٢) الأنعام ١٣

ومنها : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[١] ، أى والشهادة، لأن الإيمان بكلٍّ منهما واجب ، وآثر الغيب لأنه أمدح ، ولأنه يستلزم الإيمان بالشهادة من غير عكس .

ومنها : ﴿ وربُّ الْمَشَارِقِ ﴾[٢] أى والمغارب .

ومنها : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٣]، أى وللكافرين . قاله ابن الأنباريّ ، ويؤيده قوله : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾[٤] .

ومنها : ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾[٥]، أى ولا والد ، بدليل أنه أوجب للأخت النّصف ، وإنما يكون ذلك مع فقد الأب لأنه يسقطها .

النوع الثالث : مايسمّى بالاحتباك ؛ وهو من ألطف الأنواع وأبدعها ، وقلَّ مَنْ تنبه له أونبّه عليه من أهل فنّ البلاغة ، ولم أره فى شرح بديعية الأعمى[٦] لرفيقه الأندلسىّ ، وذكره الزركشى فى البرهان ، ولم يسمّه هذا الاسم ، بل سمّاه الحذف المقابِلىّ[٧] ، وأفرده بالتصنيف من أهل العصر العلامة برهان الدين البقاعِىّ ، قال الأندلسىّ فى شرح البديعيّة : من أنواع البديع الاحتباك ، وهو نوع عزيز ، وهو أن يحذف من الأوّل ماأثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ماأثبت نظيره فى الأوّل كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ ... ﴾[٨] الآية ، التقدير:ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى ينعِق ، والذى ينعَق به ، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة «الذى ينعِق» عليه ، ومن الثانى الذى يُنعق به لدلالة «الذين كفروا» عليه .

وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾[٩] ، التقدير : تدخل غير بيضاء،وأخرجْها تخرج بيضاء ، فحذف من الأول« غير بيضاء » ومن الثانى « وأخرجها » وقال الزركشىّ : هوأن يجتمع فى الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى

---

(١) البقرة ٣ (٢) الصافات ٥ ( ) البقرة ٢

(٤) البقرة ١٨٥ (٥) النساء ١٧٦

(٦) هو ابن جابر الأندلسى الأعمى ، محمد بن أحمد بن على المتوفى سنة ٧٨٠ ، صاحب البديعية ، المسماة : بالحلة السيراء فى مدح خير الورى ، شرحها رفيقه أحمد بن يوسف الرعينى الأندلسى،وانظر كشف الظنون

(٧) البرهان ٣ : ١٢٩ (٨) البقرة ١٧١ (٩) النمل ١٢

وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾[١]، التقدير «إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنتم برآء منه، وعليكم إجرامكم وأنا برئ مما تجرمون».

وقوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾[٢]، التقدير: «ويعذب المنافقين إن شاء فلا يتوب عليهم، أو يتوب عليهم فلا يعذبهم».

وقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ ﴾[٣]، أى حتى يطهرن من الدم، ويتطهرن بالماء، فإذا طهرن وتطهرن فأتوهن.

وقوله: ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾[٤]، أى عملا صالحاً بسيّئ، وآخر سيئًا بصالح.

قلت: ومن لطيفه قوله: ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾[٥]، أى فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل فى سبيل الطاغوت.

وفى الغرائب للكرمانىّ: فى الآية الأولى التقدير: «مثل الذين كفروا يا محمد كمثل الناعق مع الغنم»، فحذف من كل طرف مايدلّ عليه الطرف الآخر. وله فى القرآن نظائر، وهو أبلغ مايكون من الكلام. انتهى.

ومأخذُ هذه التسمية من الحبْك، الذى معناه الشدّ والإحكام وتحسين أثر الصنعة فى الثوب، فحبْك الثوب سدّ مابين خيوطه من الفُرَج وشدّه وإحكامه؛ بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرَّوْنق. وبيانُ أخذه منه من أن مواضع الحذف من الكلام شبّهت بالفُرَج بين الخيوط، فلمّا أدركها الناقد البصير بصوْغه الماهر فى نظمه وحوكه، فوضع المحذوف مواضعه كان حابِكا له مانعاً من خلل يطرقه، فسدّ بتقديره مايحصل به الخلل، مع ماأكسبه من الحسن والرونق.

(١) هود ٣٥ (٢) الأحزاب ٢٤ (٣) البقرة ٢٢٢
(٤) التوبة ١٠٢ (٥) آل عمران ١٣

النوع الرابع : مايسمّى بالاختزال ؛ هوماليس واحداًمماسبق، وهوأقسام؛لأن المحذوف إما كلمةٌ اسم، أو فعل، أو حرف، أو أكثر.

أمثلة حذف الاسم :

حذف المضاف،هوكثيرفي القرآن جدًّا، حتىقال ابن جني : في القرآن منه زُهاء ألف موضع. وقد سرّدها الشيخ عزالدين في كتابه «المجاز» على ترتيب السوَر والآيات، ومنه : ﴿الحجُّ أشهُرٌ﴾ (١) ، أي حجّ أشهر، أو أشهر الحجّ. ﴿ولـكِنّ البِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ (٢) ، أي ذا البرّ أو برّ مَنْ. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (٣) ، أي نكاح أمهاتكم. ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ (٤) ، أي ضعف عذاب. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ (٥) ، أي وفي تحرير الرقاب.

حذف المضاف إليه، يكثرفي ياء المتكلم، نحو ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ (٦). وفي الغايات نحو ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ﴾ (٧) ، أي من قبل الغلب ومن بعده.

وفي كل، وأيّ، وبعض. وجاء في غيرهنّ كقراءة ﴿فَلَا خَوْفُ عَلَيْهِمْ﴾ (٨) بضم بلا تنوين أي فلاخوف شيء عليهم.

حذف المبتدأ، يكثرفي جواب الاستفهام، نحو ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ﴾ (٩) أي هي نار. وبعد فاء الجواب ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ (١٠) ، أي فعمله لنفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (١٠) ، أي فإساءته عليها. وبعد القول، نحو ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (١١) ،

---

(١) البقرة ١٩٧ — (٢) البقرة ١٧٧ — (٣) النساء ٢٣
(٤) الإسراء ٧٥ — (٥) البقرة ١٧٧ — (٦) الأعراف ١٥١
(٧) الروم ٤ — (٨) البقرة ٣٨ — (٩) القارعة ٩، ١٠
(١٠) الجاثية ١٥ — (١١) الفرقان ٥

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ (١).

وبعد ماالخبرُ صفة له فى المعنى ، نحو ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾(٢)، ونحو ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ (٣)

ووقع فى غير ذلك ، نحو ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ (٤) ، ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ ﴾ (٥) ، أى هذا . ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ (٦) ، أى هذه .

ووجب فى النعت المقطوع إلى الرفع حذف الخبر، نحو ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾(٧) ، أى دائم .

ويحتمل الأمرين ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾(٨) ، أى أجمل ، أو فأمرى صبر . ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (٩) أى عليه ، أو فالواجب .

حذف الموصوف ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ (١٠) ، أى حور قاصرات. ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾(١١) ، أى دروعاً سابغات . ﴿ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾(١٢) ، أى القوم المؤمنون .

حذف الصفة، نحو ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾(١٣) ، أى صالحة ، بدليل أنه قرئ كذلك ، و « أن تعيبها » لا يخرجها عن كونها سفينة . ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ (١٤) ، أى الواضح ، وإلاّ لكفروا بمفهوم ذلك . ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ (١٥) ، أي نافعاً .

---

(١) يوسف ٤٤ — (٢) التوبة ١١٢ — (٣) البقرة ١٨
(٤) آل عمران ١٩٦ — (٥) الأحقاف ٣٥ — (٦) النور ١
(٧) الرعد ٣٥ — (٨) يوسف ١٨ — (٩) النساء ٩٢
(١٠) الصافات ٤٨ — (١١) سبأ ١١ — (١٢) النور ٣١
(١٣) الكهف ٧٩ — (١٤) البقرة ٧١ — (١٥) الكهف ١٠٥

حذف المعطوف عليه ، ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [١] فانفلق، أي فضرب فانفلق.

وحيث دخلت واو العطف على لام التعليل فنى تخريجه وجهان :

أحدهما: أن يكون تعليلاً معلله محذوف ، كقوله : ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [٢] ، فالمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ذلك .

والثانى: أنه معطوف على علة أخري مضمرة ليظهر صحةُ العطف ، أي فعل ذلك ليذيق الكافرين بأسه وليبلى .

حذف المعطوف مع العاطف ، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [٣] أى ومَنْ أنفق بعده . ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [٤]، أي والشرّ .

حذف المبدل منه ، خرّج عليه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ [٥] أى لما تصفه ، والكذبُ بدل من الهاء .

حذف الفاعل ، لايجوز إلاّ فى فاعل المصدر ، نحو : ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [٦]، أى دعائه الخير. وجوّزه الكسائىّ مطلقاً لدليل ، وخرّج عليه ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [٧]، أى الروح، ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [٨]، أى الشمس .

حذف المفعول، تقدم أنه كثير فى مفعول المشيئة والإرادة . ويرد فى غيرهما، نحو ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [٩]، أى إلهاً . ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [١٠]، أى عاقبة أمركم .

حذف الحال ، يكثر إذا كان قولاً ، نحو ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ﴾ [١١] أى قائلين .

---

(١) الشعراء ٦٣ — (٢) الأنفال ١٧ — (٣) الحديد ١٠

(٤) آل عمران ٢٦ — (٥) النحل ١١٦ — (٦) فصلت ٤٩

(٧) القيامة ٢٦ — (٨) ص ٣٢ — (٩) الأعراف ١٥٢

(١٠) التكاثر ١ — (١١) الرعد ٢٣ ، ٢٤

حذف المنادى ﴿ ألاَ ياسْجُدوا ﴾[١] ، أى ياهؤلاء . ﴿ ياليت ﴾[٢]، أى ياقوم .

حذف العائد يقع فى أربعة أبواب :

الصلة ، نحو ﴿ أهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴾[٣] ، أى بعثه .

والصفة ، نحو ﴿ واتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ ﴾[٤] ، أى فيه .

والخبر نحو ﴿ وكُلٌّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ﴾[٥] ، أى وعده .

والحـــال .

حذف مخصوص نِعمَ ، ﴿ إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ [٦] أى أيوب . ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[٧] ، أى نحن . ﴿ ولَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾[٨]، أى الجنة .

حذف الموصول، نحو ﴿ آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إلَيْنَا وأُنْزِلَ إلَيْكُمْ ﴾[٩]، أى و الذى أنزل إليكم، لأن الذى أنزل إلينا ليس هو الذى أنزل إلى من قبلنا ، ولهذا أعيدت « ما » فى قوله : ﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا ومَا أُنْزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ ﴾[٩] .

* * *

أمثلة حذف الفعل :

يطرد إذا كان مفسراً ، نحو ﴿ وإنْ أحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾[١٠]، ﴿ إذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[١١]. ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾[١٢] .

ويكثر فى جواب الاستفهام ، نحو ﴿ وقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾[١٣] ، أى أنزل .

وأكثر منه حذف القول ، نحو ﴿ وَإذْ يَرْفَع إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

---

(١) النمل ٢٥ — (٢) القصص ٧٩ — (٣) الفرقان ٤١
(٤) البقرة ٤٨ — (٥) النساء ٩٥ — (٦) ص ٤٤
(٧) المرسلات ٢٣ — (٨) النحل ٣٠ — (٩) البقرة ١٢٦
(١٠) التوبة ٦ — (١١) الانشقاق ١ — (١٢) الإسراء ١٠٠
(١٣) النحل ٣٠

وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا ﴾(١) ، أي يقولان : ربنا .

ويأتى فى غير ذلك ، نحو ﴿ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾(٢) ، أى وأتوا ، ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾(٣) ، أى وألفوا الإيمان أو اعتقدوا ، ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾(٤) ، أى وليسكن زوجك ، ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾(٥) ، أى أذم . ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾(٦) أى أمدح ، ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾(٧) أى كان . ﴿ وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعمالهم ﴾(٨) .

* * *

أمثلة حذف الحرف :

قال ابن جنى فى المحتسب : أخبرنا أبو علىّ ، قال : قال أبو بكر ، حذف الحرف ليس بقياس ، لأن الحروف إنما دخلت الكلام لضرب من الاختصار ، فلو ذهبت تحذفها لكنت مختصراً لها هى أيضاً ، واختصار المختصر إجحافٌ به .

حذف همزة الاستفهام . قرأ ابن محيصن : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنذَرْتَهُمْ ﴾(٩) ، وخرّج عليه ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾(١٠) فى المواضع الثلاثة . ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا ﴾(١١) ، أى أوتلك؟

حذف الموصوف الحرفى . قال ابن مالك : لا يجوز إلا فى «أن» ، نحو ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾(١٢) .

وحذف الجار بطّرد مع أنْ ، وأنّ ، نحو ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ ﴾(١٣) ، ﴿ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي ﴾(١٤) ، ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ ﴾(١٥) أى بأنكم . وجاء مع غيرهما ، نحو ﴿ قَدَّرْنَاهُ

---

(١) البقرة ١٢٧ — (٢) النساء ١٧١ — (٣) الحشر ٩
(٤) البقرة ٣٥ — (٥) تبت ٣ — (٦) النساء ١٦٢
(٧) الأحزاب ٤٠ — (٨) هود ١١١ — (٩) البقرة ٦
(١٠) الأنعام ٧٦ — (١١) الشعراء ٢٢ — (١٢) الروم ٢٤
(١٣) الحجرات ١٧ — (١٤) الشعراء ٨٢ — (١٥) المؤمنون ٣٥

﴿مَنَازِلَ﴾[١]، أى قدرنا له، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾[٢]، أى لها، ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[٣]، أى يخوفكم بأوليائه. ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[٤]، أى من قومه. ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾[٥]، أى على عقدة النكاح.

حذف العاطف، خرج عليه الفارسى ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا﴾[٦] أى وقلت. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾[٧]، أى ووجوه، عطفاً على ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾[٨].

حذف فاء الجواب، وخرّج عليه الأخفش ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾[٩].

حذف حرف النداء كثير. ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ﴾[١٠]، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾[١١]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾[١٢]، ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١٣]. وفى العجائب للكرمانىّ: كثر حذف «يا» فى القرآن من الرّبّ تنزيهاً وتعظيما؛ لأن فى النداء طرفاً من الأمر.

حذف «قد» فى الماضى إذا وقع حالاً، نحو: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[١٤]، ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[١٥].

حذف «لا» النافية، يطّرد فى جواب القسَم، إذا كان المنفىّ مضارعاً نحو: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾[١٦]. وورَد فى غيره، نحو: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾[١٧]، أى لا يطيقونه. ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾[١٨]، أى لئلا تميد.

---

(١) يس ٣٩ — (٢) الأعراف ٤٥ — (٣) الأعراف ١٧٥
(٤) الأعراف ١٥٥ — (٥) البقرة ٢٣٥ — (٦) التوبة ٩٤
(٧) الغاشية ٨ — (٨) الغاشية ٢ — (٩) البقرة ١٨٠
(١٠) آل عمران ١١٩ — (١١) يوسف ٢٩ — (١٢) مريم ٤
(١٣) الأنعام ١٤ — (١٤) النساء ٩٠ — (١٥) الشعراء ١١١
(١٦) يوسف ٨٥ — (١٧) البقرة ١٨٤
(١٨) النحل ١٥

حذف لام التوطئة : ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسن ﴾[١] ، ﴿ وَإِن أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[٢] .

حذف لام الأمر ، خرّج عليه ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ﴾[٣] ، أى ليقيموا .

حذف لام « لقد » يحسن مع طول الكلام ، نحو : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾[٤] .

حذف نون التوكيد ، خرّج عليه قراءة ﴿ ألم نشرحَ ﴾ بالنصب .

حذف التنوين ، خرّج عليه ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ * اللهُ الصَّمَدُ ﴾[٥] ، ﴿ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ ﴾[٦] بالنصب .

حذف نون الجمع ، خرّج عليه قراءة ﴿ وما هم بضارِّى به من أحدٍ ﴾ .

حذف حركة الإعراب والبناء ، خرّج ، عليه قراءة ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ ﴾[٧] و ﴿ بِأْمُرْكُمْ ﴾[٨] ، ﴿ وَبُعُولَتُهْنَّ أَحَقّ ﴾[٩] بسكون الثلاثة . وكذا ﴿ أَوْ يَعْفُو الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾[١٠] ، ﴿ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي ﴾[١٠] ، ﴿ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾[١١] .

* * *

أمثلة حذف أكثر من كلمة :

حذف مضافين ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[١٢] ، أى فإنّ تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب . ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾[١٣] أى من أثر حافر فرس الرسول ، ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾[١٤] أى كدوران عين الذى . ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾[١٥] ، أى بدل شكر رزقكم

حذف ثلاث متضايفات :

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾[١٦] ، أى فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب فحذف ثلاثة من اسم كان وواحد من خبرها :

(١) المائدة ٧٣ — (٢) الأنعام ١٢١ — (٣) إبراهيم ٣١
(٤) الشمس ٩ — (٥) الإخلاص ١ ، ٢ — (٦) يس ٤٠
(٧) البقرة ٥٤ — (٨) البقرة ٦٧ — (٩) البقرة ٢٢٧
(١٠) البقرة ٢٣٧ — (١١) المائدة ٣١ — (١٢) الحج ٣٢
(١٣) طه ٩٦ — (١٤) الأحزاب ١٩ — (١٥) الواقعة ٨٢
(١٦) النجم ٩

حذف مفعولَىْ باب ظن ، ﴿أينَ شركائى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [١] ، أى تزعمونهم شركائى .

حذف الجار على المجرور ، ﴿خلطوا عملا صالحًا﴾ أى بسيء ، ﴿وآخر سيِّئًا﴾ [٢] أى بصالح .

حذف العاطف مع المعطوف ، تقدم .

حذف حرف الشرط وفعله ، يطّرد بعد الطلب ، نحو ﴿فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [٣] ، أى إن اتبعتمونى ، ﴿قُلْ لِعِبَادِىَ الَّذِينَ آمنوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [٤] ، أى إن قلت لهم يقيموا . وجعل منه الزمخشرىّ ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾ [٥] ، أى إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخالف الله . وجعل منه أبو حيان ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [٦] ، أى إن كنتم آمنتم بما أنزل إليكم فلم تقتلون !

حذف جواب الشرط ﴿فإنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نفقًا فى الأرضِ أو سُلَّمًا فى السَّماءِ﴾ [٧] ، أى فافعل . ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٨] ، أى أعرضوا ، بدليل ما بعده . ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ [٩] ، أى تطيرتم . ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [١٠] ، أى لنفد . ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾ [١١] ، أى لرأيت أمراً فظيعاً . ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [١٢] ، أى لعذبكم . ﴿لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [١٣] ، أى لأبدت به . ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ [١٤] ، أى لسلَّطكم على أهل مكة .

---

(١) الأنعام ٢٢ (٢) التوبة ١٠٢ (٣) آل عمران ٣١

(٤) إبراهيم ٣١ (٥) البقرة ٨٠ (٦) البقرة ٩١

(٧) الأنعام ٣٥ (٨) يس ٤٥ (٩) يس ١٩

(١٠) الكهف ١٠٩ (١١) السجدة ١٢ (١٢) النور ٢٠

(١٣) القصص ١٠ (١٤) الفتح ٢٥

حذف جملة القسم ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[١] ، أى والله ، حذف جوابه. ﴿والنَّازِعَاتِ غَرْقًا ....﴾[٢] الآيات ، أى لتبعثن . ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[٣] ، أى إنه لمعجز. ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[٤] ، أى ما الأمر كما زعموا .

حذف جملة مسبّبة عن المذكور ، نحو ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾[٥] ، أى فعل مافعل .

حذف جمل كثيرة ، نحو ﴿فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[٦]، أى فأرسلونى إلى يوسف لأستعبره الرؤيا ، ففعلوا فأتاه فقال له : يايوسف .

خاتمـــة

تارة لايقام شئ مقام المحذوف كما تقدّم ، وتارة يقام مايدلّ عليه ، نحو ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾[٧]؛ فليس الإبلاغ هو الجواب لتقدمه على تولّيهم ، وإنما التقدير: «فَإِن تَوَلَّوْا فلا لَوْمَ عَلَيَّ» أو فلا عذر لـكم لأنى أبلغتكم.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾[٨] ، أى فلا تحزن واصبر .

﴿وإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[٩] ، أى يصيبهم مثل ما أصابهم .

* * *

فصـــل

[فى نوعى الإطناب]

كما انقسم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف ، كذلك انقسم الإطناب إلى بسط وزيادة.

[الإطناب بالبسط]

فالأوّل الإطناب بتكثير الجمل ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾[١٠] الآية فى سورة البقرة . أطنب فيها أبلغ الإطناب لـكون الخطاب مع الثقلين ، وفى كل عصر وحين ، للعالم منهم والجاهل ، والموافق منهم والمنافق .

(١) النمل ٢١ (٢) النازعات ١ (٣) ص ١
(٤) ق ١ (٥) الأنفال ٨ (٦) يوسف ٤٥ ، ٤٦
(٧) هود ٥٧ (٨) فاطر ٤ (٩) الأنفال ٣٨
(١٠) البقرة ١٦٤

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾(١) ،فقوله : «ويؤمنون به » ، إطناب لأن إيمان حملة العرش معلوم ، وحسّنه إظهار شرف الإيمان ترغيباً فيه .

﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾(٢)، وليس من المشركين مُزكٍّ. والنكتة الحثّ للمؤمنين على أدائها ،والتحذير من المنع،حيث جعل من أوصاف المشركين.

* * *

[الإطناب بالزيادة]

والثانى يكون بأنواع :

أحدها — دخول حرف فأكثر من حروف التأكيد

السابقة فى نوع الأدوات

وهى : إن ، وأنّ ، ولام الابتداء ، والقَسَم ، وألا الاستفتاحيّة ، وأما ، وها التنبيه ، وكأنّ فى تأكيد التشبيه ، ولكنّ فى تأكيد الاستدراك ، وليت فى تأكيد التمنى ، ولعلّ فى تأكيد الترجّى ، وضمير الشأن ، وضمير الفصل ، وإمّا فى تأكيد الشرط ، وقد، والسّين وسوف ، والنونان فى تأكيد الفعليّة ، ولا التبرئة ، ولن ، ولمّا فى تأكيد النفى ، وإنما يحسن تأكيد الكلام بها إذا كان المخاطب به منكِراً أو متردّدا .

ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه ، كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى إذ كذبوا فى المرّة الأولى: ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾(٣)، فأكّد بأنّ وإسميّة الجملة ؛ وفى المرّة الثانية ﴿ قالوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إنا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾(٤) ، فأكّد بالقسم وإن واللّام وإسميّة الجملة ، لمبالغة المخاطبين فى الإنكار حيث قالوا : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾(٥).

وقد يؤكّد بها ، والمخاطب به غير منكِر ، لعدم جريه على مقتضى إقراره ،

---

(١) غافر ٧ (٢) فصلت ٦ ، ٧ (٣) يس ١٤
(٤) يس ١٦ (٥) يس ١٥

فينزّل منزلة المنكر . وقد يترك التأكيد وهو معه منكر لأن معه أدلّة ظاهرة لو تأمّلها لرجع عن إنكاره ؛ وعلى ذلك يخرّج قوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [١] أكّد الموت تأكيدين وإن لم ينكر ، لتنزيل المخاطبين لتماديهم فى الغفلة تنزيلَ من ينكر الموت ، وأكّد إثبات البعث تأكيداً واحداً وإن كان أشدَّ نكيراً ؛ لأنه لمّا كانت أدلّته ظاهرة كان جديراً بأن لا ينكر ، فنزّل المخاطبون منزلة غير المنكر حثّاً لهم على النظر فى أدلّته الواضحة . ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ،[٢] نفى عنه الرّيبة بـ«لا» على سبيل الاستغراق ؛ مع أنه ارتاب فيه المرتابون ، لكن نُزّل منزلة العدم؛ تعويلا على مايُزيله من من الأدلة الباهرة ، كما نزّل الإنكار منزلة عدمه لذلك .

وقال الزمخشرىّ : بولغ فى تأكيد الموت تنبيها للإنسان على أن يكون الموت نصبَ عينيه ، ولا يغفل عن ترقبه ، فإن مآله إليه، فكأنه أكّدت جملته ثلاث مرات لهذا المعنى، لأن الإنسان فى الدنيا يسعى فيها غاية السعىَ ؛ حتى كأنه يخلّد ، ولم يؤكد جملة البعث إلاّ بإنّ لأنه أبرِز فى صورة المقطوع به الذى لا يمكن فيه نزاع ، ولا يقبل إنكاراً .[٣]

وقال التاج بن الفركاح[٤] : أكّد الموت ردّاً على الدهريّة القائلين ببقاء النوع الإنسانىّ خلفاً عن سلف. واستغنى عن تأكيد البعث هنا، لتأكيده والردِّ على منكِره فى مواضع، كقوله : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾[٥] .

وقال غيره : لمّا كان العطف يقتضى الاشتراك ، استغنى عن إعادة اللاّم لذكرها فى الأول .

وقد يؤكّد بها — أى اللام — المستشرف الطالب الذى قدّم له ما يلوح بالخبَر فاستشرفت

---

(١) المؤمنون ١٥ ، ١٦ (٢) البقرة ٢ (٣) قاله فى البرهان ٣ : ٨٨

(٤) هو عبد الرحمن إبراهيم البدوى ، شارح التنبيه ، وأحد علماء الشافعية . توفى سنة ٦٩٠ طبقات الشافعية ٥ . ٦٠ (٥) التغابن ٧

نفسه إليه ، نحو ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ (١) ، أى لا تَدْعُنى يانوح فى شأن قومك ؛ فهذا الكلام يلوّح بالخبر تلويحاً ، ويشعر بأنه قد حقّ عليهم العذاب ، فصار المقام مقام أن يتردد المخاطب فى أنهم: هل صاروا محكوماً عليهم بذلك أولا ؟ فقيل : إنهم مغرقون بالتأكيد .

وكذا قوله : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ (٢) ، لمـّا أمرهم بالتقوى وظهور ثمرتها والعقاب على تركها محلُّه الآخرة،تشوّفت نفوسهم إلى وصف حال الساعة،فقال: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)، بالتأكيد ، ليقرّر عليه الوجوب .

وكذا قوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ (٣)، فيه تحيير للمخاطب ، وتردّد فى أنه كيف لا يبرّئ نفسه وهى بريئة زكية،ثبتت عصمتُها وعدم مواقعتها السوء ، فأكّده بقوله: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٣) .

وقد يؤكّد لقصد الترغيب،نحو ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) أكّد بأربع تأكيدات ترغيباً للعباد فى التوبة .

وقد سبق الكلام على أدوات التأكيد المذكورة ومعانيها ومواقعها فى النوع الأربعين .

فائـــدة

إذا اجتمعت إنّ واللام كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات ، لأن « إن » أفادت التكرير مرتين فإذا دخلت اللام صارت ثلاثا . وعن الكسائىّ أن اللام لتوكيد الخبر ، وإنّ لتوكيد الاسم.وفيه تجوّز ، لأن التوكيد للنسبة لا للاسم ولا للخبر ، وكذلك نون التوكيد الشديدة بمنزلة تكرير الفعل ثلاثا ، والخفيفة بمنزلة تكريره مرتين.فقال سيبويه فى نحو

---

(١) هود ٣٧ (٢) الحج ١ (٣) يوسف ٥٣
(٤) البقرة ٣٧

« يأيّها » : الألف والهاء لحقتا أيّاً توكيداً ، فكأنّك كرّرت « يا » مرتين وصار الاسم تنبيها. هذا كلامه وتابعه الزمخشريّ .

فائـدة

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ (1) قال الجرجانيّ فى نظم القرآن: ليست اللّام فيه للتأكيد ؛ فإنه منكر ؛ فكيف يحقّق ماينكر ، وإنّما قاله حكايةً لكلام النبي صلى الله عليه وسلم الصادر منه بأداة التأكيد ، فحكاه فنُزِّلَتِ الآية على ذلك .

* * *

النوع الثانى — دخول الأحرف الزائدة

قال ابن جنّى : كلّ حرف زيدَ فى كلام العرب ، فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى. وقال الزمخشرىّ فى كشافه القديم : الباء فى خبر ما ، وليس لتأكيد النفى ، كما أن اللام لتأكيد الإيجاب .

وسئل بعضهم عن التأكيد بالحرف وما معناه ، إذ إسقاطه لا يخلّ بالمعنى ! فقال : هذا يعرفه أهل الطباع ، يجدون من زيادة الحرف معنًى لايجدونه بإسقاطه . قال : ونظيره العارف بوزن الشعر طبعاً ، إذا تغيّر عليه البيت بنقصٍ أنكره وقال : أجد نفسى على خلاف ماأجدها بإقامة الوزن . فكذلك هذه الحروف تتغيّر نفس المطبوع بنقصانها ، ويجد نفسه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانه .

ثم باب الزيادة فى الحروف وزيادة الأفعال قليل ، والأسماء أقلّ

أما الحروف فيزداد منها ، إنْ ، وأن ، وإذ ، وإذا ، وإلى ، وأمْ ، والباء ، والفاء ، وفى ، والكاف ، واللام ، ولا ، وما ، ومن ، والواو ؛ وتقدّمت فى نوع الأدوات مشروحة .

وأما الأفعال فزيد منها « كان » ؛ وخرّج عليه ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (2) ، وأصبح وخرّج عليه ﴿ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ (3) .

---

(1) مريم ٦٦ (2) مريم ٢٩ (3) المائدة ٥٣

وقال الرُّمانيّ : العادة أن مَنْ به علّة تزاد بالليل ، أن يرجوَ الفرج عند الصباح ، فاستعمل « أصبح » لأن الخسران حصل لهم في الوقت الذي يرجون فيه الفرج ، فليست زائدة .

وأمّا الأسماء فنصّ أكثر النحويين على أنها لا تزاد ، ووقع في كلام المفسّرين الحكم عليها بالزيادة في مواضع ، كلفظ « مثل » في قوله : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ ﴾ [1] ، أي بما .

* * *

النوع الثالث — التأكيد الصناعى

وهو أربعة أقسام :

أحدها : التوكيد المعنوى بكلّ ، وأجمع ، وكلا وكلتا ، نحو ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [2] ، وفائدته رفع توهّم المجاز وعدم الشمول . وادّعى الفرّاء أن « كلّهم » أفادت ذلك ، و « أجمعون » أفادت اجتماعهم على السجود ، وأنهم لم يسجدوا متفرّقين .

ثانيها : التأكيد اللفظى ، وهو تكرار اللفظ الأول إمّا بمرادفه ، نحو ﴿ ضَيِّقًا حَرِجًا ﴾ [3] ، بكسر الراء ، و ﴿ غَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [4] وجعل منه الصفّار في ﴿ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ [5] ، على القول بأن كليهما للنفى . وجعل منه غيره : ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [6] ، فوراء هنا ليس ظرفًا ، لأنّ لفظ « ارجعوا » ينبى عنه ، بل هو اسم فعل بمعنى « ارجعوا » ، فكأنه قال : ارجعوا ارجعوا .

وإمّا بلفظه ويكون في الاسم والفعل والحرف ، والجملة فالاسم ، نحو ﴿ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ ﴾ [7] ، ﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ [8] ، والفعل ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ ﴾ [9] .

---

(١) البقرة ١٣٧
(٢) الحجر ٣٠
(٣) الأنعام ١٢٥
(٤) فاطر ٢٧
(٥) الأحقاف ٢٦
(٦) الحديد ١٣
(٧) الإنسان ١٥ ، ١٦
(٨) الفجر ٢١
(٩) الطارق ١٧

واسم الفعل ، نحو ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[١] ، والحرف . نحو ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾[٢] ، ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ ﴾[٣] . والجملة، نحو ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾[٤] والأحسن اقتران الثانية بثم ، نحو ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾[٥] ، ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[٦] ومن هذا النوع تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل ، نحو ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾[٧] ، ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ ﴾[٨] ، ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾[٩] ومن تأكيد المنفصل بمثله ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾[١٠] .

ثالثها : تأكيد الفعل بمصدره ، وهو عوض من تكرار الفعل مرتين، وفائدته رفع توهم المجاز فى الفعل بخلاف التوكيد السابق فإنّ لرفع توهم المجاز فى المسند إليه . كذا فرّق به ابن عصفور وغيره . ومن ثمّ ردّ بعض أهل السُّنَّة على بعض المعتزلة فى دعواه نفى التكليم حقيقة بقوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾[١١] لأن التوكيد رفع المجاز فى الفعل، ومن أمثلته ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[١٢] ، ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾[١٣] ﴿ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ﴾[١٤] .

وليس منه ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾[١٥] ، بل هو جمع «ظنّ» لاختلاف أنواعه . وأما ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾[١٦] ، فيحتمل أن يكون منه وأن يكون الشيء ، بمعنى الأمر والشأن .

---

(١) المؤمنون ٣٦ — (٢) هود ١٠٨ — (٣) المؤمنون ٣٥
(٤) الشرح ٥ ، ٦ — (٥) الانفطار ١٧ ، ١٨ — (٦) التكاثر ٣ ، ٤
(٧) البقرة ٣٥ — (٨) المائدة ٢٤ — (٩) الأعراف ١١٥
(١٠) يوسف ٣٧ — (١١) النساء ١٦٤ — (١٢) الأحزاب ٥٦
(١٣) الطور ٩ ، ١٠ — (١٤) الإسراء ٦٣ — (١٥) الأحزاب ١٠
(١٦) الأنعام ٨٠

والأصل فى هذا النوع أن ينعت بالوصف المراد ، نحو ﴿ اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ [١] ، ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ [٢] . وقد يضاف وصفه إليه ، نحو ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [٣] ، وقد يؤكد بمصدر فعل آخر أو اسم عين نيابة عن المصدر ، نحو ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [٤] ، والتبتيل مصدر « بتل » . ﴿ واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ [٥] ، أى إنباتاً ، إذ النبات اسم عين .

رابعها : الحال المؤكدة ، نحو ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [٦] ، ﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [٧] ، ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ [٨] ، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [٩] ، ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [١٠] .

وليس منه ﴿ وَلَّى مُدْبِراً ﴾ [١١] ، لأن التولية قد لا تكون إدباراً ، بدليل قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [١٢] . ولا ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً ﴾ [١٣] ، لأن التبسّم قد لا يكون ضحكا ، ولا ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً ﴾ [١٤] ، لاختلاف المعنيين ، إذ كونه حقًّا فى نفسه غير كونه مصدِّقاً لما قبله .

* * *

النوع الرابع — التكرير

وهو أبلغ من التأكيد ، وهو من محاسن الفصاحة ، خلافاً لبعض مَنْ غلط .

وله فوائد :

منها التقرير ، وقد قيل : الكلام إذا تكرّر تقرّر ، وقد نبّه تعالى على السبب الذى لأجله كرّر الأقاصيص والإنذار فى القرآن بقوله : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [١٥] .

---

(١) الأحزاب ٤١ — (٢) الأحزاب ٤٩ — (٣) آل عمران ١٠٢
(٤) المزمل ٨ — (٥) نوح ١٧ — (٦) مريم ٣٣
(٧) البقرة ٦٠ — (٨) النساء ٧٩ — (٩) البقرة ٨٣
(١٠) ق ٣١ — (١١) النمل ١٠ — (١٢) البقرة ١٤٤
(١٣) النمل ١٩ — (١٤) البقرة ٩١ — (١٥) طه ١١٣

ومنها التأكيد .

ومنها زيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ، ليكمل تلقى الكلام بالقبول ، ومنه: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ (١) ، فإنه كرّر فيه النداء لذلك .

ومنها إذا طال الكلام وخُشى تناسى الأول أعيد ثانياً تطرية له وتجديداً لعهده ، ومنه ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ (٢) ، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ (٣) ، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ، إلى قوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (٤) . ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (٥) ، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ﴾ (٦) .

ومنها التعظيم والتهويل ، نحو ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ (٧) ، ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾ (٨) ، ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٩) .

فإن قلتَ : هذا النوع أحد أقسام النوع الذى قبله ، فإن منها التأكيد بتكرار اللفظ، فلا يحسن عدّه نوعاً مستقلاً . قلتُ : هو يجامعه ويفارقه ، ويزيد عليه وينقص عنه ، فصار أصلاً برأسه ؛ فإنه قد يكون التأكيد تكراراً كما تقدّم فى أمثلته ، وقد لا يكون تكراراً كما تقدم أيضاً ، وقد يكون التكرير غير تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى .

ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكرّرين ؛ فإنّ التأكيد لا يُفصل بينه وبين مؤكّده ، نحو ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (١٠) ، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (١١) ، فالآيتان من باب التكرير لا التأكيد اللفظى الصناعىّ . ومنه الآيات المتقدمة فى التكرير للطّول .

---

(١) غافر ٣٨ (٢) النحل ١١٩ (٣) النحل ١١٠
(٤) البقرة ٨٩ (٥) آل عمران ١٨٨ (٦) يوسف ٤
(٧) الحاقة ١، ٢ (٨) القارعة ١ ، ٢ (٩) الواقعة ٢٧
(١٠) الحشر ١٨ (١١) آل عمران ٤٢

ومنه ما كان لتعدّد المتعلّق ، بأن يكون المكرّر ثانياً متعلّقاً بغير ماتعلق به الأول ، وهذا القسم يُسمّى بالترديد ، كقوله : ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [1] ، وقع فيها الترديد أربع مرات .

وجُعل منه قوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [2] ، فإنها وإن تكرّرت نيِّفاً وثلاثين مرة ، فكلّ واحدة تتعلّق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها . قاله ابن عبد السلام وغيره .

وإن كان بعضها ليس بنعمة فذكر النقمة للتحذير نعمة . وقد سئل : أيّ نعمة فى قوله : ﴿كلّ من عليها فان﴾ [3] ؟ فأجيب بأجوبة ، أحسنها ، النقل من دار الهموم إلى دار السرور ، وإراحة المؤمن والبارّ من الفاجر .

وكذا قوله : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [4] فى سورة المرسلات ؛ لأنه تعالى ذكره قصصاً مختلفة وأتبع كل قصّة بهذا القول ؛ فكأنه قال عقب كل قصّة : « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِ بهذه القصة » .

وكذا قوله فى سورة الشعراء : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [5] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ، كرّرت ثماني مرّات ، كلّ مرة عقب كل قصة ، فالإشارة فى كلٍّ واحدة بذلك إلى قصة النبيّ المذكور قبلها وما اشتملت عليه من الآيات والعبر .

وبقوله : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، إلى قومه خاصة ، ولمّا كان مفهومه أنّ الأقل من قومه آمنوا ، أتى بوصفى العزيز الرحيم للإشارة إلى أنّ العزة على من لم يؤمن منهم ، والرحمة لمن آمن .

---

(١) النور ٣٥ (٢) الرحمن ١٣، ١٦، ١٨، ... (٣) المرسلات ١٩، ٢٤، ...
(٤) الرحمن ٢٦
(٥) الشعراء ٨ ، ٦٧ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٩٠

وكذا قوله فى سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (١) ، قال الزمخشرى : كرّر ليجدّدوا عند سماع كلّ نبأ منها اتعاظاً وتنبيهاً ، وإنّ كلاًّ من تلك الأنباء مستحقٌّ لاعتبار يختص به ، وأن ينبّهوا كيلا يغلبهم السرور والغفلة .

قال فى عروس الأفراح : فإن قلت : إذا كان المراد بكلّ ماقبله، فليس ذلك بإطناب ؛ بل هى ألفاظ ؛ كلٌّ أريد به غير ماأريد بالآخر . قلت : إذا قلنا العبرة بعموم اللفظ ، فكلّ واحد أريدبه ماأريد الآخر ، ولكن كُرِّر ليكون نصًّا فيما يليه وظاهراً فى غيره . فإن قلتَ : يلزم التأكيد ، قلت : والأمر كذلك ، ولايرد عليه أن التأكيد لايزاد به عن ثلاثة ؛ لأن ذاك فى التأكيد الذى هو تابع ، أماذكر الشئ فى مقامات متعدّدة أكثر من ثلاثة فلا يمتنع . انتهى .

ويقرُب من ذلك ماذكره ابن جرير فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَافِى الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً ﴾ (٢) ، ﴿ وَلِلَّهِ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ ، قال : فإن قيل : ما وجه تكرار قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأرْضِ ﴾ فى آيتين إحداهما فى أثر الأخرى ؟ قلنا : لاختلاف معنى الخبرَيْن عمَّا فى السموات والأرض ، وذلك أنّ الخبر عنه فى إحدى الآيتين ذكرُ حاجته إلى بارئه ، وغنى بارئه عنه ، وفى الأخرى حفظ بارئه إياه وعلمه به وبتدبيره قال : فإن قيل : أفلا قيل : « وَكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيد أَوَ كَفَى بِاللهِ وَكِيلاً » ؟ قيل : ليس فى الآية الأولى مايصلحُ أن تختم بوصفه معه بالحفظ والتدبير (٣) انتهى .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (٤) ، قال الراغب : الكتاب الأوّل ما كتبوه بأيديهم المذكور فى قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ (٥) ،

---

(١) القمر ١٧ — (٢) النساء ١٣١، ١٣٢ — (٣) تفسير الطبرى ٣ : ٢٩٧

(٤) آل عمران ٧٨ — (٥) البقرة ٧٩

والكتاب الثانى التوراة ، والثالث الجنس ، كتب الله كلها ، أى ماهو من شئ من كتُب الله وكلامه .

ومن أمثلة مايُظَنُّ تكراراً، وليس منه ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [1] إلى آخرها ، فإن «لا أعبد ما تعبدون» أى فى المستقبل «ولا أنتم عابدون» ، أى فى الحال «ما أعبد» فى المستقبل «ولا أنا عابد» ، أى فى الحال ما عبدتم فى الماضى ، «ولا أنتم عابدون» أى فى المستقبل « ما أعبد» أى فى الحال . فالحاصل أن القصد نفى عبادته لآلهتهم فى الأزمنة الثلاثة .

وكذا ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [2] ، ثم قال : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [3] ، ثم قال : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [4] ؛ فإن المراد بكلّ واحد من هذه الأذكار غير المراد بالآخر ، فالأول الذكر فى مُزدَلفة عند الوقوف بقُزَح ، وقوله : ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ إشارة إلى تكرّره ثانياً وثالثاً ، ويحتمل أن يراد به طواف الإفاضة، بدليل تعقيبه بقوله : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ﴾ . والذكر الثالث إشارة إلى رَمْى جمرة العقبة ، والذكر الأخير لرمى أيام التشريق .

ومنه تكرير حرف الإضراب فى قوله : ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [5] ، وقوله : ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [6] .

ومنه قوله : ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [7] ، ثم قال : ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [8] فكرّر الثانى ليعمَّ كل مطلقة ، فإنَّ الآية الأولى فى المطلّقة قبل الفرض

---

(١) الكافرون ١ ، ٢ (٢) البقرة ١٩٨ (٣) البقرة ٢٠٠
(٤) البقرة ٢٠٣ (٥) الأنبياء ٥ (٦) النمل ٦٦
(٧) البقرة ٢٣٦ (٨) البقرة ٢٤١

والمسيس خاصّة ؛ وقيل لأن الأولى لا تُشعر بالوجوب ، ولهذا لما نزلت قال بعض الصحابة: إن شئت أحسنت ، وإن شئت فلا، فنزلت الثانية ، أخرجه ابن جرير .

ومن ذلك تكرير الأمثال كقوله : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ (١) .

وكذلك ضرب مثل المنافقين أوّل البقرة بالمستوقِد ناراً ، ثم ضربه بأصحاب الصَّيِّب . قال الزمخشريّ : والثانى أبلغُ من الأوّل، لأنه أدلّ على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ؛ قال : ولذلك أُخِّر ، وهم يتدرّجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ .

ومن ذلك تكرير القصص ، كقصّة آدم وموسى ونوح وغيرهم من الأنبياء ، قال بعضهم : ذكر الله موسى فى مائة وعشرين موضعاً من كتابه . وقال ابن العربىّ فى القواصم : ذكر الله قصّة نوح فى خمس وعشرين آية ، وقصّة موسى فى تسعين آية .

وقد ألّف البَدْر بن جماعة كتاباً سمّاه « المقتنص فى فوائد تكرار القصص » وذكر فى تكرير القصص فوائد :

منها أنّ فى كل موضع زيادة شىء لم يذكر فى الذى قبله ، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة ، وهذه عادة البُلغاء .

ومنها أنّ الرجل كان يسمع القصّة من القرآن ، ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون مانزل بعد صدور مَنْ تقدّمهم ؛ فلولا تكرار القصص لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصّة عيسى إلى قوم آخرين ، وكذا سائر القصص ؛ فأراد الله اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة لقومٍ وزيادة تأكيد لآخرين .

ومنها أنّ فى إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة وأساليب مختلفة مالا يخفى من الفصاحة .

---

(١) فاطر ١٩ — ٢٣

ومنها أنّ الدواعى لاتتوفّر على نقلها كتوفّرها على نقل الأحكام ؛ فلهذا كرّرت القصص دون الأحكام .

ومنها أنّه تعالى أنزل هذا القرآن ، وعَجَز القومُ عن الإتيان بمثله ، بأىّ نظم جاءوا ، ثمّ أوضح الأمر فى عجزهم ؛ بأن كرّر ذكر القصة فى مواضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، أى بأىّ نظم جاءوا ، وبأىّ عبارة عبّروا .

ومنها أنه لما تحدّاهم قال : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ [1] ، فلوذكرت القصة فى موضع واحد واكتُفِىَ بها لقال العربىّ : إيتونا أنتم بسورة من مثله، فأنزل لها سبحانه وتعالى فى تعداد السوّر دفعاً لحجّتهم من كلّ وجه.

ومنها أن القصة لما كرّرت كان فى ألفاظها فى كلّ موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير ، وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى ، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب فى إخراج المعنى الواحد فى صورٍ متباينة فى النّظم وجذب النفوس إلى سماعها لما جُبِلت عليه من حب التنقّل فى الأشياء المتجدّدة واستلذاذها بها ، وإظهار خاصة القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هُجْنة فى اللّفظ ، ولا ملل عند سماعه ؛ فباين ذلك كلامَ المخلوقين .

وقد سُئِل : ما الحكمة فى عدم تكرير قصة يوسف وسوقها مساقاً واحداً فى موضع واحد دون غيرها من القصص ؟ وأجيب بوجوه :

أحدها : أن فيها تشبيبَ النسوة به ، وحال امرأة ونسوة افتتنوا بأبدع الناس جمالاً ، فناسب عدم تكرارها لما فيه من الإغضاء والسّتر ، وقد صحّح الحاكم فى مستدركه حديث النهى عن تعليم النساء سورة يوسف .

ثانياً : أنها اختصّت بحصول الفَرَج بعد الشدّة ، بخلاف غيرها من القصص ، فإن مآلها إلى الوبال كقصة إبليس ، وقوم نوح وهود وصالح وغيرهم ، فلمّا اختصّت بذلك اتفقت الدواعى على نقلها لخروجها عن سمت القصص .

---

(١) البقرة ٢٣

ثالثها : قال الأستاذ أبو إسحاق الاسفراينى : إنّما كرّر الله قصص الأنبياء وساق قصة يوسف مساقاً واحداً إشارة إلى عجز العرب ؛ كأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : إنّ كان من تلقاء نفسى ، فافعلوا فى قصة يوسف مافعلت فى سائر القصص .

قلت : وظهر لى جواب رابع ، وهو أنّ سورة يوسف نزلتْ بسبب طلب الصحابة أن يقصّ عليهم ، كما رواه الحاكم فى مستدرَكه ، فنزلت مبسوطة تامّة ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصّة وترويح النفس بها والإحاطة بطرفيها .

وجواب خامس ، وهو أقوى ما يجاب به ، أنّ قصص الأنبياء إنما كرّرت ؛ لأن المقصود بها إفادة إهلاك مَنْ كذّبوا رسلهم ، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلما كذبوا أنزلت قصّة منذرة بحلول العذاب ، كما حلّ على المكذبين ، ولهذا قال تعالى فى آيات : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) ، ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ (٢) ، وقصّة يوسف لم يُقصد منها ذلك .

وبهذا أيضاً يحصل الجواب عن حكمة عدم تكرير قصّة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين وقصّة موسى مع الخضر وقصّة الذّبيح .

فإن قلت : قد تكررت قصة ولادة يحي و ولادة عيسى مرتين ، وليست من قبيل ماذكرت . قلت : الأولى فى سورة « كهيعص » ، وهى مكية،أنزلت خطاباً لأهل مكة ، والثانية فى سورة آل عمران ، وهى مدنية أنزلت خطاباً لليهود ولنصارى نجْران حين قدموا ، ولهذا اتّصل بها ذكر المحاجّة والمباهلة .

* * *

النوع الخامس — الصفة

وترد لأسباب :

أحدها : التخصيص فى النكرة ، نحو ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ (٣) .

الثانى : التوضيح فى المعرفة ، أى زيادة البيان، نحو ﴿ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴾ (٤).

---

(١) الأنفال ٣٨ (٢) الأنعام ٦ (٣) النساء ٩٢

(٤) الأعراف ١٥٨

الثالث : المدح والثناء ومنه صفات الله تعالى ، نحو ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾(١) ، ﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾(٢) .

ومنه ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾(٣) ،فهذا الوصف للمدح ،وإظهار شرف الإسلام والتعريض باليهود وأنهم بُعَداء عن ملة الإسلام الذى هو دين الأنبياء كلهم ، وأنهم بمعزل عنها . قاله الزمخشرى .

الرابع : الذم ،نحو ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾(٤) .

الخامس : التأكيد لرفع الإيهام ، نحو ﴿ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾(٥) ، فإن «إلاهين» للتثنية ، فاثنين بعده صفة مؤكدة للنهى عن الإشراك ، ولإفادة أن النهى عن «إلاهين» ، إنما هو لمحض كونهما اثنين فقط ، لا لمعنى آخر من كونهما عاجزين أو غير ذلك ، ولأن الوحدة تطلق ويراد بها النوعية كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما نحن وبنو المطلب شيء واحد » وتطلق ويراد بها نفى العدة ، فالتثنية باعتبارها ، فلو قيل « لا تتخذوا إلهين » فقط لتُوهِّم أنه نهى عن اتخاذ جنسين آلهة ، وإن جاز أن يُتخذ من نوع واحد عددًا آلهة ، ولهذا أُكد بالوحدة قوله : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾(٦) .

ومثله : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾(٧) ، على قراءة تنوين « كل » وقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾(٨) ، فهو تأكيد لرفع توهم تعدد النفخة ، لأن هذه الصيغة قد تدل على الكثرة بدليل ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾(٩) .

ومن ذلك قوله : ﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ ﴾(١٠) ، فإن لفظ « كانتا » تفيد التثنية

---

(١) الفاتحة ١ــ٤
(٢) الحشر ٢٤
(٣) المائدة ٤٤
(٤) النحل ٩٨
(٥) النحل ٥١
(٦) الأنعام ١٩
(٧) المؤمنون ٢٧
(٨) الحاقة ١٣
(٩) ابراهيم ٣٤
(١٠) النساء ١٧٦

فتفسيره باثنتين لم يُفِد زيادة عليه .

وقد أجاب عن ذلك الأخفش والفارسيّ بأنه أفادالعدد المحض مجرّداً عن الصفة ؛ لأنه قد كان يجوز أن يقال: « فإن كانتا صغيرتين أو كبيرتين أو صالحتين أو غير ذلك من الصفات» ، فلما قال « اثنتين » ، أفهم أن فرض الثنتين تعلّق بمجرد كونهما ثنتين فقط ، وهى فائدة لاتحصل من ضميرالمثنى . وقيل أراد : « فإن كانتا اثنتين فصاعدا » ، فعبّر بالأدنى عنه وعمّا فوقه اكتفاء ، ونظيره : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ ﴾ [1] ، والأحسن أن الضمير عائد على الشهيدين المطلقين .

ومن الصفات المؤكدةقوله : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [2] ، فقوله « يطير » لتأكيد أن المراد بالطائر حقيقته ، فقد يطلق مجازاً على غيره،وقوله : « بجناحيه » لتأكيد حقيقة الطيران ، لأنه يطلق مجازاً على شدّة العدو والإسراع فى المشى .

ونظيره ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ [3] ، لأن القول يطلق مجازاً على غير اللسان بدليل ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [4] .

وكذا ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [5] ، لأن القلب قد يطلق مجازاً على العين كما أطلقت العين مجازاً على القلب فى قوله : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ [6] .

قاعدة

الصفة العامة لاتأتى بعد الخاصة ، لايقال : رجل فصيح متكلّم ، بل متكلّم فصيح وأشكل على هذه قوله تعالى فى إسماعيل : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [7] وأجيب أنه حال لاصفة ، أى مرسلًا فى حال نبوّته . وقد تقدّم فى نوع التقديم والتأخيرأمثلة من هذه

قاعدة

إذا وقعت الصّفة بعد متضايفين أولّهما عدد جاز إجراؤها على المضاف، وعلى المضاف

---

(١) البقرة ٢٨٢ (٢) الأنعام ٣٨ (٣) الفتح ١١
(٤) المجادلة ٨ (٥) الحج ٤٦ (٦) الكهف ١٠١
(٧) مريم ٥١

إليه ، فمن الأول ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾[1] ، ومن الثانى ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾[2] .

فائـدة

إذا تكررت النعوت لواحد ، فالأحسن إنْ تباعد معنى الصفات العطفُ ، نحو ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾[3] ، وإلاّ تركه ، نحو ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾[4] .

فائـدة

قطع النعوت فى مقام المدح والذَّم أبلغ من أجرائها ، قال الفارسىّ : إذا ذُكرت صفاتٌ فى معرض المدح أو الذم ، فالأحسن أن يخالَف فى إعرابها ؛ لأن المقام يقتضى الإطناب، فإذا خولف فى الإعراب كان المقصود أكمل ، لأن المعانىَ عند الاختلاف تتنوّع وتتفنّن ، وعند الاتحاد تكون نوعاً واحداً .

مثاله فى المدح ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾[5] ، ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾[6] ، إلى قوله: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ ﴾[6] .

وقرئ شاذًا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ برفع « ربّ » ونصبه .

ومثاله فى الذمّ ﴿ وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾[7] .

---

(١) الملك ٣ — (٢) يوسف ٤٣ — (٣) الحديد ٣

(٤) القلم ١٠ ـ ١٣ — (٥) النساء ١٦٢ — (٦) البقرة ١٧٧

(٦) البقرة ١٧٧ — (٧) المسد ١ — (١٤ الإتقان ج ٣)

النوع السادس ـ البدل

والقصد به الإيضاح بعد الابهام ، وفائدته البيان والتأكيد ، أمّا الأوّل فواضح أنك إذا قلت : « رأيت زيداً أخاك » بيّنت أنك تريد بزيد الأخ لا غير ، أمّا التأكيد فلأنّه على نيّة تكرار العامل ؛ فكأنه من جملتين ، ولأنه دلّ على ما دلّ عليه الأول ؛ إمّا بالمطابقة فى بدل الكلّ ، أوْ بالتضمنّ فى بدل البعض ، أو بالالتزام فى بدل الاشتمال .

مثال الأول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) ، ﴿ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ ﴾ (٢) ، ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (٣) .

ومثال الثانى : ﴿ وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (٤) . ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ (٥) .

ومثال الثالث : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ (٦) ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (٧) ، ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ﴾ (٨) ، ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ (٩)

وزاد بعضهم بدل الكلّ من البعض ، وقد وجدتُ له مثالا فى القرآن ، وهو قوله : ﴿ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً * جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ (١٠) ، فـ « جنات عدن » بدل من الجنّة التى هى بعض ، وفائدته تقرير أنها جنات كثيرة لا جنّة واحدة ، قال ابن السِّيد : وليس كلُّ بدل يقصَد به رفعُ الإشكال الذى يعرض فى المبدل منه ، بل من البدل مايراد به التأكيد ، وإن كان ما قبله غنيّاً عنه ، كقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِراطِ اللهِ ﴾ (٢) ، ألا ترى أنّه لو لم يذكر الصراط الثانى لم يشكّ أحدٌ فى أنّ

---

(١) الفاتحة ٦ ، ٧ (٢) الشورى ٥٢ ، ٥٣ (٣) العلق ١٥ ، ١٦
(٤) آل عمران ٩٧ (٥) البقرة ٢٥١ (٦) الكهف ٦٣
(٧) البقرة ٢١٧ (٨) البروج ٤ ، ٥ (٩) الزخرف ٣٣
(١٠) مريم ٦٠ ، ٦١

الصراط المستقيم ، هو صراط الله ! وقد نصّ سيبويه ، على أنّ من البدل ، ما الغرضُ منه التأكيد. انتهى.

وجعل منه ابنُ عبد السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ [(١)] ، قال : ولا بيان فيه ؛ لأن الأب لا يلتبس بغيره ، ورُدّ بأنه يطلق على الجدّ ، فأبدل لبيان إرادة الأب حقيقة .

* * *

النوع السابع — عطف البيان

وهو كالصّفة فى الإيضاح ، لكن يفارقها فى أنه وضع ليدلّ على الإيضاح باسم مختصٍّ به بخلافها ؛ فإنها وضعت لتدلّ على معنًى حاصل فى متبوعها .

وفرّق ابن كَيْسان بينه وبين البدل ، بأنّ البدل هو المقصود وكأنك قرّرته فى موضع المبدل منه ، وعطف البيان وما عطف عليه ، كلٌّ منهما مقصود .

وقال ابن مالك فى شرح الكافية : عطف البيان يجرى مجرى النّعت فى تكميل متبوعه ، ويفارقه فى أن تكميلَهُ متبوعه بشرحٍ وتبيين ، لا بدلالةٍ على معنى فى المتبوع ، أو سببيّة . ومجرى التأكيد فى تقوية دلالته ، ويفارقه فى أنه لا يرفع توهّم مجاز ، ومجرى البدل فى صلاحيّته للاستقلال ، ويفارقه فى أنه غير منوىّ الاطراح. ومن أمثلته ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [(٢)] ، ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ [(٣)] .

وقد يأتى لمجرّد المدح بلا إيضاح ، ومنه ﴿ جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ [(٤)] ، فالبيت الحرام عطف بيان للمدح لا للإيضاح .

* * *

النوع الثامن — عطف أحد المترادفين على الآخر

والقصد منه التأكيد أيضاً ، وجعل منه ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي ﴾ [(٥)] ، ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ [(٦)] .

---

(١) الأنعام ٧٤ (٢) آل عمران ٩٧ (٣) النور ٣٥
(٤) المائدة ٩٧ (٥) يوسف ٨٦ (٦) آل عمران ١٤٦

﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [١] ، ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [٢] ، ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [٣] ، قال الخليل : العوج والأمت بمعنى واحد ، ﴿ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ [٤] ، ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [٥] ، ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [٦] ، ﴿ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [٧] ، ﴿ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ [٨] ، ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [٩] ، فإنّ « نصب » كلغب وزناً ومعنى ، ﴿ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [١٠] ، ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ [١١] ، قال ثعلب : هما بمعنى .

وأنكر المبرّد وجود هذا النوع فى القرآن ، وأوّل ماسبق على اختلاف المعنيين .

وقال بعضهم : المخلص فى هذا أن تعتقد أن مجموع المترادفين يحصّل معنًى لا يوجد عند انفرادهما ، فإنّ التركيب يحدث معى زائداً ، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى فكذلك كثرة الألفاظ .

* * *

النوع التاسع — عطف الخاص على العام

وفائدته التنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنس العام ، تنزيلًا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات .

وحكى أبو حيان عن شيخه أبى جعفر بن الزبير أنه كان يقول : هذا العطف يسمى بالتجريد ، كأنّه جرّد من الجملة وأفرد بالذكر تفصيلاً .

ومن أمثلته : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ [١٢] ، ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [١٣] ، ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [١٤] ، ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [١٥] ، فإن إقامتها من جملة التمسّك بالكتاب ، وخصّت

---

(١) طه ١١٢ — (٢) طه ٧٧ — (٣) طه ١٠٧
(٤) التوبة ٧٨ والزخرف ٨٠ — (٥) المائدة ٤٨ — (٦) المدثر ٢٨
(٧) البقرة ١٧١ — (٨) الأحزاب ٦٧ — (٩) فاطر ٣٥
(١٠) البقرة ١٥٧ — (١١) المرسلات ٦ — (١٢) البقرة ٢٣٨
(١٣) البقرة ١٥٧ — (١٤) آل عمران ١٠٤ — (١٥) الأعراف ١٧٠

بالذكر إظهاراً لمرتبتها، لكونها عماد الدين، وخُصّ جبريل وميكائيل بالذكر ردًّا على اليهود فى دعوى عداوته، وضمّ إليه ميكائيل لأنّه ملَك الرزق الذى هو حياة الأجساد، كما أنّ جبريل ملَك الوحى الذى هو حياة القلوب والأرواح.

وقيل إن جبريل وميكائيل لمّا كانا أميرِي الملائكة لم يدخلا فى لفظ الملائكة أولا، كما أنّ الأمير لا يدخل فى مسمّى الجند. حكاه الكرْمانى فى العجائب.

ومن ذلك ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾[1]. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[2] بناء على أنه لا يختص بالواو، كما هو رأىُ ابن مالك فيه وفيما قبله، وخُصّ المعطوف فى الثانية بالذكر تنبيهاً على زيادة قبحه.

تنبيه

المراد بالخاصّ والعام هنا ما كان فيه الأول شاملاً الثانى، لا المصطلح عليه فى الأصول.

* * *

النوع العاشر — عطف العام على الخاص

وأنكر بعضهم وجوده فأخطأ، والفائدة فيه واضحة وهو التعميم، وأفرد الأول بالذكر اهتماماً بشأنه.

ومن أمثلته: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾[3]، والنسك العبادة، فهو أعمّ، ﴿آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[4]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[5]، ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[6].

وجعل منه الزمخشرى ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[7]، بعد قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾[7].

---

(١) النساء ١١٠ (٢) الأنعام ٩٣ (٣) الأنعام ١٦٢
(٤) الحجر ٨٧ (٥) نوح ٢٨ (٦) التحريم ٤
(٧) يونس ٣١

النوع الحادى عشر : الإيضاح بعد الإبهام

قال أهل البيان : إذا أردت أن تبهم ثم توضّح ؛ فإنك تُطنب ؛ وفائدته ؛ إما رؤيةُ المعنى فى صورتين مختلفتين : الإبهــام والإيضاح ، أو لتمكن المعنى فى النفس تمكناً زائداً لوقوعه بعد الطلب ؛ فإنه أعزّ من المنساق بلا تعبٍ ، أو لتكمل لذّة العلم به ؛ فإنّ الشيء إذا علم من وجه ما، تشوّقت النفس للعلم به من باقى وجوهه وتألّمت ، فإذا حَصَلَ العلم من بقية الوجوه ؛ كانت لذّته أشدّ من علمه من جميع وجوهه دفعة واحدة .

ومن أمثلته : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [١] ، فإنّ ﴿اشرح﴾ يفيد طلب شرح شيء ما ، و«صدرى» يفيد تفسيره وبيانه. وكذلك ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [١] ، والمقام يقتضى التأكيد للإرسال المؤذن بتلقى الشدائد . وكذلك ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [٢] ، فإنّ المقام يقتضى التاكيد لأنه مقام امتنان وتفخيم . وكذا ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ [٣] .

ومنه التفصيل بعد الإجمال، نحو ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً ﴾ [٤] ، إلى قوله : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [٤] ، وعكسه كقوله : ﴿ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [٥] أعيد ذكر «العشرة» لرفع توهّم أن الواو فى « وسبعة » ، بمعنى « أو » ، فتكون الثلاثة داخلة فيها ، كما فى قوله : ﴿ خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ [٦] ، فإنّ من جملتها اليومين المذكورين أولا ، وليست أربعةً غيرهما . وهذا أحسن الأجوبة فى الآية ، وهو الذى أشار إليه الزمخشرى ورجّحه ابن عبد السلام وجزم به الزّملكانىّ فى « أسرار التنزيل » ، قال : ونظيره ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ [٧] ، فإنّه رافع لاحتمال أن تكون

---

(١) الشرح ١ — (٢) طه ٢٥ ٢٦ — (٣) الحجر ٦٦
(٤) التوبة ٣٦ — (٥) البقرة ١٩٦ — (٦) فصلت ٩ ١٠
(٨) الأعراف ١٤٢

تلك العشرة من غير مواعدة . قال ابن عسكر[١] : وفائدة الوعد بثلاثين أولا، ثم بعشر، ليتجدّد له قرب انقضاء المواعدة ، ويكون فيه متأهبا مجتمع الرأى ، حاضر الذهن ، لأنه لو وعد بالأربعين أولا كانت متساوية ، فلما فُصلت استشعرت النفس قرب التمام ، وتجدّد بذلك عزم لم يتقدم .

وقال الكرمانىّ فى العجائب: فى قوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ، ثمانية أجوبة : جوابان من التفسير وجواب من الفقه ، وجواب من النحو ، وجواب من اللغة ، وجواب من المعنى ، وجوابان من الحساب ، وقد سقتُها فى «أسرار التنزيل» .

* * *

النوع الثانى عشر : التفسير

قال أهل البيان : وهو أن يكون فى الكلام لَبْس وخفاء ، فيؤتَى بما يزيله ويفسّره .

ومن أمثاته : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[٢] .

فقوله : « إذا مسّه » الخ تفسير للهلوع ، كما قال أبو العالية وغيره .

﴿ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾[٣]، قال البيهقى ، فى « شرح الأسماء الحسنى » : قوله : ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ﴾ تفسير للقيّوم .

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ ... ﴾[٤] ، الآية ، فيذبحون وما بعده تفسير للسوم .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ... ﴾[٥] ، الآية، فـ«خلقه» وما بعده تفسير للمثل .

﴿ لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾[٦] و « تلقون » تفسير لاتخاذهم أولياء .

﴿ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ... ﴾[٧] الآية ، قال محمد بن كعب القرظىّ : لم يلد

---

(١) لعله محمد بن على بن الخضر الساقى ، صاحب كتاب « المشرع الروى فى الزيادة على غريبى الهروى» توفى سنة ٦٣٦ . قضاة الأندلس ٣٢١
(٢) المعارج ١٩ — ٢١
(٣) البقرة ٢٥٥ (٤) البقرة ٤٩ (٥) آل عمران ٥٩ (٦) الممتحنة ١ (٧) الإخلاص ٢،٣

إلى آخره تفسير للصمد، وهو فى القرآن كثير ، قال ابن جنّى : ومتى كانت الجملة تفسيراً لم يحسن الوقف على ماقبلها دونها، لأن تفسير الشىء لاحق به ومتمّم له وجارٍ مجرى بعض أجْزَائِه.

* * *

النوع الثالث عشر : وضع الظاهر موضع المضمر

ورأيت فيه تأليفاً مفرداً لابن الصائغ ، وله فوائد :

منهـا زيادة التقرير والتمكين ، نحو : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ ﴾[1]، ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[2]، ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[3]، ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ .

ومنها : قصد التعظيم ، نحو : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[4]، ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[5]، ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾[6]، ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾[7].

ومنها : قصد الإهانة والتحقير، نحو : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[8]، ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[9].

ومنها: إزالة اللّبس حيث يوهم الضمير أنه غير الأوّل ، نحو : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾[10]، لو قال: « تؤتيه » لأوهم أنه الأول، قاله ابن الخشّاب . ﴿ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾[11] لأنه لو قال « عليهم دائرته » لأوهم أن الضمير عائد إلى الله تعالى. ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾[12]، لم يقل: « منه » لئلاّ يُتوهّم عود الضمير إلى الأخ ، فيصير كأنه مباشر بطلب خروجها ،

---

(١) الإخلاص ١ ، ٢ — (٢) الإسراء ١٠٥ — (٣) غافر ٦١
(٤) آل عمران ٧٨ — (٥) المجادلة ٢٢ — (٦) الإسراء ٧٨
(٧) الأعراف ٢٦ — (٨) المجادلة ١٩ — (٩) الأسراء ٥٣
(١٠) آل عمران ٢٦ — (١١) الفتح ٦ — (١٢) يوسف ٧٦

وليس كذلك لما فى المباشرة من الأذى الذى تأباه النفوس الأبيّة فأعيد لفظ « الظاهر » لنفى هذا ، ولم يقل: « من وعائه »، لئلا يُتَوهم عود الضمير إلى يوسف ؛ لأنّ العائد عليه ضمير « استخرجها » .

ومنها : قصد تربية المهابة ، وإدخال الرّوع على ضمير السامع ، بذكر الاسم المقتضى لذلك ، كما تقول : الخليفة أمير المؤمنين يأمرك بكذا ، ومنه ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾(١)، ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾(٢) .

ومنها:قصد تقوية داعية المأمور ، ومنه﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٣) .

ومنها تعظيم الأمر، نحو﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾(٤)، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾(٥)، ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾(٦) .

ومنها : الاستلذاذ بذكره ، ومنه ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾(٧) ، لم يقل : « منها » ، ولهذا عدل عن ذكر الأرض إلى الجنة .

ومنها : قصدُ التوصّل من الظاهر إلى الوصف ، ومنه ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾(٧)، بعد قوله:﴿ إِنِّي رَسُولُ اللهِ ﴾(٨)، لم يقل: « فآمنوا بالله وبى » ليتمكّن من إجراء الصفات التى ذكرها ، وليعلم أنّ الذى وجب الإيمان به والاتباع له هو مَنْ وصف بهذه الصفات،ولو أتى بالضمير لم يمكن ذلك لأنه لا يُوصف .

ومنها : التنبيه على علّية الحكم ، نحو ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ

---

(١) النساء ٥٨ (٢) النحل ٩٠ (٣) آل عمران ١٥٩
(٤) العنكبوت ١٩ (٥) العنكبوت ٢٠ (٦) الإنسان ١ ، ٢
(٧) الزمر ٧٤ (٨) الأعراف ١٥٨

لهم﴾[1] ، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾[2] ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾[3] ، لم يقل : « لهم » إعلاماً بأن من عادى هؤلاء فهو كافر، وإنّ الله إنما عاداه لكفره : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾[4]، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[5] ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[6] .

ومنها : قصد العموم، نحو ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ﴾[7] ، لم يقل . « إنها » لئلاّ يفهم تخصيص ذلك بنفسه ، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[8] ، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾[9] .

ومنها : قصد الخصوص ، نحو ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾[10] ، لم يقل : « لك » تصريحاً بأنه خاصٌّ به .

ومنها : الإشارة إلى عدم دخول الجملة فى حكم الأولى ، نحو ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾[11] ، فإن « ويمح الله » استئناف ، لا داخلٌ فى حكم الشرط .

ومنها : مراعاة الجناس ، ومنه : ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...﴾[12] ، السورة، ذكره الشيخ عز الدين ، ومثّله ابن الصائغ بقوله : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[13] ، ثم قال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾[13] ، فإن المراد بالإنسان الأول الجنس ، وبالثانى آدم ، أو مَن يعلّم الكتابة أو إدريس ، وبالثالث أبو جهل .

---

(١) الأعراف ١٦٢ — (٢) البقرة ٥٩ — (٣) البقرة ٥٨
(٤) يونس ١٧ — (٥) الأعراف ١٧٠ — (٦) الكهف ٣٠
(٧) يوسف ٥٣ — (٨) النساء ١٥١ — (٩) النساء ٣٧
(١٠) الأحزاب ٥٠ — (١١) الشورى ٢٤ — (١٢) الناس ١
(١٣) العلق ٢ ، ٥ ، ٦

ومنها : مراعاة الترصيع وتوازن الألفاظ فى التركيب ، ذكره بعضهم فى قوله : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾[1] .

ومنها : أن يتحمّل ضميراً لابدّ منه ، ومنه ﴿ أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾[2] لوقال : «استطعماها» لم يصحّ ، لأنهما لم يستطعما القرية ، أو «استطعماهم» فكذلك ، لأن جملة « استطعما » صفة لقرية النكرة ، لا لـ« أهل » ، فلابدّ أن يكون فيها ضمير يعود عليها ، ولا يمكن إلا مع التصريح بالظاهر . كذا حرّره السبكيّ فى جواب سؤال سأله الصلاح الصفدى فى ذلك حيث قال :

أَسيّدنا قاضى القُضاة ومَنْ إذا ... بدَا وجهُه استحيا له القمرانِ .
ومَنْ كَفُّه يوم النَّدَى ويراعُه ... على طرسِه بحرانِ يلتقيانِ
ومن إن دجت فى المشكلات مسائلٌ ... جَلاَها بفكرٍ دائمِ اللَّمعَانِ
رأيتُ كتابَ الله أكبر معجزٍ ... لأفضل مَنْ يُهْدَى به الثقلانِ
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره ... بإيجاز ألفاظٍ وبَسْط معانِ
ولكنّنى فى الكهف أبصرت آيةً ... بها الفِكْرُ فى طول الزّمان عَنَانِى .
وما هى إلا « استطعما أهلها » فقد ... نرَى استطعماهم مثله بِبَيان
فما الحكمةُ الغرّاء فى وضع ظاهرٍ ... مكان ضمير إن ذاك لِشانِ
فارشدْ عَلَى عادات فضلك حَيْرَتى ... فمالِى بهـا عند البيان يدانِ

تنبيـــه

إعادة الظاهر بمعناه أحسن من إعادته بلفظه كما مرّ فى آيات : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾[3] ، ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[4] ، ونحوها .

ومنه ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم

---

(١) البقرة ٢٨٢ (٢) الكهف ٧٧ (٣) الأعراف ١٧١
(٤) الكهف ٣٠

مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾[1]، فإنّ إنزال الخير مناسب للربوبية ، وأعاده بلفظ « الله » لأن تخصيص الناس بالخير دون غيرهم مناسب للإلهية. لأن دائرة الربوبية أوسع .

ومنه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[2] . وإعادته فى جملة أخرى أحسنُ منه فى الجملة الواحدة لانفصالها ، وبعد الطول أحسن من الإضمار لئلا يبقى الذهن متشاغلاً بسبب ما يعود عليه ، فيفوته ما شرع فيه ، كقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾[3] بعدقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾[4] .

* * *

النوع الرابع عشر : الإيغال ، وهو الإمعان

وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتمّ المعنى بدونها . وزعم بعضهم أنه خاصّ بالشعر، ورُدّ بأنه وقع فى القرآن من ذلك ﴿ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾[5] ،فقوله : « وهم مهتدون » إيغال،لأنه يتمّ المعنى بدونه ، إذ الرسول مهتدٍ لامحالة ، لكن فيه زيادة مبالغة فى الحث على اتّباع الرسل والترغيب فيه .

وجعل ابن أبى الإصبع منه ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾[6] ، فإن قوله : « إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » زائد على المعنى مبالغة فى عدم انتفاعهم.﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[7] زائد على المعنى لمدح المؤمنين والتعريض بالذم لليهود ، وأنهم بعيدون عن الإيقان ،﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾[8] ، فقوله : «مثل ما» إلى آخره إيغال زائد على المعنى لتحقيق هذا الوعد،وأنه واقع معلوم ضرورة لا يرتاب فيه أحد .

---

(١) البقرة ١٠٥ — (٢) الأنعام ١ — (٣) الأنعام ٨٢
(٤) الأنعام ٧٤ — (٥) يس ٢٠ ، ٢١ — (٦) النمل ٨٠
(٧) المائدة ٥٠ — (٨) الذاريات ٢٣

النوع الخامس عشر : التذييل

وهو أن يؤتى بجملة عقب جملة ، والثانية تشتمل على المعنى الأول لتأكيد منطوقه أو مفهومه، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرر عند من فهمه نحو ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وهل نجازى إلا الكفورَ ﴾[1] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾[2] ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾[3]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[4]، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[5].

* * *

النوع السادس عشر — الطرد والعكس

قال الطيبي : وهو أن يؤتى بكلامين، يقرر الأول بمنطوقه مفهومَ الثانى وبالعكس، كقوله: ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾[6] ، فمنطوق الأمر بالاستئذان فى تلك الأوقات خاصة مقرر لمفهوم رفع الجناح فيما عداها ، وبالعكس . وكذا قوله: ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[7] .

قلت : وهذا النوع يقابله فى الإيجاز نوع الاحتباك .

* * *

النوع السابع عشر — التكميل

ويسمى بالاحتراس، وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، نحو ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[8]، فإنه لو اقتصر على « أذلة » لتوهم أنه لضعفهم، فدفعه بقوله : « أعزة » . ومثله ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[9] ، لو اقتصر على «أشداء» لتوهم أنه لغلظهم . ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾[10] ،

---

(١) سبأ ١٧ (٢) الإسراء ٨١ (٣) الأنبياء ٣٤
(٤) آل عمران ١٨٥ (٥) فاطر ١٤ (٦) النور ٥٨
(٧) التحريم ٦ (٨) المائدة ٥٤ (٩) الفتح ٢٩
(١٠) النمل ٢٢ (١١) النمل ١٨

﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [1] ، احتراس لئلا يُتوهم نسبة الظلم إلى سليمان . ومثله ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [2] ، وكذا ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [3] ، فالجملة الوسطى احتراس لئلاّ يُتوهم أن التكذيب مما في نفس الأمر

قال فى عروس الأفراح : فإن قيل : كلّ من ذلك أفاد معنى جديداً ، فلا يكون إطناباً . قلنا : هو إطناب لما قبله من حيث رفع توهّم غيره ، وإن كان له معنى فى نفسه .

* * *

النوع الثامن عشر — التتميم

وهو أن يؤتَى فى كلام لا يوهِم غير المراد بفضلة تفيد نكتة ، كالمبالغة فى قوله : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [4] ، أى مع حب الطّعام ، أى اشتهائه ، فإن الإطعام حينئذ أبلغ وأكثر أجراً ، ومثله : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [5] ، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ﴾ ، فقوله : « وهو مؤمن » تتميم فى غاية الحسن .

* * *

النوع التاسع عشر — الاستقصاء

وهو أن يتناول المتكلّم معنًى فيستقصيه ، فيأتى بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصى جميع أوصافه الذاتية ، بحيث لا يتركُ لمن يتناوله بعده فيه مقالاً ، كقوله تعالى : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ...﴾ [6] ، الآية ، فإنه تعالى لو اقتصر على قوله : « جنة » لكان كافياً ، فلم يقف عند ذلك حتى قال فى تفسيرها : ﴿من نخيل وأعناب﴾ فإن مصاب صاحبها بها أعظم ، ثم زاد ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ، متمّما لوصفها بذلك ، ثم كمّل وصفها بعد التتميمين فقال : ﴿له فيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ، فأتى بكل ما يكون فى الجنان ليشتدّ الأسف على إفسادها ، ثم قال فى وصف صاحبها : ﴿وأصابَهُ الْكِبَرُ﴾ ، ثم استقصى المعنى فى ذلك بما يوجب تعظيم المصاب ، بقوله بعد وصفه بالكبر :

---

(١) النمل ١٨ (٢) الفتح ٢٥ (٣) المنافقون ١
(٤) الإنسان ٨ (٥) البقرة ١٧٧ (٦) البقرة ٢٦٦

﴿ وله ذرّية ﴾ ، ولم يقف عند ذلك حتى وصف الذّرّية بالضعفاء ، ثم ذكر استئصال الجنة التى ليس لهذا المصاب غيرها بالهلاك فى أسرع وقت حيث قال : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ ، ولم يقتصر على ذكره للعلم بأنه لا يحصل سرعة الهلاك ، فقال : ﴿ فيه نار ﴾ ، ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا تفى باحتراقها لما فيها من الأنهار ورطوبة الأشجار ، فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله : ﴿ فاحترقت ﴾ ، فهذا أحسن استقصاء وقع فى كلام وأتمه وأكمله !

قال ابن أبى الإصبع : والفرق بين الاستقصاء والتتميم والتكميل ، أنّ التتميم يرد على المعنى الناقص ليُتمّم ، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمّل أوصافه ، والاستقصاء يرد على المعنى التام الكامل فيستقصى لوازمه وعوارضه وأوصافه وأسبابه ، حتى يستوعب جميع ما تقع الخواطر عليه ، فلا يبقى لأحد فيه مساغ .

* * *

النوع العشرون — الاعتراض

وسمّاه قدامة التفاتاً ، وهو الإتيان بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب فى أثناء كلام أو كلامين اتصلا معنى لنكتة غير دفع الإيهام ، كقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (١) ، فقوله : ﴿ سبحانه ﴾ اعتراض لتنزيه الله سبحانه وتعالى عن البنات ، والشناعة على جاعليها . وقوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (٢) فجملة الاستثناء اعتراض للتبرّك .

ومن وقوعه بأكثر من جملة ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ (٣) ، فقوله : ﴿ نساؤكم ﴾ متصل بقوله : ﴿ فأتوهنّ ﴾ ، لأنه بيان له ، وما بينهما اعتراض للحثّ على الطهارة وتجنب الأدبار . وقوله : ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا ﴾ (٤) ، فيه اعتراض

---

(١) النحل ٥٧ (٢) الفتح ٢٧ (٣) البقرة ٢٢٣
(٤) هود ٤٤

بثلاث جمل ، وهى ﴿ وغيض الماء وقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ ﴾ . قال فى الأقصى القريب : ونكتته إفادة أن هذا الأمر واقع بين القولين لامحالة ، ولو أتى به آخراً لكان الظاهر تأخره ، فبتوسطه ظهر كونه غير متأخر . ثم فيه اعتراض فى اعتراض ، فإنّ « وقُضى الأمر » معترض بين « وغيض » و « واستوت » ، لأن الاستواء يحصل عقب الغيض . وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ [1] ، فيه اعتراض بسبع جمل إذا أعرب حالاً منه .

ومن وقوع اعتراض فى اعتراض ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [2] ، اعترض بين القَسَم وجوابه بقوله ﴿ وإنه لقسم . ﴾ الآية ، وبين القسم وصفته بقوله : ﴿ لو تعلمون ﴾ تعظيما للمقسَم به وتحقيقاً لإجلاله ، وإعلاماً لهم بأن له عظمة لا يعلمونها . قال الطيبىّ فى التبيان : ووجه حسن الاعتراض حسن الإفادة ، مع أن مجيئه مجئ مالا يُترقّب ، فيكون كالحسنة تأتيك من حيث لا تحتسب .

* * *

النوع الحادى والعشرون — التعليل

وفائدته ، التقرير والأبلغية ، فإنّ النفوس أبعث على قبول الأحكام المعلّلة من غيرها ، وغالب التعليل فى القرآن على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى .

وحروفه : اللاّم وإن ، وأنّ ، وإذ ، والباء ، وكى ، ومن ، ولعلّ ، وقد مضت أمثلتها فى نوع الأدوات .

ومما يقتضى التعليل لفظ « الحكمة » كقوله : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ [3] ، وذكر الغاية من الخلق نحو قوله : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [4] ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [5] .

---

(١) الرحمن ٤٦ ـ ٥٤ (٢) الواقعة ٧٥ ـ ٧٧ (٣) القمر ٥
(٤) البقرة ٢٢ (٥) النبأ ٦ ، ٧

النوع السابع والخمسون
فى الخبر والإنشاء

اعلم أن الحذّاق من النحاة وغيرهم وأهل البيان قاطبةً على انحصار الكلام فيهما، وأنه ليس له قسم ثالث.

وادّعى قوم أن أقسام الكلام عشرة: نداء، ومسألة، وأمر، وتشفّع، وتعجّب، وقَسَم، وشرط، ووضع، وشك، واستفهام.

وقيل: تسعة، بإسقاط الاستفهام لدخوله فى المسألة.

وقيل: ثمانية، بإسقاط التشفّع لدخوله فيها.

وقيل: سبعة بإسقاط الشكّ لأنه من قسم الخبر.

وقال الأخفش: هى ستة: خبر، واستخبار، وأمر ونهى، ونداء، وتمنٍّ.

وقال بعضهم: خمسة: خبر، وأمر، وتصريح، وطلب، ونداء.

وقال قوم: أربعة: خبر، واستخبار، وطلب، ونداء.

وقال كثيرون: ثلاثة: خبر، وطلب، وإنشاء، قالوا: لأن الكلام إمّا أن يحتمل التصديق والتكذيب أولا، الأول الخبر، والثانى إن اقترن معناه بلفظه فهو الإنشاء، وإن لم يقترن بل تأخّرَ عنه، فهو الطلب. والمحققون على دخول الطلب فى الإنشاء، وأنّ معنى «اضرب» مثلا وهو طلب الضرب مقترن بلفظه، وأمّا الضرب الذى يوجد بعد ذلك فهو متعلّق الطلب لا نفسه.

وقد اختلف الناس فى حدّ الخبر، فقيل: لا يُحَدّ لعسره، وقيل: لأنه ضرورىّ، لأن الإنسان يفرّق بين الإنشاء والخبر ضرورة، ورجّحه الإمام فى المحصول [1]. والأكثر على حدّه، قال القاضى أبو بكر والمعتزلة: الخبر الكلام الذى يدخله

---

(١) المحصول فى أصول الفقه لفخر الدين محمد بن محمد الرازى

الصدق والكذب ، فأورِدعليه خبر الله تعالى ، فإنه لايكون إلاّ صادقاً ؛ فأجاب القاضى بأنّه يصحّ دخوله لغة .

وقيل : الذى يدخله التصديق والتكذيب ، وهو سالم من الإيراد المذكور .

وقال أبو الحسن البصرىّ : كلام يفيد بنفسه نسبة ؛ فأورِد عليه نحو « قم » ، فإنه يدخل فى الحدّ ، لأن القيام منسوب والطلب منسوب .

وقيل : الكلام المفيد بنفسه إضافةَ أمرمن الأمور إلى أمرٍ من الأمور نفياً، أو إثباتاً .

وقيل : القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفى والإثبات .

وقال المتأخرين : الإنشاء مايحصل مدلوله فى الخارج بالكلام، والخبر خلافه .

وقال بعض من جعل الأقسام ثلاثة : الكلام إنْ أفاد بالوضع طلباً ، فلا يخلو إمّا أن يكون بطلب ذكر الماهيّة ، أو تحصيلها ، أو الكفّ عنها ، والأول الاستفهام ، والثانى الأمر ، والثالث النهى . وإن لم يفد طلباً بالوضع ؛ فإن لم يحتمل الصدق والكذب سُمِّىَ تنبيهاً وإنشاء ، لأنك نبّهت به على مقصودك وأنشأته ، أى ابتكرته من غير أن يكون موجوداً فى الخارج ؛ سواء أفاد طلباً باللازم ؛ كالتمنّى والترجِّى والنداء والقَسَم ، أم لا ، كأنتِ طالق ، وإن احتملهما من حيث هو فهو الخبر .

* * *

فصـــل

القصد بالخبر إفادة المخاطب ، وقد يرد بمعنى الأمر، نحو ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ ﴾[1] ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾[2] .

وبمعنى النهى ، نحو ﴿ لاَ يَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾[3] .

---

(١) البقرة ٢٣٣ (٢) البقرة ٢٢٨ (٣) الواقعة ٧٩

وبمعنى الدعاء ، نحو ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1]، أى أعِنّا ؛ ومنه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[2]، فإنه دعاء عليه ، وكذا ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾[3] .

وجعل منه قوم : ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾[4] ، قالوا : هو دعاء عليهم بضيق صدورهم عن قتال أحدٍ .

ونازع ابنُ العربى فى قولهم : إن الخبر يرد بمعنى الأمر أو النهى ، قال فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾[5] : ليس نفياً لوجود الرَّفث ، بل نفىٌ لمشروعيّته ، فإنّ الرفث يوجد من بعض الناس ، وأخبار الله تعالى لا يجوز أن تقع بخلاف مخبِره ؛ وإنما يرجع النفى إلى وجوده مشروعاً إلى وجوده محسوساً ، كقوله : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾[6] ؛ ومعناه مشروعاً لا محسوساً ، فإنا نجد مطلقات لا يتربّصن ، فعاد النفىُ إلى الحكم الشرعىّ لا إلى الوجود الحسّى . وكذا ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[7] ،أى لا يمسّه أحد منهم شرعاً ، فإن وجد المسّ فعلى خلاف حكم الشرع ، قال : وهذه الدّفينة التى فاتت العلماء ، فقالوا : إن الخبر يكون بمعنى النهى ، وما وجد ذلك قط ، ولا يصّح أن يوجد ؛ فإنهما مختلفان حقيقة ويتباينان وضعاً . انتهى .

فـــرع

من أقسامه على الأصحّ التعجب ، قال ابن فارس[8]: وهو تفضيلُ شىءٍ على أضرابه .

وقال ابن الضائع[9]: استعظام صفة ، خرج بها المتعجّب منه عن نظائره .

وقال الزمخشرىّ : معنى التعجّب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين ؛ لأن التعجّب

---

(١) الفاتحة ٥ (٢) المسد ١ (٣) المائدة ٦٤

(٤) النساء ٩٠ (٥) البقرة ١٩٧ (٦) البقرة ٢٢٨

(٧) الواقعة ٧٩ (٨) هو أحمد بن فارس بن زكريا ، من أكابر أئمة اللغة وحذاقها، وصاحب كتاب « الصاحبي » فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ، توفى سنة ٣٩٥. ابن خلكان ١ : ٣٦

(٩) هو على بن محمد بن على بن يوسف الإشبيلى المعروف بابن الضائع ، أحد علماء العربية بالأندلس . توسنة فى ٦٨٠

لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله .

وقال الرّمانيّ : المطلوب في التعجّب الإبهام ؛ لأن مِنْ شأن النّاس أن يتعجّبوا ممّا لا يعرَف سببه ؛ فكل ما استبهم السبب كان التعجّب أحسن . قال : وأصل التعجّب إنّما هو للمعنى الخفيّ سببه ، والصيغة الدّالّة عليه تسمّى تعجُّباً مجازاً . قال : ومن أجل الإبهام لم تَعمل « نعم » إلاّ في الجنس من أجل التفخيم ؛ ليقع التفسير على نحو التفخيم بالإضمار قبل الذكر .

ثم قد وضعوا للتعجّب صيغاً من لفظه، وهي « ما أَفْعَلَ » و « أَفْعِلْ به » وصيغاً من غير لفظه ، نحو « كَبُرَ » كقوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾[1] ، ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ ﴾[2] ، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ﴾[3] .

قاعــــدة

قال المحققون: إذا ورد التعجّب من الله صُرِف إلى المخاطب ، كقوله: ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[4] ؛ أي هؤلاء يجب أن يتعجّب منهم ؛ وإنما لا يُوصف تعالى بالتعجّب ؛ لأنه استعظام يصحبه الجهل ، وهو تعالى منزّه عن ذلك ، ولهذا تُعبِّر جماعة بالتعجيب بدله ؛ أي أنه تعجيب من الله للمخاطبين . ونظير هذا مجيء الدعاء والترجّي منه تعالى ، إنّما هو بالنظر إلى ما تفهمه العرب ، أي هؤلاء ممّا يجب أن يقال لهم : عندكم هذا ، ولذلك قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[5] : المعنى اذهبا على رجائكما وطمعكما ، وفي قوله: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾[6] ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾[7]: لا نقول هذا دعاء ؛ لأن الكلام بذلك قبيح ، ولكن العرب إنّما تكلّموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم على ما يعنون ، فكأنه قيل لهم : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، أي هؤلاء ممّا وجب هذا القول

---

(١) الكهف ٥ — (٢) الصف ٣ — (٣) البقرة ٢٨
(٤) البقرة ١٧٥ — (٥) طه ٤٤ — (٦) المطففين ١
(٧) النازعات ١٥

لهم ؛ لأن هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشرور والهلكة، فقيل : هؤلاء ممن دخل في الهلكة .

فرع

من أقسام الخبر : الوعد والوعيد، نحو﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ ﴾[1] ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ ﴾[2] ، وفي كلام ابن قتيبة ما يوهم إنه إنشاء .

فرع

من أقسام الخبر النفي ، بل هو شطرُ الكلام كلّه ، والفرق بينه وبين الجحْد، أن الثاني إن كان صادقاً سُمِّيَ كلامه نفياً ولا يسمّى جَحْداً ، وإن كان كاذباً سمِّيَ جحداً ونفياً أيضاً ، فكلُّ جَحْد نفي ، وليس كل نفي جَحْداً ، ذكره أبو جعفر النحاس وابن الشجريّ وغيرهما .

مثال النفي : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾[3] .

ومثال الجحْد نفي فرعون وقومه آيات موسى ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾[4] .

وأدوات النفي : لا ، ولات ، وليس ، وما ، وإن ، ولم ، ولمّا ، وقد تقدّمت معانيها ، وماافترقت فيه في نوع الأدوات.

ونورد هنا فائدة زائدة ، قال الخوييّ : أصل أدوات النفي لا ، وما ، لأنّ النفي إمّا في الماضي وإمّا في المستقبل ، والاستقبال أكثر من الماضي أبداً ، ولا أخفّ من ما ، فوضعوا الأخفّ للأكثر .

ثم إن النفي في الماضي ، إمّا أن يكون نفياً واحداً مستمرّاً، أو نفياً فيه أحكام متعدّدة ،

---

(١) فصلت ٥٣ (٢) الشعراء ٢٢٧ (٣) الأحزاب ٤٠
(٤) النمل ١٣ ، ١٤

وكذلك النفى فى المستقبل؛ فصار النفى على أربعة أقسام، واختاروا له أربع كلمات : ما، ولم، ولن ولا، وأما إنْ ولمّا فليسا بأصلين، فما ولا فى الماضى والمستقبل متقابلان، ولمْ كأنه مأخوذ من لا وما، لأنّ لم نفى للاستقبال لفظاً والمضىّ معنًى، فأخذ اللاّم من « لا » التى هى لنفى المستقبل والميم من « ما » التى هى لنفى الماضى، وجمع بينهما إشارة إلى أن فى « لم » إشارة إلى المستقبل والماضى، وقدم اللاّم على الميم إشارة إلى أن « لا » هى أصل النفى؛ ولهذا يُنفى بها فى أثناء الكلام، فيقال : لم يفعل زيد ولا عمرو، وأمّا « لمّا » فتركيب بعد تركيب، كأنه قال : لم وما لتوكيد معنى النفى فى الماضى.

وتفيد الاستقبال أيضا، ولهذا تفيد « لمّا » الاستمرار.

تنبيهـــات

الأول : زعم بعضهم أن شرط صحة النفى عن الشىء صحّة اتصاف المنفىّ عنه بذلك الشىء، وهو مردود بقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٢)، ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ (٣)، ونظائره، والصّواب أن انتفاء الشىء عن الشىء قد يكون لكونه لا يمكن منه عقلا، وقد يكون لكونه لا يقع منه مع إمكانه.

الثانى : نفى الذات الموصوفة، قد يكون نفياً للصفة دون الذات، وقد يكون نفياً للذّات أيضاً. من الأول ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ (٤)، أى بل هم جسد يأكلونه، ومن الثانى ﴿ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ (٥)، أى لا سؤال لهم أصلاً، فلا يحصل منهم إلحاف، ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (٦)، أى لا شفيع لهم أصلاً، ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (٧)، أى لا شافعين لهم فتنفعهم

---

(١) الأنعام ١٣٢ — (٢) مريم ٦٤ — (٣) البقرة ٢٥٥
(٤) الأنبياء ٨ — (٥) البقرة ٢٧٣ — (٦) غافر ١٨
(٨) المدثر ٤٨

شفاعتهم، بدليل ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [(١)] . ويسمّى هذا النوع عند أهل البديع نفى الشئ بإيجابه . وعبارة ابن رشيق فى تفسيره : أن يكون الكلام ظاهره إيجاب الشئ وباطنه نفيه ، بأن ينفى ماهو من سببه كوصفه وهو المنفىّ فى الباطن . وعبارة غيره أن يُنفى الشئ مقيّداً ، والمراد نفيه مطلقاً مبالغة فى النفى وتأكيداً له ، ومنه ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [(٢)] ، فإن « الإله مع الله » لايكون إلاّ عن غير بُرهان . ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [(٣)] فإنّ قتلهم لايكون إلاّ بغير حقّ . ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [(٤)] فإنها لاعمَد لها أصلاً .

الثالث : قد يُنفى الشئ رأساً لعدم كمال وصفه ، أو انتفاء ثمرته ، كقوله فى صفة أهل النار: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [(٥)] ، فنفى عنه الموت ؛ لأنه ليس بموت صريح ، ونفى عنه الحياة ، لأنها ليست بحياة طيبة ولا نافعة . ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [(٦)] ؛ فإنّ المعتزلة احتجّوا بها على نفى الرؤية ؛ فإن النظر فى قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [(٧)] لايستلزم الإبصارَ . ورُدّ بأن المعنى أنها تنظر إليه بإقبالها عليه ، وليست تبصر شيئاً . ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [(٨)] ؛ فإنه وصفهم أولا بالعلم على سبيل التوكيد القَسَمِىّ ، ثم نفاه آخراً عنهم لعدم جريهم على موجب العلم . قاله السكاكىّ .

الرابع : قالوا : المجاز يصحّ نفيه بخلاف الحقيقة،وأشكل على ذلك ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [(٩)] فإن المنفىّ فيه هو الحقيقة . وأجيب بأن المرادَ بالرّمى هنا المترتّب عليه ؛ وهو وصوله إلى الكفار ، فالوارد عليه النفى هنا مجاز لاحقيقة ، والتقدير : وما رميت خلقاً إذ رميت كسباً ، أوما رميت انتهاء إذ رميت ابتداء .

الخامس : نفى الاستطاعة ، قد يراد به نفى القدرة والإمكان ، وقد يراد

---

(١) الشعراء ١٠٠
(٢) المؤمنون ١١٧
(٣) البقرة ٧١
(٤) الرعد ٢
(٥) الأعلى ١٣
(٦) الأعراف ١٩٨
(٧) القيامة ٢٣
(٨) البقرة ١٠٢
(٩) الأنفال ١٧

نفيُ الامتناع ، وقد يراد به الوقوع بمشقّة وكلفة .

من الأول ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾[١] ، ﴿فلا يستطيعون ردّها﴾[٢] ، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا له نَقْباً﴾[٣] .

ومن الثاني : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾[٤] ، على القراءتين ، أى هل يفعل ، أو هل تجيبنا إلى أن تسأل ؛ فقد علموا أنه قادر على الإنزال ، وأن عيسى قادر على السؤال .

ومن الثالث ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[٥] .

قاعـــدة

نفي العامّ يدل على نفي الخاص وثبوته لا يدلّ على ثبوته ، وثبوت الخاصّ يدل على ثبوت العامّ ، ونفيه لا يدلّ على نفيه ، ولا شكّ أن زيادة المفهوم من اللفظ توجب الالتذاذ به ، فلذلك كان نفيُ العام أحسنَ من نفي الخاص ، وإثبات الخاصّ أحسن من إثبات العام ، فالأول كقوله : ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾[٦] ، لم يقل: « بضوئهم » بعد قوله : ﴿أَضَاءَتْ﴾ ؛ لأن النور أعم من الضّوء ، إذ يقال على القليل والكثير ، وإنّما يقال الضوء على النور الكثير ، ولذلك قال : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾[٧] ، ففي الضوء دلالة على النور ، فهو أخصّ منه ، فعدمه يوجب عدم الضوء بخلاف العكس ، والقصد إزالةُ النور عنهم أصلاً ، ولذا قال عِقبه : ﴿وتركهم في ظلمات﴾ .

ومنه ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾[٨] ، ولم يقل « ضلال » ، كما قالوا : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ﴾[٩] ؛ لأنها أعمّ منه ؛ فكان أبلغ في نفيِ الضلال ، وعبّر عن هذا بأنّ نفي الواحد يلزم منه نفي الجنس البتّة ، وبأنّ نفيَ الأدنى يلزم منه نفي الأعلى .

---

(١) يس ٥٠ (٢) الأنبياء ٤٠ (٣) الكهف ٩٧
(٤) المائدة ١١٢ والقراءة الثانية بالتاء . (٥) الكهف ٦٧ (٦) البقرة ١٧
(٧) يونس ٥ (٨) الأعراف ٦١ (٩) الأعراف ٦٠

والثانى كقوله : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾[1] ولم يقل: «طولها» لأن العرض أخصّ ؛ إذ كلّ ما له عرض فله طول ، ولا ينعكس . ونظير هذه القاعدة أن نفى المبالغة فى الفعل لا يستلزم نفىَ أصل الفعل . وقد أشكل على هذا آيتان : قوله تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[2] ، وقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[3] ،

وأجيب عن الآية الأولى بأجوبة :

أحدها : أنّ «ظلاّما» وإن كان للكثرة لكنه جىء به فى مقابلة «العبيد» ، الذى هو جمع كثرة ، ويرشحه أنه تعالى قال : ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[4] ، فقابل صيغة « فعّال » بالجمع ، وقال فى آية أخرى : ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾[5] ، فقابل صيغة « فاعل » الدالة على أصل الفعل بالواحد .

الثانى : أنّه نفَى الظلم الكثير لينتفىَ القليل ضرورة ، لأن الذى يظلم ، إنما يظلم لانتفاعه بالظلم ، فإذا ترك الكثير مع زيادة نفعه فلأنْ يترك القليل أوْلَى .

الثالث : أنّه على النسبة ، أى بذى ظلم ، حكاه ابن مالك عن المحقّقين .

الرابع : أنه أتَى بمعنى « فاعل » لا كثرة فيه .

الخامس : أنّ أقل القليل لو ورد منه تعالى لكان كثيراً ، كما يقال : زلّة العالم كبيرة .

السادس : أنّه أراد : ليس بظالم ، ليس بظالم ، ليس بظالم ؛ تأكيداً للنفى ؛ فعبّر عن ذلك بـ « ليس بظلام » .

السابع : أنه ورد جواباً لمن قال « ظلّام » ، والتكرار إذا ورد جواباً لكلام خاص لم يكن له مفهوم .

الثامن : أنّ صيغة المبالغة وغيرها فى صفات الله سواء فى الإثبات ، فجرى النفى على ذلك .

---

(١) آل عمران ١٣٣ (٢) فصلت ٤٦ (٣) مريم ٦٤
(٤) المائدة ١٠٩ (٥) الزمر ٤٦

التاسع : أنه قصد التعريض بأن ثم ظلاّماً للعبيد من ولاة الجوْر .

ويجاب عن الثانية بهذه الأجوبة ، وبعاشر ، وهو مناسبة رءوس الآى .

فائــــدة

قال صاحب الياقوتة : قال ثعلب والمبرّد : العرب إذا جاءت بين الكلامين بجحدين كان الكلام إخباراً ، نحو ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾[1] ، والمعنى: إنّما جعلناهم جسداً يأكلون الطعامَ ، وإذا كان الجحْد فى أول الكلام كان جحداً حقيقيًّا نحو « مازيد بخارج » وإذا كان فى أوّل الكلام جحدان كان أحدهما زائداً ، وعليه : ﴿فيما إنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾[2] فى أحد الأقوال .

فصــــل

من أقسام الإنشاء الاستفهام ؛ وهو طلب الفهم ، وهو بمعنى الاستخبار .

وقيل : الاستخبار ماسبق أولا ، ولم يُفهم حقّ الفهم ؛ فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً . حكاه ابن فارس فى فقه اللغة .

وأدواته : الهمزة ، وهل ، وما ، ومَنْ ، وأىّ ، وكَمْ ، وكيف ، وأيْنَ ، وأنَّى ، ومتى ، وأيّان ؛ ومرّت فى الأدوات .

وقال ابن مالك فى المصباح : وما عدا الهمزة نائب عنها ؛ ولكونه طلب ارتسام مَافى الخارج فى الذهن ، لزم ألاّ يكون حقيقة إلاَّ إذا صدر من شاكٍّ مصدّق بإمكان الإعلام ؛ فإنّ غير الشاكّ إذا استفهم يلزم منه تحصيل الحاصل ، وإذا لم يصدّق بإمكان الإعلام انتفت عنه فائدة الاستفهام .

---

(١) الأنبياء ٨ (٢) الأحقاف ٢٦

وقال بعض الأئمة : وماجاء فى القرآن على لفظ الاستفهام ، فإنما يقع فى خطاب الله ، على معنى أنّ المخاطب عنده عِلْم ذلك الإثبات أو النفى حاصل .

وقد تستعمل صيغة الاستفهام فى غيره مجازاً ، وألّف فى ذلك العلاّمة شمس الدين ابن الصائغ[1] كتاباً سمّاه « روض الأفهام فى أقسام الاستفهام » ،قال فيه : قد توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ ، أو أشربته تلك المعانى ، ولا يختص التجوّز فى ذلك بالهمزة خلافا للصفّار .

الأول : الإنكار ، والمعنى فيه على النفى وما بعده منفى ، ولذلك تصحبه « إلا » كقوله: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[2]، ﴿ وَهَلْ نُجَازِى إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾[3]. وعطف على المنفىّ فى قوله : ﴿ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[4] ، أى لا يهدى ، ومنه ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾[5] ، ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[6]، أى لا نؤمن، ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾[7] ، ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾[8]، أى لا يكون هذا، ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾[9] ، أى ماشهدوا ذلك .

وكثيراً مايصحبه التكذيب وهو فى الماضى بمعنى « لم يكن » ، وفى المستقبل بمعنى « لا يكون » ، نحو ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ... ﴾[10] الآية، أى لم يفعل ذلك ، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾[11]، أى لا يكون هذا الإلزام .

الثانى : التوبيخ ، وجعله بعضهم من قبيل الإنكار، إلاّ أنّ الأول إنكار إبطال ، وهذا إنكار توبيخ ، والمعنى على أن ما بعده واقع جدير بأن ينفَى ، فالنفى هنا غير قصدىّ والإثبات قصدىّ ، عكس ماتقدم . ويعبّر عن ذلك بالتقريع أيضاً ، نحو ﴿ أَفَعَصَيْتَ

---

(١) لمحمد بن عبد الرحمن الحنبلى المعروف بابن الصائغ ، المتوفى ٧٧٦ ، ذكره صاحب كشف الظنون.

(٢) الأحقاف ٣٥ (٣) سبأ ١٧ (٤) الروم ٢٩

(٥) الشعراء ١١١ (٦) المؤمنون ٤٧ (٧) الطور ٣٩

(٨) النجم ٢١ (٩) الزخرف ١٩ (١٠) الإسراء ٤٠

(١١) هود ٢٨

أَمْرِى ﴾(١) ، ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَاتَنْحِتُونَ ﴾(٢) ، ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾(٣) .

وأكثر مايقع التوبيخ فى أمر ثابت ، ووُبِّخ على فعله كما ذكر ، ويقع على ترك فعل كان ينبغى أن يقع ؛ كقوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ﴾(٤) ، ﴿ مَايَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾(٥) ، ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾(٦) .

الثالث : وهو حَمْل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده ، قال ابن جِنّى : ولا يستعمل ذلك بهل ، كما يستعمل بغيرها من أدوات الاستفهام ، وقال الكندىّ : ذهب كثير من العلماء فى قوله: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾(٧) ، إلى أنّ « هل » تشارك الهمزة فى معنى التقرير والتوبيخ ؛ إلاّ أنّى رأيت أبا علىّ أبَى ذلك ؛ وهو معذور لأن ذلك من قبيل الإنكار .

ونقل أبوحيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لايكون بهل ، إنما يستعمل فيه الهمزة ، ثم نقل عن بعضهم أن « هل » تأتى تقريراً كما فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ ﴾(٨) .

والكلام مع التقرير موجب ، ولذلك يعطف عليه صريح الموجب ، ويعطف على صريح الموجب ، فالأول كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾(٩) ، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ﴾(١٠) ، ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ ﴾(١١) والثانى : نحو ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً ﴾(١٢) على ماقرره الجرجانىّ من جعلها مثل ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾(١٣) .

---

(١) طه ٩٣ (٢) الصافات ٩٥ (٣) الصافات ١٢٥
(٤) فاطر ٣٧ (٥) فاطر ٣٥ (٦) النساء ٩٧
(٧) الشعراء ٧٢ ، ٧٣ (٨) الفجر ٥ (٩) الشرح ١ ، ٢
(١٠) الضحى ٦ ، ٧ (١١) الفيل ٢ ، ٣ (١٢) النمل ٨٤
(١٣) النمل ١٤

وحقيقة استفهام التقرير ، أنه استفهام إنكار ، والإنكار نفى ، وقد دخل على النفى ونفى النفى إثبات ، ومن أمثلته : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾(١) ، ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾(٢) ؛ وجعل منه الزمخشرى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣) .

الرابع : التعجّب أو التعجيب ، نحو ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ﴾(٤) ، ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾(٥) . وقد اجتمع هذا القسم وسابقاه فى قوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ ﴾(٦) . قال الزمخشرىّ : الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجّب من حالهم .

ويحتمل التعجّب والاستفهام الحقيقىّ ﴿ ما ولاّهم عن قبلتهم ﴾ .

الخامس : العتاب ، كقوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ﴾(٧) ، قال ابن مسعود : ما كان بين إسلامهم وبين أن عوتبوا بهذه الآية إلاّ أربع سنين ، أخرجه الحاكم . ومن ألطفه ما عاتب الله به خير خلقه بقوله : ﴿ عفا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾(٨) ، ولم يتأدّب الزمخشرىّ بأدب الله فى هذه الآية على عادته فى سوء الأدب .

السادس : التذكير ، وفيه نوع اختصار ، كقوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾(٩) ، ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(١٠) ، ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾(١١) .

السابع : الافتخار ، نحو ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾(١٢) .

الثامن : التفخيم ، نحو ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾(١٣) .

التاسع : التهويل والتخويف ، نحو ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ، ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .

---

(١) الزمر ٣٦ — (٢) الأعراف ١٧٢ — (٣) البقرة ١٠٦
(٤) البقرة ٢٨ — (٥) النمل ٢٠ — (٦) البقرة ٤٤
(٧) الحديد ١٦ — (٨) التوبة ٤٣ — (٩) يس ٦٠
(١٠) البقرة ٣٣ — (١١) يوسف ٨٩ — (١٢) الزخرف ٥١
(١٣) الكهف ٤٩

العاشر : عكسه ، وهو التسهيل والتخفيف، نحو ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا ﴾ [١] .

الحادى عشر : التهديد والوعيد ، نحو ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ [٢] .

الثانى عشر : التكثير ، نحو ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ [٣] .

الثالث عشر : التسوية ، وهو الاستفهام الداخل على جملة يصحّ حلول المصدر محلّها ، نحو ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ [٤] .

الرابع عشر : الأمر ، نحو ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [٥] أى أسلموا ، ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [٦] أى انتهوا ، ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ [٧] أى اصبروا .

الخامس عشر : التنبيه ، وهو من أقسام الأمر ، نحو ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ [٨] أى انظر ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [٩] ذكره صاحب الكشاف عن سيبويه ، ولذلك رفع الفعل فى جوابه ، وجعل منه قوله : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [١٠] للتنبيه على الضلال ، وكذا ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [١١] .

السادس عشر : الترغيب ، نحو ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [١٢] ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ ﴾ [١٣] .

السابع عشر : النهى ، نحو ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ [١٤] بدليل ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [١٥] ، ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [١٦] ، أى لا تغترّ .

---

(١) النساء ٢٩ — (٢) المرسلات ١٦ — (٣) الأعراف ٤
(٤) البقرة ٦ — (٥) آل عمران ٢٠ — (٦) المائدة ٩١
(٧) الفرقان ٢٠ — (٨) الفرقان ٤٥ — (٩) الحج ٦٣
(١٠) التكوير ٢٦ — (١١) البقرة ١٣٠ — (١٢) البقرة ٢٤٥
(١٣) الصف ١٠ — (١٤) التوبة ١٣ — (١٥) المائدة ٤٤
(١٦) الانفطار ٦

الثامن عشر : الدّعاء، وهو كالنهى، إلاّ أنه من الأدنى إلى الأعلى، نحو ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ (١)، أى لاتهلكنا.

التاسع عشر : الاسترشاد، نحو ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (٢).

العشرون : التمنّى، نحو ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ (٣)

الحادى والعشرون : الاستبطاء، نحو ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾ (٤).

الثانى والعشرون : العرض، نحو ﴿أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ (٥).

الثالث والعشرون : التحضيض، نحو ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ (٦).

الرابع والعشرون : التجاهل، نحو ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ (٧).

الخامس والعشرون : التعظيم، نحو ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (٨).

السادس والعشرون : التحقير، نحو ﴿أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ (٩)، ﴿أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ (١٠)، ويحتمله وما قبله قراءة ﴿مَنْ فِرْعَوْنُ﴾ (١١).

السابع والعشرون : الاكتفاء، نحو ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (١٢).

الثامن والعشرون : الاستبعاد، نحو ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (١٣).

التاسع والعشرون : الإيناس، نحو ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى﴾ (١٤).

الثلاثون : التهكّم والاستهزاء، نحو ﴿أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ (١٥)، ﴿أَلاَ تَأْكُلُونَ * مَالَكُمْ لاَتَنْطِقُونَ﴾ (١٦).

الحادى والثلاثون : التأكيد لما سبق من معنى أداة الاستفهام قبله، كقوله :

---

(١) الأعراف ١٥٥ — (٢) البقرة ٣٠ — (٣) الأعراف ٥٣
(٤) البقرة ٢١٤ — (٥) النور ٢٢ — (٦) التوبة ١٣
(٧) ص ٨ — (٨) البقرة ٢٥٥ — (٩) الأنبياء ٣٦
(١٠) الفرقان ٤١ — (١١) سورة الدخان ٣١، وانظر البحر المحيط ٨ : ٣٧
(١٢) الزمر ٦٠ — (١٣) الفجر ٢٣ — (١٤) طه ١٧
(١٥) هود ٨٧ — (١٦) الصافات ٩١، ٩٢

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾(١)، قال الموفّق عبد اللطيف البغدادىّ : أى مَنْ حق عليه كلمة العذاب ، فإنك لاتنقذه ، فَمَنْ للشرط والفاءجواب الشرط ، والهمزة فى ﴿أفأنت﴾ دخلت مُعادة مؤكدة لطول الكلام، وهذا نوع من أنواعها .

وقال الزمخشرىّ: الهمزة الثانية هى الأولى ، كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد .

الثانى والثلاثون : الإخبار نحو ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾(٢) ، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾(٣) .

تنبيهــــات

الأول : هل يقال إن معنى الاستفهام فى هذه الأشياء موجود ، وانضمّ إليه معنًى آخر ، أو تجرّد عن الاستفهام بالكلّية ؟ قال فى عروس الأفراح : محلّ نظر ، قال: والّذى يظهر الأوّل . قال : ويساعدُه قول التَّنُوخىّ فى « الأقصى القريب » : إن « لعلّ » تكون للاستفهام مع بقاء الترجِّى ، قال : وممّا يرجّحه أنّ الاستبطاء فى قولك : كم أدعوك ! معناه أنّ الدعاء وصل إلى حدّ لا أعلم عدده ، فأنا أطلب أن أعلَم عدده ، والعادة تقضى بأنّ الشخص إنّما يستفهم عن عدد ما صَدَر منه إذا كثُر فلم يعلمْه ، وفى طلب فهم عدده ما يُشعر بالاستبطاء .

وأمّا التعجّب فالاستفهام معه مستمرّ ، فمن تعجّب من شىء فهو بلسان الحال سائل عن سببه ، فكأنه يقول : أىّ شىء عرض لى فى حال عدم رؤية الهدهد! وقدصرّح فى الكشاف ببقاء الاستفهام فى هذه الآية .

وأمّا التنبيه على الضلال فالاستفهام فيه حقيقىّ ، لأن معنى«أين تذهب»؟ أخبرنى إلى أىِّ مكان تذهب ، فإنى لا أعرف ذلك ؟ وغاية الضلال لا يُشعَر بها إلى أين تنتهى .

وأمّا التقرير فإن قلنا المراد به الحكم بثبوته فهو خبر بأنّ المذكور عقيب الأداة

---

(١) الزمر ١٩ (٢) النور ٥٠ (٣) الإنسان ١

واقع . أوطلبُ إقرار المخاطب به من كون السائل يعلم ، فهو استفهام يقرّر المخاطَب ، أى يطلب منه أن يكون مقرّاً به . وفى كلام أهل الفنّ ما يقتضى الاحتمالين ، والثانى أظهر .
وفى الإيضاح تصريح به ولا بِدْعَ فى صدور الاستفهام ممّن يعلم المستفهَم عنه ، لأنه طلب الفهم ؛ أما طلب فهم المستفهم أو وقوع فهمٍ لمن لم يفهم كائناً من كان . وبهذا تنحلُّ إشكالات كثيرة فى مواضع الاستفهام ، ويظهر بالتأمّل بقاء معنى الاستفهام مع كل أمر من الأمور المذكورة . انتهى ملخصاً .

الثانى : القاعدة ، أن المنكَر يجب أن يَلِيَ الهمزة ، وأشكل عليها قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾[1] ، فإنّ الذى يليها هنا الإصفاء بالبنين ، وليس هو المنكر ، إنّما المنكر قولهم : إنّهُ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا .

وأجيب ، بأنّ لفظ الإصفاء مُشعر بزعم أن البنات لغيرهم ، أو بأنّ المراد مجموع الجملتين ، وينحلّ منهما كلام واحد . والتقدير : أجَمَع بين الإصفاء بالبنين واتخاذ البنات !

وأشكل منه قوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾[2] ، ووجه الإشكال أنه لاجائز أن يكون المنكر أمر الناس بالبرّ فقط ، كما تقتضيه القاعدة المذكورة ؛ لأن أمر البرّ ليس ممّا ينكر ، ولا نسيان النفس فقط ؛ لأنه يصير ذكر أمر الناس بالبرّ لا مدخلَ له ولا لمجموعَ الأمرين ، لأنه يلزم أن تكون العبادة جزء المنكر ، ولا نسيان النفس بشرط الأمر ، لأن النسيان منكر مطلقاً ، ولا يكون نسيان النفس حال الأمر أشدّ منه حال عدم الأمر ، لأن المعصية لاتزداد بشاعتها بانضمامها إلى الطاعة ، لأن جمهور العلماء على أنّ الأمر بالبرّ واجب ، وإن كان الإنسان ناسياً لنفسه وأمرُه لغيره بالبر كيف يضاعف بمعصية نسيان ، ولا يأتى الخير بالشر !

قال فى عروس الأفراح : ويجاب بأن فعل المعصية مع النّهى عنها أفحش ؛ لأنها تجعل حال الإنسان كالمتناقض ، وتجعل القول كالمخلف للفعل ، ولذلك كانت المعصية مع العلم أفحش منها مع

---

(١) الإسراء ٤٠

(٢) سورة البقرة ٤٤

الجهل ، قال : ولكنّ الجواب على أنّ الطاعة الصرفة كيف تضاعف المعصية المقارنة لها من جنسها فيه دقّة .

فصل : من أقسام الإنشاء الأمر

وهو طلب فعل غير كفّ وصيغته « افعل » و « ليفعل » وهى حقيقة فى الإيجاب نحو ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾(١) ، ﴿ فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ﴾(٢) .

وترد مجازاً لمعانٍ أُخَر :

منها الندب ، نحو ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾(٣) .

والإباحة نحو ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾(٤) ، نصّ الشافعىّ على أن الأمر فيه للإباحة ؛ ومنه ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾(٥) .

والدّعاء من السافل للعالى ، نحو ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾(٦) .

والتهديد ، نحو ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾(٧) ، إذ ليس المراد الأمر بكل عمل شاءوا .

والإهانة ، نحو ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾(٨) .

والتسخير ، أى التذليل ، نحو ﴿ كُونُوا قِرَدَةً ﴾(٩) ؛ عبّر به عن نقلهم من حالة إلى حالة إذلالاً لهم ،فهو أخصّ من الإهانة .

والتعجيز ، نحو ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾(١٠) ، إذ ليس المراد طلب ذلك منهم ، بل إظهار عجزهم .

والامتنان ، نحو ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾(١١) .

---

(١) البقره ٤٣ — (٢) النساء ١٠٢ — (٣) الأعراف ٢٠٤
(٤) النور ٣٣ — (٥) المائدة ٢ — (٦) الأعراف ١٥١
(٧) فصلت ٤٠ — (٨) الدخان ٤٩ — (٩) البقرة ٦٥
(١٠) البقرة ٢٣ — (١١) الأنعام ١٤١

والعجب ، نحو ﴿ انظُرْ كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ﴾[١] .

والتسوية ، نحو ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾[٢] .

والإرشاد ، نحو ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾[٣] .

والاحتقار ، نحو ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾[٤] .

والإنذار ، نحو ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾[٥] .

والإكرام ، نحو ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾[٦] .

والتكوين ، وهو أعمّ من التسخير ، نحو ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٧] .

والإنعام ، أى تذكير النعمة ، نحو ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾[٨] .

والتكذيب ، نحو ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فاتلوها ﴾[٩] ، ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الذِينَ يَشْهَدُونَ أَنّ اللهَ حرّم هذا ﴾[١٠] .

والمشورة ، نحو ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾[١١] .

والاعتبار ، نحو ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾[١٢] .

والتعجّب ، نحو ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾[١٣] ، ذكره السكاكىّ فى استعمال الإنشاء بمعنى الخبر .

* * *

فصل : ومن أقسامه النهى

وهو طلب الكفّ عن فعل ، وصيغتُه : « لا تفعل » ، وهى حقيقة فى التحريم .

---

(١) الإسراء ٤٨ — (٢) الطور ١٦ — (٣) البقرة ٢٨٢
(٤) يونس ٨٠ — (٥) إبراهيم ٣٠ — (٦) الحجر ٤٦
(٧) البقرة ١١٧ — (٨) الأنعام ١٤٢ — (٩) آل عمران ٩٣
(١٠) الأنعام ١٥٠ — (١١) الصافات ١٠٢ — (١٢) الأنعام ٩٩
(١٣) مريم ٣٨

وترد مجازاً لمعانٍ :

منها الكراهة ، ونحو ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[1] .

والدعاء ، نحو ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾[2] .

والإرشاد ، نحو ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[3] .

والتسوية ، نحو ﴿ أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾[4] .

والاحتقار والتقليل ، نحو ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ... ﴾[5] الآية ، أى فهو قليل حقير .

وبيان العاقبة ، نحو ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾[6]
أى عاقبة الجهادِ الحياة [لا الموت][7] .

واليأس ، نحو ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾[8] .

والإهانة ، نحو ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[9] .

فصل : ومن أقسامه التمنّى

وهو طلب حصول شىء على سبيل المحبة ، ولا يُشترط إمكان المتمنَّى بخلاف المترجَّى لكن نُوزِع فى تسمية تمنّى المحال طلباً بأنّ ما لا يتوقّع كيف يُطلَب ؟ قال فى عروس الأفراح : فالأحسن ما ذكره الإمام وأتباعه من أن التمنِّى والترجِّى والنداء ، والقَسَم وليس فيها طلب ، بل هو تنبيه ولا بِدْعَ فى تسمية إنشاء . انتهى .

وقد بالغ قوم فجعلوا التمنِّىَ من قِسْم الخبر ، وأن معناه النّفى ، والزمخشرىّ ممن جزم بخلافه . ثم استشكل دخولَ التكذيب فى جوابه فى قوله : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[10] ، وأجاب بتضمنه معنى العِدَة فتعلّق به التكذيب .

---

(١) الإسراء ٣٧ — (٢) آل عمران ٨ — (٣) المائدة ١٠١

(٤) الطور ١٦ — (٥) الحجر ٨٨ — (٦) آل عمران ١٦٩

(٧) من ط — (٨) التوبة ٦٦ — (٩) المؤمنون ١٠٨

(١٠) الأنعام ٢٧ ، ٢٨

وقال غيره: التمنّى لا يصحّ فيه الكذب ، وإنما الكذب فى المتمنَّى الذى يترجّح عند صاحبه وقوعه ، فهو إذنْ واردٌ على ذلك الاعتقاد الذى هو ظنّ ، وهو خبر صحيح.

قال : وليس المعنى فى قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أنّ ما تمنَّوا ليس بواقع لأنه ورد فى معرض الذّم لهم ، وليس فى ذلك المتمنَّى ذمّ ، بل التكذيب ورد على إخبارهم عن أنفسهم أنّهم لا يكذبون ، وأنهم يؤمنون .

وحرْف التمنّى الموضوع له «ليت» ، نحو ﴿ يَالَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾[1] ، ﴿ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾[2] ، ﴿ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ ﴾[3] .

وقد يُتمنَّى بهل حيثُ يُعلَم فقدُه ، نحو ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾[4]، وبلو نحو ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ ﴾[5] ، ولذا نصب الفعل فى جوابها .

وقد يتمنّى بـ«لعلّ» فى البعيد فتعطى حكم « ليت » فى نصْب الجواب ، نحو ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ ﴾[6] .

* * *

فصل : ومن أقسامه الترجّى

نقل القرافى[7] فى الفُروق الإجماعَ على أنه إنشاء ، وفرّق بينه وبين التمنى بأنّه فى الممكن والتمنّى فيه وفى المستحيل ، وبأنّ الترجّى فى القريب والتمنّى فى البعيد ، وبأن الترجّى فى المتوقَّع والتمنّى فى غيره ، وبأن التمنّى فى المعشوق للنفس والترجّى فى غيره .

وسمعت شيخنا العلامة الكافيَجيّ يقول : الفرْق بين التمنّى وبين العَرْض ، هو الفرق بينه وبين الترجّى .

---

(١) الأنعام ٢٧ — (٢) يس ٢٦ — (٣) النساء ٧٣

(٤) الأعراف ٥٣ — (٥) الشعراء ١٠٢ — (٦) غافر ٣٦ ، ٣٧

(٧) هو الإمام شهاب الدين أحمد إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجى المعروف بالقرافى إليه انتهت زعامة المالكية فى عصره مع البراعة فى الأصول العقلية ، واسم كتابه « أنوار البروق فى أنوار الفروق فى أصول الفقه المالكى: توفى سنة ٦٨٤

وحرف الترجّى لعلّ وعسى ، وقد ترد مجازاً لتوقّع محذور ، ويسمّى الإشفاق ، نحو ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيب ﴾ [١] .

* * *

فصل : ومن أقسامه النداء

وهو طلب إقبال المدعوّ على الداعى بحرف نائب مناب « أدعو » . ويصحب فى الأكثر الأمر والنهى ، والغالب تقدّمه ، نحو ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [٢] ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [٣] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ ﴾ [٤] ، ﴿ ويَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ [٥] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا ﴾ [٦] .

وقد يتأخر ، نحو ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٧] .

وقد يصحب الجملة الخبرية فتعقبها جملة الأمر ، نحو ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ [٨] ، ﴿ ويَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا ﴾ [٩] .

وقد لا تعقبها ، نحو ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْم ﴾ [١٠] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ﴾ [١١] ، ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ ﴾ [١٢] ،

وقد تصحبه الاستفهامية ، نحو ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ [١٣] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [١٤] ، ﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ ﴾ [١٥] .

وقد ترد صورة النداء لغيره مجازاً ، كالإغراء والتحذير ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى : ﴿ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [١٦] .

والاختصاص ، كقوله : ﴿ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [١٧] .

---

(١) الشورى ١٧ — (٢) البقرة ٢١ — (٣) الزمر ١٦
(٤) المزمل ١ — (٥) هود ٥٢ — (٦) الحجرات ١
(٧) النور ٣١ — (٨) الحج ٧٣ — (٩) هود ٦٤
(١٠) الزخرف ٦٨ — (١١) فاطر ١٥ — (١٢) يوسف ١٠٠
(١٣) مريم ٤٢ — (١٤) التحريم ١ — (١٥) غافر ٤١
(١٦) الشمس ٢٣ — (١٧) هود ٧٣

والتنبيه ، كقوله : ﴿أَلَا يَاسجُدُوا﴾ [1] ، والتعجّب ، كقوله : ﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ [2] .

والتحسّر ، كقوله : ﴿ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ [3] .

قاعــدة

أصل النداء بـ«يا» أن تكون للبعيد حقيقة أو حكماً ، وقد ينادى بها القريب لنكت :

منها إظهار الحرص فى وقوعه على إقبال المدعوّ نحو ﴿ يَامُوسَى أَقْبِلْ ﴾ [4] .

ومنها كون الخطاب المتلوّ معتنًى به ، نحو ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [5] .

ومنها قصد تعظيم شأن المدعوّ ، نحو ﴿ يَارَبِّ ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ فإنِّى قَرِيبٌ ﴾ [6] .

ومنها قصد انحطاطه ، كقول فرعون : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُوراً ﴾ [7] .

فائــدة

قال الزمخشرىّ وغيره : كَثُر فى القرآن النداء بـ«يأيها» دون غيره ؛ لأن فيه أوجهاً من التأكيد ، وأسباباً من المبالغة .

منها ما فى « يا » من التأكيد والتنبيه ، وما فى « ها » من التنبيه ، وما فى التدرّج من الإبهام فى «أىّ» إلى التوضيح ، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد لأن كلّ ما نادى له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزَواجره ووعْده ووعيده ، ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية وغير ذلك ، ومما أنطق الله به كتابه أمور عظام ، وخطوبٌ جسام ، ومعانٍ

---

(١) النمل ٢٥
(٢) يس ٠
(٣) النبأ ٤٠
(٤) القصص ٣١
(٥) البقرة ٢١
(٦) البقرة ١٨٦
(٧) الإسراء ١٠١

واجب عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون ، فاقتضى الحال أن يبادَوْا بالآكد الأبلغ .

* * *

فصل ومن أقسامه القَسَم

نقل القرافى الإجماع على أنه إنشاء ، وفائدته تأكيد الجملة الخبرية ، وتحقيقها عند السامع وسيأتى بسط الكلام فيه فى النوع السابع والستين

* * *

فصل ومن أقسامه : الشرط ...[1]

---

(١) بياض فى جميع الأصول.

النوع الثامن والخمسون
في بدائع القرآن

أفرده بالتصنيف ابنُ أبي الأصبع [1] ، فأورد فيه نحو مائة نوع ، وهي : المجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والكناية ، والإرداف ، والتمثيل ، والإيجاز ، والإتّساع ، والإشارة، والمساواة ، والبَسْط، والإيغال، والتتميم، والتّكميل، والاحتراس ، والاستقصاء ، والتذييل ، والزيادة ، والترديد ، والتكرار ، والتفسير ، والإيضاح ونفي الشيء بإيجابه، والمذهب الكلامي ، والقول بالموجب ، والمناقضة ، والانتقال ، والإسجال ، والتّسليم ، والتمكين ، والتوشيح ، والتّسهيم ، وردّ العُجز على الصدر ، وتشابه الأطراف ، ولزوم مالا يلزم ، والتخيير ، والتسجيع ، والتسريع والإبهام وهو التورية ، والاستخدام ، والالتفات ، والاطراد ، والانسجام ، والإدماج ، والافتنان ، والاقتدار ، وإئتلاف اللفظ مع اللفظ ، وإئتلاف اللفظ مع المعنى ، والاستدراك ، والاستثناء ، وتأكيد المدْح بما يشبه الذّم ، والتفويف ، والتغاير ، والتقسيم ، والتدْبيج ، والتنكيت ، والتضمين ، والجِناس ، وجمع المؤتلف والمختلف ، وحسن النَّسَق ، وعتاب المرء نفسَه ، والعكس ، والعنوان ، والفرائد ، وَالقَسم ، والمبالغة والمطابقة ، والمقابلة والموازَنة ، والمراجعة ، والنّزاهة ، والإبداع ، والمقارنة ، وحسن الابتداء ، وحسن الختام ، وحسن التخلّص ، والاستطراد .

فأمّا المجاز وما بعده إلى الإيضاح ، فقد تقدّم بعضها في أنواع مفردة ، وبعضها في

---

(1) بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ ، طبع بمطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧ ، بتحقيق الدكتور حفني شرف .

نوع الإيجاز والإطناب مع أنواع أُخَر ، كالتعريض والاحتباك ، والاكتفاء ، والطّرد ، والعكس .

وأما نفي الشيء بإيجابه ، فقد تقدّم في النوع الذي قبل هذا . وأما المذهب الكلاميّ والخمسة بعده ، فستأتي في نوع الجدل مع أنواع أُخَر مزيدة . وأمّا التمكين والثمانية بعده ، فستأتي في أنواع الفواصل . وأمّا حسن التخلص والاستطراد فسيأتيان في نوع المناسبات ، وأمّا حسن الابتداء وبراعة الختام فسيأتيان في نوعَيِ الفواتح والخواتم .

وها أنا أورد الباقي مع زوائد ونفائس لا توجد مجموعة في غير هذا الكتاب .

* * *

الإيهام

ويدعى التورية ، أن يُذكر لفظ له معنيان ، إمّا بالاشتراك أو التواطؤ ، أو الحقيقة ، أو المجاز ؛ أحدهما قريب والآخر بعيد ، ويقصدَ البعيد ، ويورّى عنه بالقريب ، فيتوهمه السامع من أول وهلة .

قال الزمخشريّ : لا ترى باباً في البيان أدقّ ، ولا ألطف من التورية ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله ورسوله ، قال : ومن أمثلتها : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [1] ، فإنّ الاستواء على معنيين ، الاستقرار في المكان ، وهو المعنى القريب المورَّى به ، الذي هو غير مقصود لتنزيهه تعالى عنه ، والثّاني : الاستيلاء والمِلْك ، وهو المعنى البعيد المقصود ، الذي ورّى عنه بالقريب المذكور . انتهى .

وهذه التورية ؛ تسمّى مجرّدة ، لأنها لم يذكر فيها شيء من لوازم المورّى به ، ولا المورّى عنه .

ومنها ما تُسمّى مرشّحة ، وهي التي ذكر فيها شيء من لوازم هذا أو هذا ، كقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [2] ؛ فإنه يحتمل الجارحة وهو المورّى به ، وقد ذكر

---

(١) طه ٥ (٢) الذاريات ٤٧

من لوازمه على جهة الترشيح البنيان ، ويحتمل القوة والقدرة ، وهو البعيد المقصود .

قال ابنُ أبى الأصبع فى كتابه، « الإعجاز » : ومنها :﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (١) ، فالضَّلال يحتمل الحبّ وضدّ الهدى ، فاستعمل أولاد يعقوب ضدّ الهُدَى تورية عن الحبّ .

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾(٢) ، على تفسيره بالدِّرْع ؛ فإنّ البدن يطلق عليه وعلى الجسد ، والمرادُ البعيد وهو الجسد .

قال : ومن ذلك قوله بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى حيث قال : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾(٣) .
ولما كان الخطاب لموسى من الجانب الغربى ، وتوجّهت إليه اليهود النصارى وتوجهت إلى المشرق كانت قبلة الإسلام وسطاً بين القبلتين ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(٤) ، أى خياراً ، وظاهر اللفظ يوهِم التوسّط مع ما يعضده من توسّط قبلة المسلمين، صدق على لفظةِ « وسط » ها هنا أن يسمّى تعالى به لاحتمالها المعنيين . ولمّا كان المراد أبعدَها وهو الخيار ، صَلَحت أن تكون من أمثلة التورية .

قلت : وهى مرشحة بِلازم المورّى عنه ، وهو قوله : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (٤) ، فإنه من لوازم كونهم خياراً ، أى عُدولاً ، والإتيان قبلها من قسم المجرّدة.

ومن ذلك قوله : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٥) ، فإنّ النجم يطلق على الكوكب، ويرشّحه له ذكر الشمس والقمر، وعلى مالا ساق له من النبات ، وهو المعنى البعيد له ، وهو المقصود فى الآية.

ونقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر أن من التورية فى القرآن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾(٦) ، فإن « كافة » بمعنى « مانع » أى تكفّهم عن الكفر والمعصية ، والهاء للمبالغة ، وهذا معنًى بعيد ، والمعنى القريب المتبادر أن المراد

---

(١) يوسف ٩٥ — (٢) يونس ٩٢ — (٣) البقرة ١٤٥
(٤) البقرة ١٤٣ — (٥) الرحمن ٦ — (٦) سبأ ٢٨

جامعة بمعنى « جميعاً » ، لـكن منَع من حمله على ذلك أن التأكيد يتراخى عن المؤكّد ، فكما لا تقول : رأيت جميعاً الناس ، لا تقول رأيت كافةً الناس .

* * *

الاستخدام

هو والتورية أشرف أنواع البديع، وهما سِيّان ، بل فضّله بعضهم عليها، ولهم فيه عبارتان:

إحداهما : أن يؤتَى بلفظ له معنيان فأكثر مرادًا به أحد معانيه ، ثم يؤتَى بضميره مراداً به المعنى الآخر ، وهذه طريقة السكاكيّ وأتباعه .

والأخرى أن يؤتَى بلفظ مشترك ، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ، ومن الآخر الآخر ، وهذه طريقة بَدْر الدين بن مالك فى المِصْباح ، ومشى عليها ابن أبى الأصبع [1]، ومثل له بقوله تعالى : ﴿لِـكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ .. ﴾ [2] الآية ، فلفظ « كتاب » يحتمل الأمد المحتوم ، والـكتاب المـكتوب ، فلفظ « أجل » يخدم المعنى الأول ، و« يمحو » يخدم الثانى .

ومثّل غيره بقوله تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ...﴾ [3] الآية، فالصلاة تحتمل أن يراد بها فعلها وموضعها ، وقوله : ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَاتَقُولُونَ﴾ [3] يخدم الأول و﴿ إلاّ عابرى سبيل﴾ [3] يخدم الثانى .

قيل : ولم يقع فى القرآن على طريقة السكاكيّ .

قلت : وقد استخرجتُ بفكرى آيات على طريقته ، منها قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ [4] ، فأمر الله يراد به قيام الساعة والعذاب وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أريد بلفظه الأخير ، كما أخرج ابن مردويه من طريق الضحّاك عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ ، قال : محمد ، وأعيد الضمير عليه فى ﴿ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [4] مراداً به قيام الساعة والعذاب .

ومنها وهى أظهرُها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ، فإنّ المراد به آدم ، ثم أعاد عليه الضمير مراداً به ولَده . فقال : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [5] .

---

(١) بديع القرآن ١٠٤ — (٢) الرعد ٣٨ — (٣) النساء ٤٣

(٤) النحل ١ — (٥) المؤمنون ١٢ ، ١٣

ومنها قوله تعالى ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾[1] أى أشياء أخَر ، لأن الأولين لم يسألوا عن الأشياء التى سأل عنها الصحابة ، فنُهوا عن سؤالها .

* * *

الالتفات

نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أعنى من التكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها ، بعد التعبير بالأول ، هذا هو المشهور . وقال السكاكىّ : إمّا ذلك أو التعبير بأحدها فيما حقه التعبير بغيره . وله فوائد :

منها تطرية الكلام ، وصيانة السمع عن الضّجر ، والملَال ، لما جُبِلت عليه النفوس من حبّ التنقلات ، والسآمة من الاستمرار على منوالٍ واحد ، وهذه فائدته العامة .

ويختص كلّ موضع بنكت ولطائف باختلاف محلّه كما سنبينه .

مثاله من المتكلم إلى الخطاب ـ ووجهُه حثّ السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه ، وأعطاه فضل عناية تخصيص بالمواجهة ـ قوله تعالى . ﴿ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2] ، والأصلُ « وإليه أرجع » ، فالتفت من المتكلم إلى الخطاب ، ونكتته أنه أخرج الكلام فى معرِض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نصح قومه تلطُّفاً وإعلاماً أنه يريد لهم مايريد لنفسه . ثم التفت إليهم لكونه فى مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله تعالى .

كذا جعلوا هذه الآية من الالتفات ، وفيه نظر ؛ لأنه إنما يكون منه إذا قصد الإخبارَ عن نفسه فى كلتا الجملتين ، وهنا ليس كذلك ، لجواز أن يريد بقوله: « ترجعون » المخاطبين لا نفسه .

---

(١) المائدة ١٠١ ، ١٠٢

(٢) يس ٢٢

وأجيب ، بأنه لو كان المراد ذلك لما صَحّ الاستفهامُ الإنكارى ؛ لأن رجوع العَبْد إلى مولاه ليس بمستلزم أن يعبدَه غير ذلك الراجع ، فالمعنى : كيف لا أعبدَ مَنْ إليه رجوعى ، وإنّما عدل عن « وإليه أرجع » إلى « وإليه ترجعون » لأنه داخل فيهم ، ومع ذلك أفاد فائدة حسنة ، وهى تنبيههم على أنه مثلهم فى وجوب عبادة مَنْ إليه الرجوع .

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (٢) .

ومثاله من المتكلم إلى الغيبة ـ ووجْهه أن يفهَم السامع أن هذا نمط المتكلم ، وقصده من السامع ؛ حَضَر أو غاب ، وأنه ليس فى كلامه ممّن يتلوّن ويتوجّه ويُبدى فى الغيبة خلاف ما يبديه فى الحضور ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ (٣) ، والأصل « لنغفر لك » . ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ (٤) ، والأصل « لنا » . ﴿ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٥) ، والأصل « منّا » ، ﴿ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٦) ، إلى قوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . والأصل « وبى » وعَدَل عنه لنكتتين ؛ إحداهما ، دفع التّهمة عن نفسه بالعصبيّة لها . والأخرى تنبيههم على استحقاقه الاتّباع بما اتصف به من الصفات المذكورة والخصائص المتلوّة .

ومثاله من الخطاب إلى التكلّم لم يقعْ فى القرآن ، ومثّل له بعضهم بقوله : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ (٧) . وهذا المثال لا يصحّ لأن شرط الالتفات أن يكون المرادُ به واحداً .

ومثاله من الخطاب إلى الغيبة ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ (٨) ،

---

(١) الأنعام ٧١ (٢) الأنعام ٧٢ (٣) الفتح ١ ، ٢
(٤) الكوثر ٧١ (٥) الدخان ٥ (٦) الأعراف ١٥٨
(٧) طه ٧٢ ، ٧٣ (٨) يونس ٢٢

والأصل « بكم » ، ونكتة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم ، التعجبُ من كفرهم وفعلهم ، إذ لو استمرّ على خطابهم لفاتت تلك الفائدة .

وقيل : لأن الخطاب أوّلاً كان مع الناس مؤمنهم وكافرهم ، بدليل ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1] فلو كان « وجرين بكم » للزم الذمّ للجميع ، فالتفت عن الأول للإشارة إلى اختصاصه بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية عدولاً من الخطاب العام إلى الخاص .

قلت : ورأيت عن بعضِ السلف فى توجهه عكس ذلك ؛ وهو أن الخطاب أوّله خاصّ وآخره عام ، فأخرج ابنُ أبى حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، أنه قال فى قوله : ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾[1] ، قال : ذكر الحديث عنهم ، ثم حدّث عن غيرهم ، ولم يقل : « وجرين بكم » ، لأنه قصد أن يجمعهم وغيرهم وجرين بهؤلاء وغيرهم من الخلق . هذه عبارته ؛ فلله درّ السلف ما كان أوقفهم على المعانى اللطيفة التى يدأب المتأخّرون فيها زماناً طويلا ، ويُفنون فيها أعمارهم ثم غايتهم أن يحوموا حول الحمى ! ومما ذكر فى توجيهه أيضاً أنهم وقت الركوب حضروا لأنهم خافوا الهلاك وغلبة الرياح ، فخاطبهم خطاب الحاضرين ، ثم لما جرتِ الرياح بما تشتهى السّفن ، وأمِنوا الهلاك لم يبق حضورهم كما كان ، على عادة الإنسان أنه إذا أمن ، غاب قلبه عن ربه ، فلما غابوا ذكّرهم الله بصيغة الغيبة ، وهذه إشارة صوفية .

ومن أمثلته أيضاً ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[1] ، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[2] ، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ ، والأصل « عليكم » ، ثم قال : ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3] ، فكرّر الالتفات .

---

(١) يونس ٢٢ (٢) الحجرات ٧ (٣) الزخرف ٧٠

ومثاله من الغيبة إلى التكلم ﴿اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ﴾[١]، ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا﴾[٢]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾، ثم التفت ثانياً إلى الغيبة، فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣] وعلى قراءة الحسن « ليريه » بالغيبة يكون التفاتاً ثانياً من « باركنا »، وفى « آياتنا » التفات ثالث، وفى « إنه » التفات رابع؛ قال الزمخشرىّ: وفائدته فى هذه الآيات وأمثالها التنبيه على التخصيص بالقدرة، وأنه لايدخل تحت قدرة أحد.

ومثاله من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾[٤]. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَالَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾[٥]، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾[٦]، ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ﴾[٧].

ومن محاسنه ماوقع فى سورة الفاتحة، فإنّ العبد إذا ذكر الله تعالى تعالى وحده ثم ذكر صفاته التى كان كل صفة منها تبعث على شدة الإقبال وآخرها ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، المفيد أنّه مالك الأمر كلّه فى يوم الجزاء، يجد من نفسه حاملًا لايقدر على دفعه على خطاب مَنْ هذا صفاته بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات. وقيل: إنما اختير لفظ الغيبة للحمد، وللعبادة الخطاب للإشارة إلى أن الحمد دون العبادة فى الرتبة؛ لأنك تحمد نظيرك ولا تعبده، فاستعمل لفظ « الحمد » مع الغيبة، ولفظ « العبادة » مع الخطاب لينسب إلى العظيم حال المخاطبة والمواجهة ماهو أعلى رتبه، وذلك على طريقة التأدب، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال. ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مصرّحاً بذكر المنعم وإسناد الإنعام إليه لفظاً، ولم يقل: « صراط المنعم عليهم » فلما صار إلى

---

(١) الروم ٤٨ — (٢) فصلت ١٢ — (٣) الإسراء ١
(٤) مريم ٨٩ — (٥) الأنعام ٦ — (٦) الإنسان ٢١، ٢٢
(٧) الأحزاب ٥٠

ذكر الغضب زوى عنه لفظه ، فلم ينسبه إليه لفظاً ، وجاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فلم يقل : « غير الذين غضبت عليهم » تفادياً عن نسبة الغضب إليه فى اللفظ حال المواجهة .

وقيل: لأنه لمّا ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه الصفات العظيمة من كونه ربًّا للعالمين، ورحماناً ورحيماً ومالكاً ليوم الدين، تعلّق العلم بمعلوم عظيم الشأن ، حقيق بأن يكون معبوداً دون غيره ، مستعاناً به ، فخوطب بذلك لتميّز ، بالصفات المذكورة تعظيماً لشأنه ؛ حتى كأنه قيل: « إيّاك يا من هذه صفاته نخصّ بالعبادة والاستعانة، لا غيرك » .

قيل : ومن لطائفة التنبيه على أنّ مبتدأ الخلق الغيبة منهم عنه سبحانه وتعالى وقصورهم عن محاضرته ومخاطبته ، وقيام حجاب العظمة عليهم ؛ فإذا عرفوه بما هو له ، وتوسّلوا للقرب بالثناء عليه، وأقرّوا بالمحامد له ، وتعبّدوا له بما يليق بهم ، تأهّلوا لمخاطباته ومناجاته فقالوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

* * *

تنبيهات

الأول : شرط الالتفات أن يكون الضمير فى المنتقَل إليه عائدا فى نفس الأمر إلى المنتقَل عنه ، وإلا يلزم عليه أن يكون فى « أنت صديق » التفات .

الثانى : شرطه أيضا ، أن يكون فى جملتين ؛ صرّح به صاحب الكشّاف وغيره ، وإلاّ يلزم عليه أن يكون [نوعاً غريباً][1] .

الثالث : ذكر التنوخيّ فى « الأقصى القريب » وابن الأثير وغيرهما نوعاً غريباً من الالتفات ، وهو بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه ، كقوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ بعد ﴿ أنعمت ﴾ ، فإنّ المعنى : «غير الذين غضبت عليهم» ، وتوقّف فيه صاحب عروس الأفراح .

الرابع : قال ابن أبى الإصبع : جاء فى القرآن من الالتفات قِسْم غريب جدًّا ، لم أظفر فى الشعر بمثاله ، وهو أن يقدّم المتكلم فى كلامه مذكورين مرتبين ، ثم يخبر عن الأول منهما ، وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثانى ، ثم يعود إلى الإخبار عن الأول، كقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾[2] ، انصرف

---

(١) من ط

(٢) العاديات ٦ ، ٧

عن الإخبار عن الإنسان إلى الإخبار عن ربه تعالى ، ثم قال منصرفاً عن الإخبار عن ربه تعالى إلى الإخبارعن الإنسان :﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(١) ، قال : وهذا يحسن أن يسمّى التفات الضمائر .

الخامس : يقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر،ذكره التنوخيّ وابن الأثير ، وهو ستّة أقسام أيضاً .

مثاله من الواحد إلى الاثنين : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾(٢) .

وإلى الجمع ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾(٣) .

ومن الاثنين إلى الواحد ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى ﴾(٤)، ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾(٥) .

وإلى الجمع ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾(٦) .

ومن الجمع إلى الواحد ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٦) .

وإلى الاثنين ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٧) .

السادس — ويقرب منه أيضاً — الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر.

مثاله من الماضي إلى المضارع ﴿ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ ﴾(٨) ، ﴿ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ

---

(١) العاديات ٨ (٢) يونس ٧٨ (٣) الطلاق ١
(٤) طه ٤٩ (٥) طه ١١٧ (٦) يونس ٨٧
(٧) الرحمن ٣٣ ، ٣٤ (٨) فاطر ٩

فتخطفه الطير﴾ [1] ، ﴿إنَّ الَّذينَ كفروا ويصدُّون عَنْ سَبيلِ اللهِ﴾ [2].

وإلى الأمر ﴿قُلْ أمرَ ربِّى بالقسطِ وأقيموا وُجوهَكُمْ﴾ [3]، ﴿وأُحلَّت لكُمُ الأنعامُ إلاَّ ما يُتلى عليكُمْ فاجتنبوا﴾ [4]

ومن المضارع إلى الماضى ﴿ويومَ يُنفخُ في الصُّورِ ففزعَ﴾ [5] ، ﴿ويومَ نُسيِّرُ الجبالَ وترى الأرضَ بارزةً وحشرناهُمْ﴾ [6].

وإلى الأمر ﴿قال إنِّى أُشهدُ اللهَ واشهدوا أنِّى برىءٌ﴾ [7]

ومن الأمر إلى الماضى ﴿واتَّخذوا مِنْ مقامِ إبراهيمَ مُصلًّى وعهدْنا﴾ [8]

وإلى المضارع ﴿وأنْ أقيموا الصَّلاةَ واتَّقوهُ وهوَ الَّذى إليهِ تُحشرونَ﴾ [9].

* * *

الاطــــراد

هو أن يذكر المتكلم أسماء آباء الممدوح مرتّبة على حكم ترتيبها فى الولادة . قال ابن أبى الأصبع :ومنه [10] فى القرآن قوله تعالى حكاية عن يوسف:﴿ واتَّبعتُ مِلَّةَ آبائى إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ﴾ [11] ، قال : وإنّما لم يأت به على الترتيب المألوف ؛ فإن العادة الابتداء بالأب ، ثم الجدّ ، ثم الجدّ الأعلى ؛ لأنه لم يردهنا مجرّد ذكر الآباء ، وإنما ذكرهم ليذكر ملّتهم التى اتبعها،فبدأ بصاحب الملّة ، ثم بمن أخذهاعنه ،أولاً فأولاً على الترتيب ، ومثله قول أولاد يعقوب : ﴿ نعبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ﴾ [12].

* * *

الانسجـــام

هو أن يكون الـكلام لخلوّه من الانعقاد منحدراً كتحدّر الماء المنسجم،ويكاد لسهولة

---

(١) الحج ٣١ (٢) الحج ٢٥ (٣) الاعراف ٢٩
(٤) الحج ٣٠ (٥) النمل ٨٧ (٦) الكهف ٤٧
(٧) هود ٥٤ (٨) البقرة ١٢٥ (٩) الأنعام ٧٢
(١٠) بديع القرآن ١٤١ (١١) يوسف ٣٨ (١٢) البقرة ١٣٢

تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يَسيل رقّةً ، والقرآنِ كلّه كذلك . قال أهل البديع : وإذا قوىَ الانسجام فى النثر ، جاءت قراءته موزونة بلا قَصْد، لقوّة انسجامه ، ومن ذلك ماوقع فى القرآن موزوناً .

فمنه من بحر الطويل ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١) .

ومن المديد ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢) .

ومن البسيط ﴿ فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ (٣) .

ومن الوافر ﴿ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

ومن الكامل ﴿ وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥) .

ومن الهزج ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً ﴾ (٦) .

ومن الرجز ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ (٧) .

ومن الرمل ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ (٨) .

ومن السريع ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ (٩) .

ومن المنسرح ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ (١٠) .

ومن الخفيف ﴿ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ (١١) .

ومن المضارع ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ (١٢) .

ومن المقتضب ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ (١٣)، ومن المجتث ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٤) .

---

(١) الكهف ٢٩ (٢) هود ٣٧ (٣) الأحقاف ٢٥
(٤) التوبة ١٤ (٥) البقرة ٢١٣ (٦) يوسف ٩٣
(٧) الإنسان ١٤ (٨) سبأ ١٣ (٩) البقرة ٢٥٩
(١٠) الإنسان ٢ (١١) النساء ٧٨ (١٢) غافر ٣٢، ٣٣
(١٣) البقرة ١٠ (١٤) الحجر ٤٩

ومن المتقارب ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[1] .

* * *

الإدمـــاج

قال ابن الإصبع : هو أن يُدمِج المتكلم غرضاً فى غرضٍ ، أو بديعاً فى بديعٍ ، بحيث لا يظهر فى الكلام إلاّ أحد الغرَضين أو أحد البديعين ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾[2] ، أدمجت المبالغة فى المطابقة لأنّ انفراده تعالى بالحمد فى الآخرة — وهى الوقت الذى لا يُحمد فيه سواه — مبالغة فى الوصف بالانفراد بالحمد، وهو وإن خرج مخرج المبالغة فى الظاهر، فالأمر فيه حقيقةٌ فى الباطن، فإنه رب الحمد والمنفرد به فى الدارين[3]. انتهى.

قلت : والأوْلى أن يقال فى هذه الآية: إنّها من إدماج غرض فى غرض ، فإن الغرض منها تفرّده تعالى بوصف الحمد ، وأدمج فيه الإشارة إلى البعث والجزاء .

* * *

الافتنـــــان

هو الإتيان فى كلام بفنّين مختلفين كالجمع بين الفخر والتّعزية فى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[4] ؛ فإنه تعالى عَزّى جميع المخلوقات من الإنس والجن والملائكة وسائر أصناف ما هو قابل للحياة ، وتمدّح بالبقاء بعد فناء الموجودات فى عشر لفظات، مع وصفه بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام سبحانه وتعالى !

ومنه ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ... ﴾[5] ، الآية ، جمع فيها بين هناء وعَزَاء .

---

(١) الأعراف ١٨٣ — (٢) القصص ٨٠ — (٣) بديع القرآن ١٧٢

(٤) الرحمن ٢٧ — (٥) مريم ٧٢

الاقتـــدار

هو أنّ يُبرز المتكلم المعنى الواحد فى عدّة صور اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه ، وعلى صياغة قوالب المعانى والأغراض ؛ فتارة يأتى به فى لفظ الاستعارة ، وتارة فى صورة الإرداف ، وحيناً فى مخرج الإيجاز ، ومرّة فى قالب الحقيقة ، قال ابن أبى الإصبع : وعلى هذا أتت جميعُ قصصِ القرآن ، فإنك ترى القصة الواحدة التى لاتختلف معانيها تأتى فى صور مختلفة ، وقوالب من الألفاظ متعدّدة ؛ حتى لاتكاد تشتبه فى موضعين منه ، ولابدّ أن تجد الفرق بين صورها ظاهراً [1] .

* * *

ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى

الأول : أن تكون الألفاظ يلائم بعضُها بعضاً ، بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله ؛ رعايةً لحسن الجوار والمناسبة .

والثانى : أن تكون ألفاظ الكلام ملائمةً للمعنى المراد ؛ فإن كان فخماً كانت ألفاظه فخمة ، أو جزلا فجزلة ، أو غريباً فغريبة ، أو متداولاً فمتداولة ، أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال ؛ فكذلك .

فالأول كقوله تعالى : ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً ﴾ [2] ، أتى بأغرب ألفاظ القَسَم ، وهى التاء ؛ فإنها أقلّ استعمالاً ، وأبعدُ من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو ، وبأغرب صيغ الأفعال التى ترفع الأسماء وتنصب الأخبار ؛ فإنّ «تزال» أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً منها ، وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحَرَض ، فاقتضى حسن الوضع فى النظم أن تجاوَر كل لفظة بلفظةٍ من جنسها فى الغرابة ، توخِّياً لحسن الجوار ورغبةً فى ائتلاف المعانى بالألفاظ ، ولتتعادل الألفاظ فى الوضع وتتناسب فى النظم ،

---

(١) بديع القرآن ٢٨٩ (٢) يوسف ٨٥

ولما أراد غير ذلك قال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ [١] ، فأتى بجميع الألفاظ متداولة لاغرابة فيها .

ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [٢] ، لما كان الركون إلى الظالم ، وهو الميْل إليه ، والاعتماد عليه دون مشاركته فى الظلم ، وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظلم ، فأتى بلفظ « المسّ » الذى هو دون الإحراق والاصطلاء .

وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [٣] ، أتى بلفظ « الاكتساب » المشعر بالكلفة والمبالغة فى جانب السّيئة لثقلها .

وكذا قوله : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا ﴾ [٤] فهو أبلغ من « كُبِتوا » ، للإشارة إلى أنهم يُكبّون كبًّا عنيفاً فظيعاً .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ ﴾ [٥] ، فإنه أبلغ من « يصرخون » ، للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخاً منكراً خارجاً عن الحدّ المعتاد .

﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [٦] ، فإنه أبلغ من « قادر » ؛ للإشارة إلى زيادة التمكّن فى القدرة ، وأنه لارَادّ له ولا معقِّب .

ومثل ذلك ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ [٧] ، فإنه أبلغ من « اصبر » ، و « الرحمن » فإنه أبلغ من « الرحيم » : فإنه يشعر باللطف والرفق ، كما أن الرحمن مُشعر بالفخامة والعظمة .

ومنه الفرق بين سَقَى وأسقى ، فإن « سَقَى » لما لا كلفة معه فى السقيا ، ولهذا أورده تعالى فى شراب الجنة فقال : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [٨] ، و « أسقى » لما فيه كلفة ، ولهذا أورده فى شراب الدنيا ، فقال : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً ﴾ [٩] ، ﴿ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ﴾ [١٠] ، لأن السقيا فى الدنيا لاتخلو من الكلفة أبداً .

---

(١) الأنعام ١٠٩ (٢) هود ١١٣ (٣) البقرة ٢٨٦
(٤) الشعراء ٦٤ (٥) فاطر ٣٧ (٦) القمر ٤٢
(٧) مريم ٩٥ (٨) الإنسان ٢١ (٩) المرسلات ٢٧
(١٠) الجن ١٦

الاستدراك والاستثناء

شرط كونهما من البديع أن يتضمنا ضرباً من المحاسن زائداً على ما يدل عليه المعنى اللغوى.
مثال الاستدراك : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [1] ، فإنه لو اقتصر على قوله : « لم تؤمنوا » لكان منفراً لهم ، لأنهم ظنوا الإقرار بالشهادتين من غير اعتقاد إيماناً ، فأوجبت البلاغة ذكر الاستدراك ، ليُعلم أن الإيمان موافقةُ القلب اللسان ، وإن انفرد اللسان بذلك يسمى إسلاماً ، ولا يسمى إيماناً . وزاد ذلك إيضاحاً بقوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [2] ، فلما تضمن الاستدراك إيضاحَ ما عليه ظاهر الكلام من الإشكال عُدّ من المحاسن .

ومثال الاستثناء : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [3] ، فإن الإخبار عن هذه المدة بهذه الصيغة يمهد عُذْرَ نوحٍ فى دعائه على قومه بدعوة أهلكتهم عن آخرهم ؛ إذ لو قيل: « فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً » لم يكن فيه من التهويل ما فى الأول ، لأن لفظ « الألف » فى الأول أول ما يطرق السمع فيشتغل بها عن سماع بقية الكلام ، وإذا جاء الاستثناء لم يبقَ له بعد ما تقدمه وقعٌ يزيل ما حصل عنده من ذكر الألف .

* * *

الاقتصاص

ذكره ابن فارس ، وهو أن يكون كل كلام فى سورة مقتصاً من كلام فى سورة أخرى أو فى تلك السورة ، كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [3] ، والآخرة دار ثواب لا عمل فيها ، فهذا مقتصٌ من قوله : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا ﴾ [4] .

ومنه : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [5] ، مأخوذ من قوله :

---

(١) الحجرات ١٤ (٢) العنكبوت ١٤ (٣) العنكبوت ٢٧
(٤) طه ٧٥ (٥) الصافات ٥٧

﴿ أولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾(١) .

وقوله : ﴿ ويَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(٢) ، مقتصٌ من أربع آيات ، لأن الأشهادأربعة: الملائكة فى قوله : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (٣) ، والأنبياء فى قوله : ﴿ فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (٤) ، وأمة محمد فى قوله : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(٥) ، والأعضاء فى قوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ... ﴾ (٦) الآية .

وقوله : ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (٧) ،قرئ مخففاً ومشدّداً ، فالأول مأخوذ من قوله: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾(٨) ، والثانى من قوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾(٩) .

* * *

الإبـــدال

هو إقامة بعض الحروف مقام بعض ، وجعل منه ابن فارس ﴿ فَانْفَلَقَ ﴾(١٠) ، أى انفرق ، ولهذاقال : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ (١٠) ، فالرّاء واللّام متعاقبتان .

وعن الخليل فى قوله تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيار ﴾(١١) ، إنه أريد « فحاسوا » . فجاءت الجيم مقام الحاء ، وقد قرئ بالحاء أيضاً ، وجعل منه الفارسىّ : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ (١٢) ، أى الخيل ، وجعل منه أبو عبيدة : ﴿ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾(١٣) ، أى تصددة .

* * *

تأكيد المدح بما يشبه الذّم

قال ابن أبى الإصبع : هو فى غاية العزة فى القرآن ، قال : ولم أجد منه

---

(١) سبأ ٣٦ (٢) غافر ٥١ (٣) ق ٢١
(٤) النساء ٤١ (٥) البقرة ١٤٣ (٦) النور ٢٤
(٧) غافر ٣٢ (٨) الأعراف ٤٤ (٩) عبس ٣١
(١٠) الشعراء ٦٣ (١١) الإسراء ٥ (١٢) ص ٣٢
(١٣) الأنفال ٣٥

إلا آية واحدة ، وهى قوله : ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَن آمَنَّا بِاللهِ... ﴾[1] ، فإن الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ما عابوا به المؤمنين من الإيمان، يوهم أن ما يأتى بعده مما يوجب أن يُنْقَمَ على فاعله مما يذم به ، فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمناً تأكيد المدح بما يشبه الذم .

قلت : ونظيرها قوله : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُه مِنْ فَضْلِهِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ﴾[3] ؛ فإن ظاهر الاستثناء، أن ما بعده حق يقتضى الإخراج ، فلما كان صفة مدح يقتضى الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم .

وجعل منه التنوخىّ فى الأقصى القريب : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾[4] ، استثنى « سلاماً سلاماً » ، الذى هو ضدّ اللغو والتأثيم ، فكان ذلك مؤكداً لانتفاء اللغو والتأثيم . انتهى .

* * *

التفــــويف

هو إتيان المتكلم بمعانٍ شتى من المدح والوصف ، وغير ذلك من الفنون ، كلٌّ فن فى جملة منفصلة عن أختها ، مع تساوى الجمل فى الزنة ، وتكون فى الجمل الطويلة والمتوسطة والقصيرة .

فمن الطويلة ﴿ الذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالذِي هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾[5] .

ومن المتوسطة ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ﴾[6] .

قال ابن أبى الإصبع : ولم يأت المركّب من القصيرة فى القرآن[7] .

---

(١) المائدة ٥٩ (٢) التوبة ٧٤ (٣) الحج ٤٠

(٤) الواقعة ٢٥ ، ٢٦ (٥) الشعراء ٧٨ (٦) آل عمران ٢٧

(٧) بديع القرآن ١٠٠ ، والعبارة فيه : « ولم يأت شىء من المركب من الجمل القصيرة فى شىء من الكلام الفصيح »

التقسيم

هو استيفاء أقسام الشيء الموجودة ، لا الممكنة عقلا ، نحو ﴿ هُوَ الذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (١) ، إذ ليس فى رؤية البرق إلاّ الخوف من الصواعق والطمع فى الأمطار ، ولا ثالث لهذين القسمين .

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (٢)، فإن العالم لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة، إمّا عاصٍ ظالم لنفسه ، وإمّا سابق مبادر للخيرات ، وإمّا متوسّط بينهما مقتصد فيها .

ونظيرها ﴿ وكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاَثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ (٣) .

وكذا قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ (٤) ، استوفى أقسام الزمان ، ولا رابع لهما.

وقوله : ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ (٥) ، استوفى أقسام الخلق فى المشى .

وقوله . ﴿ الذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ (٦) ، استوفى جميع هيآت الذاكر .

وقوله : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ﴾ (٧)، استوفى جميع أحوال المتزوّجين، ولا خامس لها .

---

(١) الرعد ١٢ (٢) فاطر ٣٢ (٣) الواقعة ٧ ، ١٠
(٤) مريم ٦٤ (٥) النور ٤٥ (٦) آل عمران ١٩١
(٧) الشورى ٤٩ ، ٥٠

التدبيج

هو أن يذكر المتكلم ألواناً يقصد التورية بها والكناية، قال ابن أبى الإصبع: كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1]، قال: المراد بذلك — والله أعلم — الكناية عن المشتبه، والواضح من الطرق؛ لأن الجادّة البيضاء هى الطريق التى كثر السلوك عليها جدًّا، وهى أوضح الطرق وأبينها، ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء؛ كأنها فى الخفاء والالتباس ضدّ البيضاء فى الظهور والوضوح. ولمّا كانت هذه الألوان الثلاثة فى الظّهور للعين طرفين وواسطة، فالطرف الأعلى فى الظهور والبياض، والطرف الأدنى فى الخفاء والسواد، والأحمر بينهما على وضع الألوان فى التركيب، وكانت ألوان الجبال لاتخرج عن هذه الألوان الثلاثة والهداية بكلّ علم نصِب للهداية، منقسمة هذه القسمة، أتت الآية الكريمة منقسمة كذلك، فحصل فيها التدبيج وصحة التقسيم[2].

* * *

التنكيت

هو أن يقصد المتكلم إلى شئ بالذكر دون غيره، ممّا يسدُّ مسدّه، لأجل نكتة فى المذكور ترجّح مجيئه على سواه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[3]، خصّ الشِّعرى بالذّكر دون غيرها من النجوم، وهو تعالى ربّ كلّ شئ؛ لأن العرب كان ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبى كَبْشَة، عَبَدَ الشِّعرى، ودعا خلقاً إلى عبادتها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ التى ادّعيت فيها الربوبية.

* * *

التجريد

هو أن يُنتزع من أمرٍ ذى صفة آخر مثله، مبالغةً فى كمالها، نحو «لى من فلان صديق»

---

(١) فاطر ٢٧ (٢) بديع القرآن ٢٤٢، مع تصرف. (٣) النجم ٤٩

حميم »؛ جرّد من الرجل الصديق آخر مثله متصِفٌ بصفة الصّداقة. ونحو مررت بالرجل الكريم النّسمة المباركة ، جرّدوا من الرّجل الكريم آخر مثله متصفاً بصفة البركة ، وعطفوه عليه ، كأنه غيره ، وهو هو .

ومن أمثلته فى القرآن ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾[1] ؛ ليس المعنى أنّ الجنة فيها دار خلد وغير دار خلد ، بل هى نفسها دار الخلد ، فكأنه جرّد من الدار داراً . ذكره فى « المحتسب » ، وجعل منه: ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ﴾[2] ؛ على أن المراد بالميّت النطفة . قال الزمخشرىّ : وقرأ عبيد بن عمير ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةٌ كَالدِّهَانِ ﴾[3] بالرّفع ، بمعنى حصلت منها وردة ، قال : وهو من التجريد ، وقرئ أيضاً ﴿ يَرِثُنِي وَارِثٌ مِنْ آل يَعْقُوبَ ﴾[4] قال ابن جنى : هذا هو التجريد ، وذلك أنه يريد « وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً يَرِثُنِي منه وَارِثٌ مِنْ آل يَعْقُوبَ » وهو الوارث نفسه ، فكأنه جرّد منه وارثا .

* * *

التعديـــد

هو إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد ، وأكثر مايوجد فى الصفات ، كقوله : ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِى لَاإِلَهَ إلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾[5] .

وقوله : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ... ﴾[6] الآية .

وقوله : ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ ... ﴾[7] الآية .

* * *

الترتيب

هو أن يورد أوصاف الموصوف على ترتيبها فى الخِلقة الطبيعية ، ولا يدخل فيها

(١) فصلت ٢٨ — (٢) الأنعام ٩٥ — (٣) الرحمن ٣٧
(٤) مريم ٦ — (٥) الحشر ٢٣ — (٦) التوبة ١١٢
(٨) التحريم ٥

وصفاً زائداً ، ومثّله عبد الباقى اليمنى بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ﴾[١] ، وبقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ... ﴾[٢] الآية .

* * *

الترقِّى والتدلِّى

تقدّما فى نوع التقديم والتأخير .

* * *

التضمين

يطلق على أشياء :

أحدها : إيقاع لفظ موقع غيره لتضمّنه معناه ، وهو نوع من المجاز تقدم [الكلام] فيه .

الثانى : حصول معنى فيه من غير ذكره باسم هو عبارة عنه ، وهذا نوعٌ من الإيجاز ، تقدّم أيضاً .

الثالث : تعلّق مابعد الفاصلة بها ، وهذا مذكور فى نوع الفواصل .

الرابع : إدراج كلام الغَير فى أثناء الكلام لقصدِ تأكيد المعنى ، أو ترتيب النظم ، وهذا هو النوع البديعىّ . قال ابن أبى الإصبع : ولم أظفر فى القرآن بشىءٍ منه إلا فى موضعين تضمّنا فصلين من التوراة والإنجيل : قوله ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفسَ بِالنَّفْسِ... ﴾[٣] الآية ، وقوله ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ... ﴾[٤] الآية .

ومثّله ابن النقيب[٥] وغيره بإيداع حكايات المخلوقين ، فى القرآن كقوله تعالى حكاية عن الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[٦] ، وعن المنافقين : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ

---

(١) غافر ٦٧ (٢) الشمس ١٤ (٣) المائدة ٤٥

(٤) الفتح ٢٩ (٥) ابن النقيب هو محمد بن سليمان بن الحسن البلخى ، جمال الدين ابن النقيب ، فقيه من فقهاء الحنفية ، وله تفسير ، قيل إنه فى سبعين مجلدة . توفى سنة ٦٩٨ : الفوائد البهية ١٦٨ (٦) البقرة ٣٠

السُّفَهَاءُ ﴾[١]، ﴿ وقالت اليهود ﴾ و ﴿ قالت النصارى ﴾ ، قال : وكذلك ما أودع فيه من اللغات الأعجمية .

* * *

الجنـــاس

هو تشابه اللفظين فى اللفظ ، قال فى كنز البراعة : وفائدته الميل إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تُحدِث ميلاً وإصغاء إليها ، ولأنّ اللفظ المشترك، إذا حُمل على معنى ثم جاء والمراد به آخر ، كان للنفس تشوّقٌ إليه .

وأنواع الجناس كثيرة ، منها التامّ بأن يتفقا فى أنواع الحروف وأعدادها وهيآتها كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[٢] ، وقيل : ولم يقع منه فى القرآن سواه ، واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر موضعاً آخر ، وهو ﴿ يَكَادُ سَنَا برقه يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾[٣] ، ﴿ يُقَلِّبُ الله اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[٤].

وأنكر بعضهم كون الآية الأولى من الجناس ، وقال : الساعة فى الموضعين بمعنى واحد . والتجنيس أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، ولا يكون أحدهما حقيقة، والآخر مجازاً ، بل يكونان حقيقتين ، وزمان القيامة وإن طال لكنه عند الله فى حكم الساعة الواحدة ، فإطلاق الساعة على القيامة مجاز ، وعلى الآخرة حقيقة ، و ذلك يخرج الكلام عن التجنيس ، كما لو قلت : « ركبت حماراً ولقيت حماراً »، تعنى بليداً .

ومنها المصحّف، ويسمّى جناس الخطّ ، بأن تختلف الحروف فى النقط كقوله : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[٥].

ومنها المحرّف بأن يقع الاختلاف فى الحركات، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ

---

(١) البقرة ١٣ (٢) الروم ٥٥ (٣) النور ٤٣
(٤) النور ٤٤ (٥) الشعراء ٧٩ ، ٨٠

مُنْذِرِينَ * فانظرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾[١] .

وقد اجتمع التصحيف والتحريف فى قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾[٢] .

ومنها الناقص ، بأن يختلف فى عدد الحروف ، سواء كان الحرف المَزيد أولاً أو وسطاً أو آخراً ، كقوله : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾[٣] ، ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾[٤] .

ومنها المذيَّل ، بأن يزيد أحدهما أكثر من حرف فى الآخر أو الأول ، وسمّى بعضهم الثانى بالمتوّج ، كقوله : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ ﴾[٥] ، ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾[٦] ، ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ﴾[٧] ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ ﴾[٨] ﴿ مذبذبين بين ذَلِكَ ﴾[٩] .

ومنها المضارع ، وهو أن يختلفا بحرف مقارب فى المخرج ، سواء كان فى الأول أو الوسط أو الآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾[١٠] .

ومنها اللاّحق ، بأن يختلفا بحرف غير مقارب فيه كذلك ، كقوله : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[١١] ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[١٢] ، ﴿ ذٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[١٣] ، ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ ﴾[١٤] .

ومنها المرفوّ ، وهو ما تركَّب مِنْ كلة وبعض أخرى ، كقوله : ﴿ جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ ﴾[١٥] .

---

(١) الصافات ٧٢ — (٢) الكهف ١٠٤ — (٣) القيامة ٣٠
(٤) النحل ٦٩ — (٥) طه ٩٧ — (٦) القصص ٤
(٧) الأعراف ٨٦ — (٨) العاديات ١١ — (٩) النساء ٣٥
(١٠) الأنعام ٢٦ — (١١) الهمزة ١ — (١٢) العاديات ٧ ، ٨
(١٣) غافر ٧٥ — (١٤) النساء ٣٧ — (١٥) التوبة ١٠٩

ومنها اللفظىّ ، بأن يختلفا بحرف مناسب للآخر مناسبة لفظية كالضاد والظاء ، كقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(١) .

ومنها تجنيس القلب ، بأن يختلفا فى ترتيب الحروف ، نحو ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٢) .

ومنها تجنيس الاشتقاق ، بأن يجتمعا فى أصل الاشتقاق ، ويسمّى المقتضب ، نحو ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾(٣) ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾(٤) ، ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾(٥) .

ومنها تجنيس الإطلاق ، بأن يجتمعا فى المشابهة فقط ، كقوله : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ ﴾(٦) ، ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾(٧) ، ﴿ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي ﴾(٨) ، ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ ﴾(٩) ، ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ ﴾(١٠) ، ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾(١١) .

تنبيه

لكون الجناس من المحاسن اللفظية لا المعنوية ترك عند قوّة المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾(١٢) ، قيل : ما الحكمة فى كونه لم يقل : « وما أنت بمصدّق » ، فإنه يؤدى معناه مع رعاية التجنيس .

وأجيب : بأن فى « مؤمن لنا » من المعنى ما ليس فى « مصدّق » ، لأن معنى قولك : « فلان مصدّق لى » ، قال لى : صدقت ، وأمّا « مؤمن » فمعناه مع التصديق إعطاء الأمن ، ومقصودهم التصديق وزيادة ، وهو طلب الأمن ، فلذلك عبّر به .

---

(١) القيامة ٢٢ ، ٢٣ — (٢) طه ٩٤ — (٣) الواقعة ٨٩
(٤) الروم ٤٣ — (٥) الأنعام ٧٩ — (٦) الرحمن ٥٤
(٧) الشعراء ١٦٨ — (٧) المائدة ٣١ — (٩) يونس ١٠٧
(١٠) التوبة ٣٨ — (١١) فصلت ٥١ — (١٢) يوسف ١٧

وقد زلّ بعض الأدباء ، فقال فى قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) : لو قال : « وتدّعون » لـكان فيه مراعاة للتجنيس .

وأجاب الإمام فخر الدين ؛ بأن فصاحة القرآن ، ليست لرعاية هذه التكليفات ، بل لأجل قوّة المعانى وجزالة الألفاظ .

وأجاب غيره بأنّ مراعاة المعانى أولى من مراعاة الألفاظ ، ولو قال : « أتدْعون » و « تدّعون » ، لوقع الالتباس على القارئ ، فيجعلهما بمعنى واحدٍ تصحيفاً . وهذا الجواب غير ناضج .

وأجاب ابن الزّملكانىّ : بأنّ التجنيس تحسين ، وإنّما يُستعملُ فى مقام الوعد والإحسان ، لافى مقام التهويل .

وأجاب الخويىّ بأن « يدع » أخصّ من « يذر » لأنّه بمعنى ترك الشئ مع اعتنائه بشهادة الاشتقاق ؛ نحو الإيداع ؛ فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها . ولهذا يختار لها مَنْ هو مؤتمنٌ عليها .

ومن ذلك الدَّعة بمعنى الراحة ، وأما « تذر » فمعناه التّركَ مطلقاً ، أو الترك مع الإعراض والرفض الكلىّ .

قال الراغب : يقال : فلان يَذَرُ الشئ ، أى يقذفه لقلة الاعتداد به ، ومنه الوذر قطعة من اللحم لقلة الاعتداد به ، ولاشكّ أن السِّياق إنّما يناسب هذا دون الأول ، فأريد هنا تبشيع حالهم فى الإعراض عن ربّهم ، وأنهم بلغوا الغاية فى الإعراض . انتهى .

* * *

الجمع

هو أن يجمع بين شيئين أو اشياء متعدّدة فى حكم ، كقوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ

(١) الصافات ١٢٥

زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1]، جمع المال والبنون فى الزينة .

وكذلك قوله : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[2] .

* * *

الجمع والتفريق

هو أن تُدخل شيئين فى معنًى ، وتفرّق بين جهتىِ الإدخال ؛ وجعل منه الطِّيبىّ قوله: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. ﴾[3] الآية ، جمع النفسين فى حكم التوفى ، ثم فرّق بين جهتىِ التوفّى بالحكم بالإمساك والإرسال ، أى الله يتوفّى بالإمساك والإرسال ، أى الله يتوفّى الأنفس التى تُقبض والتى لم تقبض ، فيمسِكُ الأولى ويرسل الأخرى .

* * *

الجمع والتقسيم

وهو جمع متعدّد تحت حكم ، ثم تقسيمه ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾[4] .

* * *

الجمع مع والتفريق والتقسيم

كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... ﴾[5] الآيات .

فالجمع فى قوله: « لا تكلّم نفس إلّا بإذنه »، لأنها متعدّدة معنًى ، إذ النكرة فى سياق النفى تعمّ ، والتفريق فى قوله: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ، والتقسيم فى قوله : و﴿ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾[5] .

* * *

جمع المؤتلف والمختلف

هو أن يريد التسوية بين ممدوحين ، فيأتى بمعانٍ مؤتلفة فى مدحهما ، ويروم بعد

---

(١) الكهف ٤٦
(٢) الرحمن ٥ ، ٦
(٣) الزمر ٤٢
(٤) فاطر ٣٢
(٥) هود ١٠٥ — ١٠٨ وما بعدها

ذلك ترجيح أحدهما على الآخر ، بزيادة فضل لا ينقص الآخر ، فيأتى لأجل ذلك بمعان تخالف معنى التسوية ، كقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ...﴾[1] الآية، سوّى فى الحكم والعلم ، وزاد فضل سليمان بالفهم .

* * *

حسن النسق

هو أن يأتى المتكلم بكلمات متتاليات معطوفات متلاحمات ، تلاحماً سليماً مستحسناً ؛ بحيث إذ أفردت كلُّ جملة منه قامت بنفسها ، واستقلّ معناها بلفظها ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ...﴾[2] الآية ، فإنّ جُمَلَهُ معطوف بعضها على بعضها بواو النّسق على الترتيب الذى تقتضيه البلاغة ، من الابتداء بالاسم الذى هو انحسار الماء عن الأرض ، المتوقف عليه غاية مطلوب أهل السفينة ، من الإطلاق من سِجْنها ، ثم انقطاع مادّة السماء المتوقّف عليه تمام ذلك ، من دفع أذاه بعد الخروج ، ومنع إخلاف ما كان بالأرض ، ثم الإخبار بذهاب الماء بعد انقطاع المادّتين الذى هو متأخر عنه قطعاً ، ثم بقضاء الأمر الذى هو هلاك مَنْ قُدِّر هلاكه ، ونجاة مَنْ سبق نجاته ، وأُخِّرَ عمّا قبله ؛ لأنّ علم ذلك لأهل السفينة بعد خروجهم منها ، وخروجهم موقوف على ما تقدّم. ثم أخبر باستواء السفينة واستقرارها المفيد ذهاب الخوف وحصول الأمن من الاضطراب، ثم خَتَم بالدعاء على الظالمين ؛ لإفادة أن الغَرَق وإن عمّ الأرضَ ، فلم يشمل إلاّ من استحقّ العذاب لظلمه .

* * *

عتاب المرء نفسه

منه : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي ...﴾[3] ،الآيات .

وقوله : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ...﴾[4] ،الآيات .

---

(١) الأنبياء ٧٨ (٢) هود ٤٤ (٣) الفرقان ٢٧
(٤) الزمر ٥٦

العكس

هو أن يؤتى بكلام يقدّم فيه جزء ويؤخّر آخر، ثم يقدّم المؤخر، ويؤخّر المقدم، كقوله تعالى: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾[١]، ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[٢]، ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾[٣]، ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[٤]، ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[٥].

وقد سُئل عن الحكمة فى عكس هذا اللفظ. فأجاب ابن المنيِّر؛ بأنّ فائدته الإشارة إلى أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب: الحقّ أنّ كل واحد من فعل المؤمنة والكافر منفىّ عنه الحِلّ، أما فعل المؤمنة فيحرم لأنها مخاطبة، وأما فعل الكافر فنفى عنه الحِلّ باعتبار أن هذا الوطء مشتمل على المفسدة، فليس الكفار مورد الخطاب، بل الأئمة ومَنْ قام مقامهم مخاطبون بمنع ذلك، لأنّ الشرع أمر بإخلاء الوجود من المفاسد؛ فاتّضح أنّ المؤمنة نفى عنها الحلّ باعتبار، والكافر نفى عنه الحلّ باعتبار.

قال ابن أبى الإصبع: ومن غريب أسلوب هذا النوع قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[٦]، فإن نظم الآية الثانية عكس نظم الأولى، لتقديم العمل فى الأولى على الإيمان، وتأخيره فى الثانية عن الإسلام.

ومنه نوع يسمى القلب والمقلوب المستوىّ، وما لا يستحيل بالانعكاس، وهو أن

---

(١) الأنعام ٥٢ (٢) الحج ٦١ (٣) يونس ٣١
(٤) البقرة ١٨٧ (٥) الممتحنة ١٠ (٦) النساء ١٢٤، ١٢٥

تقرأ الكلمة من آخرها إلى أولها ، كما تُقرأ من أولها إلى آخرها كقوله تعالى : ﴿ كلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾ [١] ، ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [٢] ، ولا ثالث لهما فى القرآن .

* * *

العنوان

قال ابن أبى الإصبع : [٣] هو أن يأخذ المتكلم فى غرض ، فيأتى لقصد تكميله وتأكيده بأمثلة فى ألفاظ تكون عنواناً لأخبارٍ متقدّمة ، وقصصٍ سالفة ، ومنه نوع عظيم جدًّا ، وهو عنوان العلوم ، بأن يذكر فى الكلام ألفاظاً تكون مفاتيحَ لعلوم ومداخل لها .

فمن الأول قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ... ﴾[٤] الآية ، فإنه عنوان قصةِ بلْعام .

ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ ... ﴾[٥] الآية ، فيها عنوان علم الهندسة [٦] ، فإنّ الشكل المثلّث أول الأشكال ، وإذا نُصب فى الشمس على أىّ ضلع من أضلاعه ، لايكون له ظِلٌّ ، لتحديد رءوس زواياه ، فأمر الله تعالى أهل جهنّم بالانطلاق إلى ظلّ هذا الشكل تهكُّما بهم .

وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾[٧] الآيات ، فيها عنوان علم الكلام وعلم الجدَل وعلم الهيئة[٨] .

* * *

الفرائد

هو مختصٌّ بالفصاحة دون البلاغة ؛ لأنه الإتيان بلفظةٍ تتنزّل منزلة الفريدة من العِقد ، وهى الجوهرة التى لانظير لها ، تدلّ على عِظم فصاحة هذا الكلام ، وقوة

---

(١) الأنبياء ٣٣ (٢) المدثر ٣ (٣) بديع القرآن ٢٥٧

(٤) الأعراف ١٥٧ (٥) المرسلات ٣٠ ، ٣١ (٦) بديع القرآن : « وهذا عنوان العلم المنسوب إلى إقليدس » . (٧) الأنعام ٥٧

(٨) بديع القرآن : « وهذا عنوان العلم المعروف بالمجسطى » .

عارضته ، وجزالة منطقة ، وأصالة عربيّته ، بحيث لو أسقطتْ من الكلام عزّت على الفصحاء [غرابتها][1].

ومنه لفظ : « حصحص » فى قوله : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾[2]. « والرّفث » فى قوله : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾[3].

ولفظة « فُزِّعَ » فى قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾[4].

وخائنة الأعين فى قوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾[5].

وألفاظ قوله : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾[6] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾[7].

* * *

القسم

هو أن يريد المتكلّم الحلف على شئ ، فيحلف بما يكون فيه فخر له ، أو تعظيم لشأنه ، أو تنويه لقدره ، أو ذمٌّ لغيره ، أو جارياً مجرى الغزل والترفق ، أو خارجاً مخرج الموعظة والزهد ، كقوله : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾[8] ، أقسم سبحانه وتعالى بقسم يوجب الفخر ، لتضمّنه التمدّح بأعظم قدرة ، وأجل عظمة .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[9] ، أقسم سبحانه وتعالى بحياة نبيّه صلى الله عليه وسلم تعظيماً لشأنه ، وتنويهاً بقدره . وسيأتى فى نوع الأقسام أشياء تتعلق بذلك .

* * *

اللف والنشر

هو أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إمّا تفصيلاً بالنصّ على كلّ واحد أو إجمالا ، بأن يؤتَى بلفظ يشتمل على متعدّد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كلُّ واحد يرجع إلى

---

(١) من بديع القرآن ٢٨٧ — (٢) يوسف ٥١ — (٣) البقرة ١٨٧

(٤) سبأ ٢٣ — (٥) غافر ١٩ — (٦) يوسف ٨٠

(٨) الصافات ١٧٧ — (٨) الذاريات ٢٣ — (٩) الحجر ٧٢

واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع ردّ كلّ واحد إلى ما يليق به . فالإجماليّ كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾ (١) ، أى وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلاّ اليهود ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلاّ النصارى ؛ وإنما سوّغ الإجمال فى اللفّ ثبوت العناد بين اليهود والنصارى ، فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الفريق الآخر الجنة ، فوُثق بالعقل فى أنه يردّ كلّ قولٍ إلى فريقه لأمنِ اللّبس ، وقائل ذلك يهود المدنية ونصارى نجران .

قلت : وقد يكون الإجمال فى النّشر لا فى اللّف ، بأن يؤتَى بمتعدّد ، ثم بلفظ يشتمل على متعدّد يصلح لهما ، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (٢) على قول أبى عبيدة: إن الخيط الأسود أريد به الفجر الكاذب لا الليل ، وقد بيّنتُه فى أسرار التنزيل .

والتفصيلىّ قسمان :

أحدهما : أن يكون على ترتيب اللفّ ، كقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٣) فالسّكون راجع إلى اللّيل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ (٤) ، فاللّومُ راجع إلى البخل، ومحسوراً راجع إلى الإسراف ، لأن معناه: منقطعا لا شىء عندك .

وقوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً ... ﴾ الآيات ، فإن قوله : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ راجع إلى قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ ، و﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ فإن المراد السائلُ عن العلم كما فسّره مجاهد وغيره ، و﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ

---

(١) البقرة ١١١ (٢) البقرة ١٨٧ (٣) القصص ٧٣
(٤) الأسراء ٢٩

رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ (١) رأيت هذا المثال فى شرح الوسيط للنووىّ المسمّى بالتنقيح .

والثانى : أن يكون على عكس ترتيبه ، كقوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ... ﴾ (٢) .

وجعل منه جماعة قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (٣) ، قالوا : « متى نصر الله » : قول الذين آمنوا ، « ألا إن نصر الله قريب » : قول الرسول .

وذكر الزمخشرىّ قسماً آخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٤) ، قال : هذا من باب اللفّ ، وتقديره : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » ، إلا أنّه فصل بين « منامكم » « وابتغاؤكم » بالليل والنهار لأنهما زمانان ، والزمان الواقع فيه كشىء واحد مع إقامة اللفّ على الاتحاد .

* * *

المشاكلة

ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً ، أو تقديراً .

فالأول كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ (٥) ، ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ﴾ (٦) ، فإن إطلاق النفس والمكر فى جانب البارئ تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . وكذا قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (٧) ، لأنّ الجزاء حقٌّ لا يوصف بأنه سيّئة ، ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ (٨) ، ﴿ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ (٩) ،

---

(١) الضحى ١١ (٢) آل عمران ١٠٦ (٣) البقرة ٢١٤
(٤) الروم ٢٣ (٥) المائدة ١١٦ (٦) آل عمران ٥٤
(٧) الشورى ٤٠ (٨) البقرة ١٩٤ (٩) الجاثية ٣٤

﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ [١] ، ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [٢] .

ومثال التقديرىّ قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ ﴾ [٣] ، أى تطهير الله ؛ لأن الإيمان يطهّر النفوس ، والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمّونه المعموديّة ، ويقولون : إنه تطهير لهم ، فعبّر عن الإيمان بـ« صبغة الله » للمشاكلة بهذه القرينة .

* * *

المزاوجـــة

أن يزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء ، أو ما جرى مجراهما ، كقوله :

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِى فلجّ بِىَ الهوى أصاخَت إلى الواشى فلجّ بها الهجر [٤]

ومنه فى القرآن : ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [٥]

* * *

المبالغـــة

أن يذكر المتكلّم وصفاً فيزيد فيه حتى يكون أبلغ فى المعنى الذى قصده . وهى ضربان : مبالغة بالوصف بأن يخرج إلى حدّ الاستحالة ، ومنه ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [٦] ، ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [٧] ، ومبالغة بالصيغة ، وصيغ المبالغة : « فعلان » كالرحمن ، و « فعيل » كالرحيم ، و « فعّال » كالتوّاب والغفار والقهار ، و « فعول » كغفور وشكور وودود ، و « فَعِل » كحذِر وأَشِر وفرِح ، و « فُعَال » بالتخفيف ، كعُجاب وبالتشديد ككبّار ، و « فُعَل » كلُبَد وكبَر ، و « فُعْلى » كالعليا والحسنى وشورى والسوءى .

---

(١) التوبة ٧٩
(٢) البقرة ١٣٨
(٣) البقرة ١٣٥ ٢٨
(٤) للبحترى ، ديوانه ١ : ٢١٧ .
(٥) الأعراف ١٧٥
(٦) النور ٣٥
(٧) الأعراف ٤٠

فائـــدة

الأكثر على أن « فَعلان » أبلغ من « فَعيل » ، ومن ثمّ قيل : « الرحمن » أبلغُ من « الرحيم » ، ونصره السهيليّ بأنه ورد على صيغة التثنية ، والتثنية تضعيف ، فكأنّ البناء تضاعفت فيه الصّفة . وذَهَب ابنُ الأنباريّ إلى أن « الرحيم » أبلغ من «الرحمن » ورجّحه ابن عسكر بتقديم « الرحمن » عليه ، وبأنه جاء على صيغة الجمع ، كعبيد وهو أبلغ من صيغة التثنية . وذهب قُطْرب إلى أنّهما سواء .

* * *

فائـــدة

ذكر البرهان الرشيديّ أن صفات الله التِي على صيغة المبالغة كلّها مجاز ؛ لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها ؛ لأن المبالغة أن تثبت للشيء أكثر ممّا له ، وصفاتُه تعالى متناهية في الكمال لا يمكن المبالغة فيها . وأيضاً فالمبالغة تكون في صفاتٍ تقبل الزيادة والنقصان ، وصفات الله منزّهة عن ذلك ، واستحسنه الشيخ تقيّ الدين السّبكيّ .

وقال الزّركشي في البرهان : التحقيق أن صيغ المبالغة قسمان :

أحدهما : ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل .

والثاني : بحسب تعدّد المفعولات ، ولا شك أن تعدّدها لا يوجب للفعل زيادة ، إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعدّدين ، وعلى هذا القسم تنزّل صفاته تعالى ويرتفع الإشكال ؛ ولهذا قاله بعضهم في « حكيم » : معنى المبالغة فيه تكرار حكمِه بالنّسبة إلى الشرائع .

وقال في الكشاف : المبالغة في التّوّاب للدلالة على كثرة مَنْ يتوب عليه من عباده ، أو لأنه بليغ في قبول التوبة نُزّل صاحبها منزلة من لم يذنب قطّ ، لسعة كرمه

وقد أورد بعض الفضلاء سؤالاً على قوله : ﴿ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ؛ وهو أن « قديراً » من صيغ المبالغة ، فيستلزم لزيادة على معنى « قادر » ، والزيادة على معنى « قادر » محال ، إذ الإيجاد من واحد لا يمكن فيه التفاضل باعتبار كلّ فرد فرد .

وأجيب ، بأنّ المبالغة لما تعذّر حملها على كلّ فرد وجب صرفها إلى مجموع الأفراد الّتى دل السّياق عليها ، فهى بالنسبة إلى كثرة المتعلّق لا الوصف .

* * *

المطابقـــة

وتسمّى الطباق . الجمع بين متضادّين فى الجملة ؛ وهو قسمان : حقيقىّ ومجازىّ ، والثانى يسمّى التكافؤ ، و كلّ منهما إما لفظىّ أو معنوىّ . وإمّا طباق إيجاب أو سلب .

ومن أمثلة ذلك ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾[2] ، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[3] ، ﴿ لِكَيْ لاَ تَأْسَوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[4] ، ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[5] .

ومن أمثلة المجازىّ ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾[6] ، أَىْ ضَالاً فَهَدَيْنَاهُ .

ومن أمثلة طباق السلب ﴿ تَعْلَمُ مَافِي نفسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَافِي نَفْسِكَ ﴾[7] ، ﴿ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[8] .

ومن أمثلة المعنوىّ ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾[9] معناه « ربنا يعلم إنا لصادقون » .

﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾[10] ، قال أبو علىّ الفارسىّ : لمّا كان البناء رفعاً للمبنىّ قوبل بالفراش الذى هو على خلاف البناء .

---

(١) البقرة ٢٨٤ (٢) التوبة ٨٢ (٣) النجم ٤٣
(٤) الحديد ٢٣ (٥) الكهف ١٨ (٦) الأنعام ١٢٢
(٧) المائدة ١١٦ (٨) المائدة ٤٤ (٩) يس ١٥ ، ١٦
(١٠) البقرة ٢٢

ومنه نوع يسمّى الطباق الخفيّ ، كقوله : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾[1]؛ لأن الغرق من صفات الماء ، فكأنه جمع بين الماء والنار ، قال ابن منقذ:[2] وهى أخفى مطابقة فى القرآن ·

وقال ابن المعتز[3]: من أملح الطباق وأخفاه قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[4]؛ لأن معنى القصاص القتل، فصار القتل سبب الحياة .

ومنه نوع يسمّى ترصيع الكلام ، وهو اقتران الشىء بما يجتمع معه فى قدر مشترك، كقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾[5]، أتى بالجوع مع العرى ، وبابه أن يكون مع الظمأ ، وبالضحى مع الظمأ ، وبابُه أن يكون مع العرى ، لكنّ الجوع والعرْى اشتركا فى الخلوّ ، فالجوع خلوّ الباطن من الطعام ، والعرى خلوّ الظاهر من اللباس ، والظمأ والضحى اشتركا فى الاحتراق ، فالظمأ احتراق الباطن من العطش والضّحى احتراق الظاهر من حر الشّمس .

ومنه نوع يسمّى المقابلة، وهى أن يذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب ، قال ابن أبى الإصبع: والفرق بين الطباق والمقابلة من وجهين :

أحدهما : أن الطّباق لا يكون إلاّ من ضدّين فقط ، والمقابلة لا تكون إلاّ بما زاد من الأربعة إلى العشرة .

والثانى : أن الطّباق لا يكون إلاّ بالأضداد ، والمقابلة بالأضداد وبغيرها .

قال السكاكيّ : ومن خواصّ المقابلة أنّه إذا شُرط فى الأول أمر ، شرط فى الثانى ضدّه ، كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ... ﴾[6] الآيتين؛ قابل بين الإعطاء والبخل، والاتقاء والاستغناء ، والتصديق والتكذيب ، واليسرى والعسرى ، ولمّا جعل التيسير فى الأول مشتركاً بين الإعطاء والاتقاء والتصديق، جعل ضده ، وهو التفسير مشتركا بين أضدادها.

---

(١) نوح ٢٥ (٢) هو أسامة بن منقذ الأمير الشيزرى، صاحب كتاب البديع وغيره من كتب الأدب والتاريخ . توفى سنة ٥٨٤

(٣) هو عبد الله بن محمد المعتز بالله ، الخليفة ، الشاعر المبدع ، صاحب كتاب البديع وغيره . توفى مقتولا سنة ٢٩٦ (٤) البقرة ١٧٩ (٥) طه ١١٨، ١١٩ (٦) الليل ٥

وقال بعضهم : المقابلة إمّا لواحد بواحد،وذلك قليل جدًّا ، كقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(١) .

أو اثنين باثنين ، كقوله : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾(٢).

أو ثلاثة بثلاثة كقوله : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾(٣)، ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(٤).

وأربعة بأربعة ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ... ﴾(٥) الآيتين .

وخمسة بخمسة ، كقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا... ﴾(٦) الآيات،قابل بين « بعوضةً فما فوقها » وبين « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا » و « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » ، وبين « يضلّ » و « يهدى » ، وبين « ينقضون » و « ميثاقه » ، وبين « يقطعون » و «أن يوصل » .

أو ستة بستة ، كقوله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ... ﴾(٧) ، الآية ، ثم قال: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ ... ﴾(٧) ، الآية،قابل « الجنات » ، والأنهار ، والخلد ، والأزواج ، والتطهير ، والرضوان ، إزاء النساء ، والبنين ، والذهب ، والفضة ، والخيل المسوّمة ، والانعام،والحرث .

وقسّم آخرُ المقابلة إلى ثلاثة أنواع : نظيرىّ ، ونقيضىّ ، وخلافىّ .

مثال الأول : مقابلة السِّنة بالنوم فى الآية الأولى،فإنّهما جميعاً من باب الرقاد المقابَل باليقظةفى آية ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾(٨) ، وهذا مثال الثانى ، فإنّهمانقيضان .

---

(١) البقرة ٢٥٥ — (٢) التوبة ٨٢ — (٣) الأعراف ١٥٧

(٤) البقره ١٥٢ — (٥) الليل ٥ — (٦) البقرة ٢٦

(٧) آ عمران ١٤ ، ١٥ — (٨) الكهف ١٨

ومثال الثالث : مقابلة الشرّ بالرشد في قوله : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾[1] ، فإنّهما خلافان لا نقيضان ، فإن نقيض الشرّ الخير ، والرشد الغيّ .

* * *

المــــوارية

براء مهملة وباء موحّدة.أن يقول المتكلّم قولاً يتضمّن ما يُنكَر عليه ، فإذا حصل الإنكار استحضر بحذقه وجهاً من الوجوه يتخلّص به،إمّا بتحريف كلمة أو تصحيفها ، أو زيادة أو نقص ، قال ابن أبي الإصبع : ومنه قوله تعالى حكاية عن أكبر أولاد يعقوب : ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾[2] ، فإنه قرىء: « إن ابنك سُرِّقَ ولم يسرق » ، فأتى بالكلام على الصحّة بإبدال ضمّة من فتحة وتشديد الراء وكسرتها[3] .

* * *

المراجعــــة

قال ابن أبي الإصبع : هي أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرت بينه وبين محاورٍ له ، بأوجز عبارة وأعدل سبك ، وأعذب ألفاظ ، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[4] ،جمعت هذه القطعة ـ وهي بعض آية ـ ثلاث مراجعات فيها معاني الكلام ؛ من الخبر والاستخبار ، والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، بالمنطوق والمفهوم[5] .

قلت : أحسن من هذا أن يقال ، جمعت الخبر والطلب ، والإثبات والنفي ، والتأكيد والحذف ، والبشارة والنذارة ، والوعد والوعيد .

---

(١) الجن ١٠ (٢) يوسف ٨١ (٣) بديع القران ٩٥

(٤) البقرة ١٢٤ (٥) بديع القرآن ٣٠٠

النزاهـــــة

هى خلوص ألفاظ الهجاء من الفحش ، حتى يكون كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وقد سئل عن أحسن الهجاء : هو الذى إذا أنشدته العذراء فى خدرها لا يقبح عليها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ، ثم قال: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1] ، فإنّ ألفاظ ذمّ هؤلاء المخبر عنهم بهذا الخبر أتت منزهة عمّا يقبح فى الهجاء من الفحش . وسائر هجاء القرآن كذلك[2] .

* * *

الإبـــداع

بالباء الموحّدة . أن يشتمل الكلام على عدّة ضروب من البديع ، قال ابن أبى الإصبع : ولم أرَ فى الكلام مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾[3] ، فإن فيها عشرين ضرباً من البديع ، وهى سبع عشرة لفظة ، وذلك : المناسبة التامة فى « ابلعى » « وأقلعى » ، والاستعارة فيهما ، والطباق بين الأرض والسماء ، والمجاز فى قوله تعالى : ﴿ يَاسَمَاءُ ﴾ فإن الحقيقة يامطر السماء ، والإشارة فى « وغيض المـاء » ، فإنه عبّر به عن معان كثيرة ، لأن المـاء لايغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض مايخرج منها من عيون المـاء ، فينقص الحاصل على وجه الأرض من المـاء . والإرداف فى : « واستوت » . والتمثيل فى : « وقضى الأمر » . والتعليل ، فإنّ « غيض المـاء » علّة الاستواء ، وصحة التقسيم ، فإنه استوعب فيه أقسام المـاء حالة نقصه ، إذ ليس إلاّ احتباس ماء السماء ، والمـاء النابع من الأرض ، وغيض المـاء الذى على ظهرها . والاحتراس فى الدعاء ، لئلا يتوهّم أن الغرق لعمومه شمل من لايستحق

---

(١) النور ٤٨ ، ٥٠ (٢) بديع القرآن ٢٩٣ (٣) هود ٤٤

الهلاك ، فإن عَدْلَه تعالى يمنع أن يدعوَ مع غير مستحقّ ، وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعنى ، والإيجاز ؛ فإنه تعالى قصّ القصة مستوعبة بأخصر عبارة ، والتسهيم ؛ لأنّ أول الآية يدل على آخرها ، والتهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن ، كلّ لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة مع الخلوّ من البشاعة وعقادة التركيب . وحسن البيان ؛ من جهة أنّ السامع لا يتوقف فى فهم معنى الكلام ، ولا يشكل عليه شىْ منه ، والتمكين ؛ لأن الفاصلة مستقرّة فى محلها ، مطمئنة فى مكانها ، غير قلقة ولا مستدعاة ، والانسجام [وهو تحدّر الكلام بسهولة وعذوبة سبك ، مع جزالة لفظ ؛ كما ينسجم الماء القليل من الهواء] (١) .

هذا ما ذكره ابن أبى الإصبع (٢) .

قلت : فيها أيضاً الاعتراض .

---

(١) من بديع القرآن .

(٢) بديع القرآن ٣٤٠ - ٣٤٣ .

النوع التاسع والخمسون
فى فواصل الآى

الفاصلة كلمة آخر الآية ، كقافية الشّعر وقرينة السجع .

وقال الدّانى [1] : كلمة آخر الجملة .

قال الجعبرى [2] : وهو خلاف المصطلح ، ولا دليلَ له فى تمثيل سيبويه [3] ، بـ ﴿ يومْ يأتِ ﴾ [4] ، و ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ [5] ، وليسا رأس آيٍ ؛ لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية [6] .

وقال القاضى أبو بكر : الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع يقع بها إفهام المعانى .

وفرق الدّانى بين الفواصل ورءوس الآى ، فقال : الفاصلة هى الكلام المنفصِل عمّا بعده . والكلام المنفصل قد يكون رأسَ آية ، وغير رأس ، وكذلك الفَواصل يكنّ رءوس آيٍ وغيرها ؛ وكلّ رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية ؛ قال : ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ، ذكر سيبويه فى تمثيل القوافى ﴿ يوم يَأتِ ﴾ ، و﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ ـ وليسا رأس آيتين بإجماع ـ مع ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ [7] وهو رأس آية باتفاق .

وقال الجعبرىّ : لمعرفة الفواصل طريقان : توقيفىّ وقياسىّ . أما التوقيفىّ فما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم وقف عليه دائماً تحققْنا أنه فاصلة ، وما وصله دائما تحققنا أنه ليس بفاصلة ، وما وقف عليه مرّة ووصله أخرى ، احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة ،

---

(١) هو الإمام عثمان بن سعيد أبو عمرو الدانى ، أحد أئمة القراءات ، وصاحب كتاب التيسير والمقنع والاكتفاء وغيرها من الكتب التى تتعلق بالقراءات توفى سنة ٤٤٤ . إنباه الرواة ٢ : ٣٤١

(٢) هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبرى ، صاحب شرح الشاطبية المسمى كنز المعانى ، وكتاب روضة الطرائف فى رسم المصاحف . توفى سنة ٧٣٢ . الدرر الكامنة ١ : ٥٠

(٣) الكتاب ٢ : ٢٨٩ — (٤) هود ١٠٥ — (٥) الكهف ٦٤

(٦) نقله فى البرهان ١ : ٥٣ — (٧) الفجر ٤

أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة . والوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدّم تعريفها . وأما القياسيّ فهو ما ألحق من المحتمَل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب؛ ولا محذور فى ذلك، لأنه لا زياده فيه ولا نقصان ، وإنما غايتهُ أنه محلّ فصل أو وصل ، والوقف على كلّ كلمة جائز ، ووصل القرآن كله جائز، فاحتاج القياس إلى طريق تعرّفه ، فنقول : فاصلة الآية كقرينة السجعة فى النثر وقافية البيت فى الشعر ، وما يذكر من عيوب القافية مِن اختلاف الحذّ (١) والإشباع والتوجيه فليس بعيب فى الفاصلة . وجاز الانتقال فى الفاصلة ، والقرنية ، وقافية الأرجوزة من نوع إلى آخر، بخلاف قافية القصيدة ، ومن ثمّ ترى « يَرجعون » مع « عليم » (٢) ، «والميعاد» مع «الثواب»(٣) ، « والطارق » مع « الثاقب » (٤) .

والأصل فى الفاصلة والقرينة المتجردة فى الآية والسجعة المساواة ، ومن ثمّ أجمع العادُّون على ترك عدّ ﴿ ويأت بآخرين ﴾(٥) و ﴿ وَلاَ الملائكة المقرّبون ﴾(٦) فى النساء ، ﴿ وكذّب بها الأولون ﴾ (٧) ، بسبحان ، و ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينِ ﴾ (٨) ، بمريم ، و ﴿ لعلَّهُمْ يتّقون ﴾ (٩) ، بطه ، و ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾ (١٠) ، ﴿ وأن الله على كل شىء قدير ﴾(١١) بالطلاق ، حيث لم يشا كل طرفيه .

وعلى ترك عدّ ﴿ أَفغيرَ دِينِ الله يَبْغُونَ ﴾(١٢) بآل عمران، و ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾(١٣) بالمائدة ، وعدّوا نظائرها للمناسبة، نحو ﴿ لأُولِي الْأَلْبَاب ﴾(١٤) بآل عمران وَ ﴿ عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾(١٥) بالكهف ، و ﴿ السَّلْوَى ﴾ (١٦) ، بطه(١٧) .

وقال غيره : تقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها : وهى الطريقة

---

(١) البرهان الحذو » .
(٢) آل عمران ٧٢ ، ٧٣
(٣) آل عمران ١٩٤، ١٩٥
(٤) الطارق ١ ، ٣
(٥) النساء ١٣٣
(٦) النساء ١٧٢
(٧) الإسراء ٥٩
(٨) مريم ٩٧
(٩) طه ١١٣
(١٠) الطلاق ١١
(١١) الطلاق ١٢
(١٢) آل عمران ٨٣
(١٣) المائدة ٥٠
(١٤) آل عمران ١٩٠
(١٥) الكهف ١٥
(١٦) طه ٨٠
(١٧) نقله فى البرهان ١ : ٩٩ ، ١٠٠ .

التى يُباينُ القرآن بها سائر الكلام ، وتسمّى فواصل ، لأنه ينفصل عنده الكلامان ، وذلك أنّ آخر الآية فصلٌ بينها وبين مابعدها ، وأخذاً من قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ (١). ولا يجوز تسميتها قوافىَ إجماعاً ؛ لأن الله تعالى لمّا سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافيه عنه أيضا لأنها منه ، وخاصة فى الاصطلاح ، وكما يمتنع استعمال القافية فيه ، يمتنع استعمال الفاصلة فى الشعر ؛ لأنها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعدّاه . وهل يجوز استعمال السجع فى القرآن ؟ خلاف،الجمهور على المنع ؛ لأنّ أصلَه من سجع الطير ، فشرُف القرآن أن يُستعارَ لشئ منه لفظ أصله مهمل ؛ ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث فى وصفه بذلك ؛ ولأن القرآن من صفاته تعالى ، فلا يجوز وصفه بصفة لم يردِ الإذن بها .

قال الرمانىّ فى إعجاز القرآن : ذهب الأشعرية إلى امتناع أن يقال : فى القرآن سجع، وفرّقوا بأنّ السجع هو الذى يقصَد فى نفسه ثم يحال المعنى عليه ، والفواصل التى تتبع المعانى ، ولا تكون مقصودة فى نفسها . قال : ولذلك كانت الفواصل بلاغة ، والسجع عيباً ، وتبعه على ذلك القاضى أبو بكر الباقلانىّ ، ونقله عن نصّ أبى الحسن الأشعرىّ ، وأصحابنا كلهم . قال : وذهب كثير من غير الأشاعرةِ إلى إثبات السجع فى القرآن ، وزعموا أنّ ذلك مما يَبين به فضلُ الكلام ، وأنه من الأجناس التى يقع بها التفاضل فى البيان والفصاحة ، كالجناس والالتفات ونحوها ، قال: وأقوى مااستدلّوا به الاتفاق على أن موسى أفضل من هارون ولمكان السجع قيل فى موضعٍ : ﴿ هارون وموسى ﴾ (٢) ، ولما كانت الفواصل موضع آخر بالواو والنون كله قيل : ﴿ موسى وهارون ﴾ (٣) ، قالوا : وهذا يفارق أمرَ الشعر لأنه لايجوز أن يقع فى الخطاب إلاّ مقصوداً إليه ، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القَدْر الذى تسميه شعراً ؛ وذلك القدر مما يتفق وجوده من المفحم ، كما يتفق وجوده من الشاعر . وأما ماجاء فى القرآن من السجع فهو كثير لايصح أن يتفق غير مقصود إليه .

وبنوا الأمر فى ذلك على تحديد معنى السجع ، فقال أهل اللغة : هو موالاةُ الكلام

---

(١) هود ١ (٢) طه ٧٠ (٣) الشعراء ٤٨

على حدّ واحد .

وقال ابن دريد : سجعت الحمامةُ معناه ردّدت صوتها ؛ قال القاضي : وهذا غير صحيح، ولو كان القرآن سجعاً لـكان غيرَ خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، لجاز أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع ممّا كان تألفه الكهّان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدرُ بأن يكون حجة من نفي الشعر ؛ لأن الـكهانة تنافي النبوّات بخلاف الشعر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: « أسَجْعٌ كسجع الـكهان ! » ، فجعله مذموماً .

قال : وما توهّموا أنّه سجع باطل ؛ لأن مجيئه على صورته لا يقتضي كونَه هو ، لأن السجع يتبع المعنى فيه اللفظَ الذى يؤدِّى السجع ، وليس كذلك ما اتفق ممّا هو في معنى السجع من القرآن ؛ لأن اللفظ وقع فيه تابعاً للمعنى ؛ وفَرْقٌ بين أن ينتظم الـكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدِّى المعنى المقصود منه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتَى انتظم المعنى بنفسه دونَ السجع ، كان مستجلباً لتحسين الـكلام دون تصحيح المعنى .

قال : وللسَّجْع منهج محفوظ وطريق مضبوط؛ مَنْ أخلّ به وقع الخللُ في كلامه ، ونُسِب إلى الخروج عن الفصاحة ، كما أنّ الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً ، وأنتَ ترى فواصل القرآن متفاوتة ، بعضها متدانى المقاطع ، وبعضُها يمتدّ حتّى يتضاعف طولُه عليه ، وترد الفاصلة في ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ؛ وهذا في السجع غير مرضيّ ولا محمود .

قال : وأمّا ماذكروه من تقديم موسى على هارون في موضع ، وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع وتساوِى مقاطع الـكلام ، فليس بصحيح ؛ بل الفائدة فيه إعادةُ القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدّى معنًى واحداً ، وذلك من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة وتتبيّن فيه البلاغة ، ولهذا أُعيدَت كثير من القصص على ترتيبات متفاوتة ، تنبيهاً بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومتكرِّراً ؛ ولو أمكنهم المعارضة لقصدُوا تلك

القصّة ، وعبّروا عنها بألفاظ لم تؤدّى إلى تلك المعانى ونحوها، فعلى هذا القصد بتقديم بعض الكلمات على بعض وتأخيرها ، إظهار الإعجاز دون السجع ؛ إلى أن قال : فبانَ بذلك أنّ الحروف الواقعة فى الفواصل متناسبة موقع النظائر التى تقع فى الأسجاع ، لاتخرجُها عن حدّها ، ولاتدخلها فى باب السجع ، وقد بيّنا أنهم يذمّون كلّ سجعٍ خرج عن اعتدال الأجزاء ؛ فكان بعض مصاريعه كلمتين ، وبعضها أربع كلمات ، ولايروْن ذلك فصاحةً ، بل يروْنه عجزاً ، فلو فهموا اشتمال القرآن على السجع، لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل، يزيد فى الفصاحة على طريقة القرآن . انتهى كلام القاضى فى كتاب الإعجاز[1] .

ونقل صاحب عروس الأفراح عنه، أنه ذهب فى الانتصار إلى جواز تسمية الفواصل سجعاً.

وقال الخفاجىّ فى سر الفصاحة : قول الرّمانىّ إنّ السجع عيب والفواصل بلاغة غلط ؛ فإنه إن أراد بالسجع مايتبع المعنى ، وهو غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن أراد به ماتقع المعانى تابعة له ، وهو مقصودٌ متكلّف فذلك عيب ، والفواصل مثله . قال : وأظنّ الذى دعاهم إلى تسمية كل مافى القرآن فواصِل ، ولم يسمّوا ماتماثلت حروفه سجعاً ، رغبتُهم فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروىّ عن الكَهَنة وغيرهم ، وهذا غرض فى التسمية قريب ، والحقيقة ماقلناه . قال : والتحرير أنّ الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفواصل .

قال : فإن قيل : إذا كان عندكم أن السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً ! وما الوجه فى ورود بعضه مسجوعاً وبعضه غير مسجوع ؟ قلنا : إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى عُرْفهم وعادتهم ؛ وكان الفصيح منهم لايكون كلامه كله مسجوعاً لِما فيه من أمارات التكلّف والاستكراه ؛ لاسيما مع طول الكلام ، فلم يرِده كلّه مسجوعاً جرياً منهم على عرفهم فى اللطيفة الغالبة من كلامهم . ولم يخلُ من السجع ؛ لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة السابقة.

---

(١) إعجاز القرآن ١٠٠

وقال ابن النفيس[١] : يكفى فى حسن السجع ورودُ القرآن به ، قال : ولا يُقدح فى ذلك خلوّه فى بعض الآيات ، لأن الحُسن قد يقتضى المقام الانتقال إلى أحسنَ منه[٤].

قال حازم : مِن الناس من يكره تقطيع الكلام إلى مقادير متناسبة الأطراف ، غير متقاربة فى الطول والقِصَر ، لما فيه من التكلّف إلا مايقع الإلمام به فى النادر من الكلام .

ومنهم مَنْ يرى أن التناسب الواقع بإفراغ الكلام فى قالبَ التقفية وتحليتها بمناسبات المقاطع أكيد جدًّا .

ومنهم — وهو الوسط — مَنْ يرى أن السجع وإن كان زينة للكلام ، فقد يدعو إلى التكلّف ، فرئَ ألّا يستعمل فى جملة الكلام وألاّ يخلىَ الكلام منه جملة ، وأنه يُقبل منه مااجتلبه الخاطر عفواً بلا تكلّف .

قال : وكيف يعاب السجع على الإطلاق ، وإنّما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب ، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع فى كلامهم ، وإنّما لم يجىء على أسلوب واحدٍ ، لأنه لا يحسن فى الكلام جميعاً أن يكون مستمرًّا على نَمَطٍ واحد ، لما فيه من التكلّف ، ولما فى الطبع من الملل ، ولأن الافتنان فى ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحدٍ ، فلهذا وردت بعض أيِ القرآن متماثلةَ المقاطع ، وبعضها غير متماثل

---

(١) هو على بن أبى الحزم القرشى علاء الدين ، المعروف بابن النفيس ، أعلم أهل عصره بالطب ، سكن مصر ، وتوفى بها سنة ٦٩٨ ، ذكره ابن السبكى فى طبقات الشافعية ٥ : ١٢٩ ، وكتابه طريق الفصاحة ، ذكره صاحب كشف الظنون ١١١٤

فصـــل

ألّف الشيخ شمس الدين بن الصائغ كتاباً سمّاه إحكام الراى فى أحكام الآى ، قال فيه [(١)] :

اعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربية ، يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول . قال : وقد تتبّعتُ الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاةً للمناسبة فعثرت منها على نيّفٍ عن الأربعين حكماً .

أحدُها تقديم المعمول ، إمّا على العامل ، نحو ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [(٢)] ، قيل : ومنه ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [(٣)] ، أو على معمول آخر أصله التقديم ، نحو ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ [(٤)] ، إذا أعربنا « الكبرى » مفعول « نرى » أو على الفاعل نحو ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ [(٥)] . ومنه تقديم خبر كان على اسمها، نحو ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [(٦)] .

الثانى : تقديم ما هو متأخّر فى الزمان ، نحو ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ [(٧)] ، ولولا مراعاة الفواصل لقدّمت «الأولى»، كقوله: ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ [(٨)] .

الثالث : تقديمُ الفاضل على الأفضل ، نحو ﴿ بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ [(٩)] ، وتقدّم ما فيه .

الرابع : تقديم الضمير على ما يفسّره ، نحو ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ [(١٠)] .

---

(١) إحكام الرأى فى أحكام الآى لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنبلى ، المعروف بابن أبى الفرس ، المتوفى سنة ٧٧٦ . ذكره فى كشف الظنون .

(٢) سبأ ٤٠ — (٣) الفاتحة ٥ — (٤) طه ٢٣

(٥) القمر ٤١ — (٦) الإخلاص ٤ — (٧) النجم ٢٥

(٨) القصص ٧٠ — (٩) طه ٧٠ — (١٠) طه ٦٧

الخامس : تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد ، نحو ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾(١).

السادس : حذف ياء المنقوص المعرّف ، نحو ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾(٢) ، ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾(٣).

السابع : حذف ياء الفعل غير المجزوم ، نحو ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(٤).

الثامن : حذف ياء الإضافة ، نحو ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(٥)، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٦).

التاسع : زيادة حرف المدّ ، نحو : « الظنونا » ، و« الرسولا » ، و« السبيلا » ، ومنه إبقاؤه مع الجازم ، نحو ﴿لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾(٧)، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾(٨)، على القولِ بأنه نهى .

العاشر : صرْف مالا ينصرف ، نحو ﴿قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا﴾(٩).

الحادى عشر : إيثار تذكير اسم الجنس ، كقوله : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾(١٠).

الثانى عشر : إيثار تأنيثه ، نحو ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(١١). ونظير هذين قوله فى القمر : ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾(١٢)، وفى الكهف ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾(١٣).

الثالث عشر : الاقتصار على أحد الوجهين الجائزين اللّذين قرئ بهما فى السبع فى غير ذلك ، كقوله تعالى : ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾(١٤) ولم يجئ « رشْداً » فى السبع ، وكذا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾(١٥)، لأنّ الفواصل فى السورتين محرّكة

---

(١) الإسراء ١٣ (٢) الرعد ٩ (٣) غافر ٣٢
(٤) الفجر ٤ (٥) القمر ١٦ (٦) الرعد ٣٢
(٧) طه ٧٧ (٨) الأعلى ٦ (٩) الإنسان ١٥ ، ١٦
(١٠) القمر ٢٠ (١١) الحاقة ٧ (١٢) القمر ٥٣
(١٣) الكهف ٤٩ (١٤) الجن ١٤ (١٥) الكهف ١٠

الوسط ، وقد جاء فى ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾[1] ، وبهذا يبطل ترجيح الفارسىّ قراءة التحريك بالإجماع عليه فيما تقدم ، ونظير ذلك قراءة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[2] بفتح الهاء وسكونها ، ولم يقرأ ﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾[2] إلا بالفتح لمراعاة الفاصلة .

الرابع عشر : إيراد الجملة التى رُدّ بها ماقبلها على غير وجه المطابقة فى الإسمية والفعلية ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[3] ، لم يطابق بين قولهم : « آمنّا » ، وبين ماورُدّ به فيقول و « لم يؤمنوا » ، أو « ما آمنوا » لذلك .

الخامس عشر : إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك ، نحو ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾[4] ولم يقل : « الذين كذبوا » .

السادس عشر : إيراد أحد جزأى الجملتين على غير الوجه الّذى أورد نظيرها من الجملة الأخرى ، نحو ﴿ أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[5] .

السابع عشر : إيثار أغرب اللفظتين ، نحو ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾[6] ولم يقل « جائرة » . ﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾[7] ، ولم يقل « جهنم » أو النار ، وقال فى المدّثر : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾[8] ، وفى سأل ﴿ إِنَّهَا لَظَى ﴾[9] ، وفى القارعة ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[10] لمراعاة فواصل كلّ سورة .

الثامن عشر : اختصاص كل من المشتركين بموضع ، نحو ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[11] ، وفى سورة طه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾[12] .

التاسع عشر : حذف المفعول ، نحو ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾[13] ، ﴿ مَا وَدَّعَكَ

---

(١) الأعراف ١٤٦	(٢) المسد ، ٣	(٣) البقرة ٨
(٤) العنكبوت ٣	(٥) البقرة ١٧٧	(٦) النجم ٢٢
(٧) الهمزة ٤	(٨) المدثر ٢٦	(٩) المعارج ١٥
(١٠) القارعة ٦	(١١) إبراهيم ٥٢	(١٢) طه ١٢٨
(١٣) الليل ٥		

رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[1]. ومنه حذف متعلق «أفعل التفضيل»، نحو ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[2] ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[3].

العشرون : الاستغناء بالإفراد عن التثنية ، نحو ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾[4].

الحادى والعشرون : الاستغناء به عن الجمع، نحو ﴿واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[5]، ولم يقل: « أئمة »، كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾[6]. ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾[7]، أى أنهار.

الثانى والعشرون : الاستغناء بالتثنية عن الإفراد ، نحو ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[8]، قال الفرّاء: أراد « جنة » ، كقوله : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[9]، فثنّى لأجل الفاصلة . قال : والقوافى تحتمل من الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام . ونظير ذلك قول الفرّاء أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾[10]، فإنهما رجلان : قُدار وآخر معه ، ولم يقل « أشقياها » للفاصلة ، وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه . وقال : إنما يجوز فى رءوس الآى زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف همز، أو صرف، فأما أن يكون الله وعد بجنتين فيجعلهما جنة واحدة لأجل رءوس الآى ، معاذ الله!

وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنين ، قال : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾[11]، ثم قال : ﴿فيهما﴾ .[11] وأما ابن الصائغ فإنه نقل عن الفرّاء أنه أراد « جنّات » ، فأطلق الاثنين على الجمع لأجل الفاصلة . ثم قال : وهذا غير بعيد ، قال : وإنما عاد الضمير بعد ذلك بصيغة التثنية مراعاة للفظ ، وهذا هو الثالث والعشرون .

---

(١) الضحى ٣ — (٢) طه ٧ — (٣) الأعلى ١٧
(٤) طه ١١٧ — (٥) الفرقان ٧٤ — (٦) الأنبياء ٧٣
(٧) القمر ٥٤ — (٨) الرحمن ٤٦ — (٩) النازعات ٤١
(١٠) الشمس ١٢ — (١١) الرحمن ٤٨ ، ٥٠

الرابع والعشرون : الاستغناء بالجمع عن الإفراد، نحو ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾[1]، أى ولا خُلّة، كما فى الآية الأخرى ، وجمع مراعاةً للفاصلة .

الخامس والعشرون : إجراء غير العاقل مجرى العاقل ، نحو ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[2]، ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3] .

السادس والعشرون : إمالة ما لا يمال ، كآيِ طه والنّجم .

السابع والعشرون : الإتيان بصيغة المبالغة ، كقدير وعليم مع ترك ذلك فى نحو هو القادر وعالم الغيب، ومنه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[4] .

الثامن والعشرون : إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض ، نحو ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[5] ، أوثر على « عجيب » لذلك .

التاسع والعشرون : الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، نحو ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾[6] .

الثلاثون : إيقاع الظاهر موضع المضمر ، نحو ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[7]، وكذا آية الكهف .

الحادى والثلاثون : وقوع «مفعول» موقع «فاعِل»، كقوله: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾[8]، ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾[9] ، أى ساتراً وآتياً .

الثانى والثلاثون: وقوع «فاعل» موقع «مفعول» ، نحو ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[10]، ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[11] .

الثالث والثلاثون : الفصل بين الموصوف والصفة ، نحو ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾

---

(١) إبراهيم ٣١ (٢) يوسف ٤ (٣) الأنبياء ٣٣
(٤) مريم ٦٤ (٥) ص ٥ (٦) طه ١٢٩
(٧) الأعراف ١٧٠ (٨) الإسراء ٤٥ (٩) مريم ٦١
(١٠) الحاقة ٢١ (١١) الطارق ١٦

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾[1] إن أعرب «أحوى» صفة «المرعى»، أى حالا.

الرابع والثلاثون: إيقاع حرف مكان غيره، نحو ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[2]، والأصل «إليها».

الخامس والثلاثون: تأخير الوصف غير الأبلغ عن الأبلغ، ومنه ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[3] لأن الرأفة أبلغ من الرحمة.

السادس والثلاثون: حذف الفاعل ونيابة المفعول، نحو ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾[4].

السابع والثلاثون: إثبات هاء السكت، نحو ﴿مَالِيَهْ﴾[5]، ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾[6]، ﴿مَاهِيَهْ﴾[7].

الثامن والثلاثون: الجمع بين المجرورات، نحو ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا تَبِيعًا﴾[8]، فإن الأحسن الفصل بينها، إلاّ أنّ مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير «تبيعاً».

التاسع والثلاثون: العدول عن صيغة المضيّ إلى صيغة الاستقبال، نحو ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[9] والأصل «قتلتم».

الأربعون: تغيير بنية الكلمة، نحو ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ والأصل «سينا».

تنبيـــه

قال ابن الصائغ: لايمتنع فى توجيه الخروج عن الأصل فى الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم – كما جاء فى الأثر – «لاتنقضى عجائبه».

---

(١) الأعلى ٥، ٦
(٢) الزلزال ٥
(٣) التوبة ١٢٨
(٤) الليل ١٩
(٥) الحاقة ٢٨
(٦) الحاقة ٢٩
(٧) القارعة ١٠
(٨) الإسراء ٦٩
(٩) البقرة ٨٧
(١٠) التين ٢

فصــل

قال ابن أبي الإصبع : لاتخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء : التمـكين ، والتصدير ، والتوشيح ، والإيغال .

[التمـكين]

فالتمـكين ـ ويسمّى ائتلاف القافية ـ أن يمهِّد الناثر للقرينة ، أو الشاعر للقافية ؛ تمهيداً تأتى به القافية أو القرينة متمكِّنةً فى مكانها ، مستقرّةً فى قرارها ، مطمئنّةً فى موضعها ، غير نافرة ولا قَلِقة ، متعلِّقاً معناها بمعنى الـكلام كلّه تعلّقاً تامًّا ، بحيث لو طرحت لاختلّ المعنى واضطرب الفَهْم ، وبحيث لو سُكت عنها كمّله السامع بطبعه .

ومن أمثلة ذلك : ﴿ يَاشُعَيْبُ أصلواتك تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ... ﴾[1] الآية ، فإنه لمّـا تقدم فى الآية ذكرُ العبادة ، وتلاه ذكر التصرّف فى الأموال ، اقتضى ذلك ذكرَ الحلم والرُّشد على الترتيب لأن الحلم يناسب العبادات ، والرُّشد يناسب الأموال .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَـكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[2] ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾[2] فأتى فى الآية الأولى : « يَهد لهم » ، وختمها : « يسمعون » ، لأنه الموعظة فيها مسموعة ، وهى أخبار القرون ، وفى الثانية : « يروا » ؛ وختمها : « يبصرون » ، لأنها مرئية .

وقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وهو اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[3] ؛ فإن اللطف يناسب مالا يدرَك بالبصر والخبْر يناسب مايدركه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[4] ؛ فإنّ فى هذه الفاصلة التمـكينَ التام المناسب لماقبلها . وقد بادر بعض الصحابة حين نزل أول الآية إلى ختمها بها ، قبل أن يسمع آخرها ؛ فأخرج ابن أبى

---

(١) هود ٨٧
(٢) السجدة ٢٦ ، ٢٧
(٣) الأنعام ١٠٣
(٤) المؤمنون ١٢ ــ ١٤

حاتم من طريق الشعبيّ ، عن زيد بن ثابت،قال : أملَى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ خَلْقًا آخَرَ ﴾ ، قال معاذ بن جبل : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال له معاذ : مِمّ ضحكتَ يارسول الله ؟ قال : بها خُتمت !

وحكى أن أعرابيًّا سمع قارئًا يقرأ ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾(١) « فاعلموا أن الله غفورٌ رحيمٌ » ، ولم يكن يقرأ القرآن،فقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا ، [ومرّ بهما رجل فقال: كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقال الرجل ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾فقال،هكذا ينبغي](٢) ،الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه.

تنبيهـــات

الأول : قد تجتمع فواصل فى موضع واحد ؛ ويخالَف بينها كأوائل النحل ، فإنه تعالى بدأ بذكر الأفلاك ، فقال : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾(٣) ، ثم ذكر خلق الإنسان من نطفةٍ ، ثم خلق الأنعام ، ثم عجائب النبات ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤) ، فجعل مقطع هذه الآية التفكّر ؛ لأنه استدلال بحدوث الأنواع المختلفة من النبات على وجود الإله القادر المختار ؛ ولمّا كان هنا مظنّة سؤال ، وهو أنه لم لا يجوز أن يكون المؤثر فيه طبائع الفصول وحركات الشمس والقمر ، وكان الدليل لا يتمّ إلاّ بالجواب عن هذا السؤال كان مجال التفكر والنظر والتأمّل باقياً . فأجاب تعالى عنه من وجهين :

أحدهما : أن تغيّرات العالم السفلى مربوطة بأحوال حركات الأفلاك ، فتلك الحركات

---

(١) البقرة ٢٠٩ (٢) زيادة من تفسير القرطبي يستقيم بها الكلام . (٣) النحل ٣
(٤) النحل : ١٠ ، ١١

كيف حصلت ، فإن كان حصولها بسبب أفلاك أخرى لزم التسلسل ، وإن كان من الخالق الحكيم ، فذاك إقرار بوجود الإله تعالى ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، فجعل مقطع هذه الآية العقل ، وكأنه قيل : إن كنت عاقلا ، فاعلم أن التسلسل باطلٌ ؛ فوجب انتهاء الحركات إلى حركة يكون موجدها غير متحرك ، وهو الإله القادر المختار .

والثانى : أن نسبة الكواكب والطبائع إلى أجزاء الورقة الواحدة والحبّة الواحدة واحدة . ثم إنّا نرى الورقة الواحدة من الورْد أحدُ وجهيها فى غاية الحمرة ، والآخر فى غاية السواد ؛ فلو كان المؤثّر موجباً بالذات لامتنع حصول هذا التفاوت فى الآثار ؛ فعلمنا أن المؤثّر قادر مختار ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢) ، كأنه قيل : اذكر ما ترسّخ فى عقلك أنّ الواجب بالذات والطبع لا يختلف تأثيره ، فإذا نظرت حصولَ هذا الاختلاف ، علمتَ أنّ المؤثر ليس هو الطبائع بل الفاعل المختار ؛ فلهذا جعل مقطع الآية التذكّر .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... ﴾ (٣) ، الآيات ، فإنّ الأولى ختمت بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، والثانية بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، والثالثة بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، لأنّ الوصايا التى فى الآية الأولى إنما يُحمل على تركها عدمُ العقل الغالب على الهوى ؛ لأنّ الإشراك بالله لعدم استكمال العقل الدالّ على توحيده وعظمته ، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل لسبق إحسانهما إلى الوَلد بكل طريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوأدِ من الإملاق مع وجود الرازق الحىّ الكريم ، وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل ، وكذا قتل النفس لغيظ أو غضب فى القاتل ؛ فحسُن بعد ذلك « يعقلون » ، وأما الثانية فلتعلّقها بالحقوق المالية والقولية ،

---

(١) النحل ١٢ (٢) النحل ١٣ (٣) الأنعام ١٥١ ـ ١٥٣

فإن من علم أنْ له أيتاماً يخلِّفهم من بعده لا يليق به أن يعامل أيتامَ غيره إلاّ بما يحب أن يعامَل به أيتامه ، ومَنْ يكيل أو يزن أو يشهدلغيره لو كان ذلك الأمرله،لم يحبّ أن يكون فيه خيانة ولا بخسٌ، وكذا من وَعد لو وعِد ، لم يحب أن يخلَف ، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله ، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبّر ذلك وتأمّله ، فلذلك ناسب الختم بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وأما الثالثة فلأنّ ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤدٍّ إلى غضبه وإلى عقابه ، فحسُن ﴿ لعلكمْ تتقون ﴾ ، أى عقاب الله بسببه .

ومن ذلك قوله فى الأنعام أيضاً : ﴿ وَهُوَ الذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ . . . ﴾ [1] ، الآيات ، فإنه ختم الأولى بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، والثانية بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ ، والثالثة بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وذلك لأن حساب النجوم والاهتداء بها يختصّ بالعلماء بذلك ، فناسب ختمه بـ « يعلمون » ، وإنشاء الخلائق من نفسٍ واحدة، ونقلهم من صلبٍ إلى رحِم ثم إلى الدنيا، ثم إلى حياة وموت، والنظر فى ذلك والفكر فيه أدقّ،فناسب ختمه بـ « يفقهون » لأن الفقه فَهْمُ الأشياء الدقيقة، ولمّا ذكر ماأنعم به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات والثمار وأنواع ذلك ، ناسب ختمه بالإيمان الداعى إلى شكره تعالى على نعمه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] ، حيث ختم الأولى بـ « تؤمنون » ، والثانية بـ « تذكرون » ووجهه أن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة لاتخفى على أحد ، فقول من قال : شعر، كُفْرٌ وعناد مَحْضٌ ، فناسب ختمه بقوله : ﴿ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ . وأما مخالفته لنظم الكهّان وألفاظ السجع فتحتاج إلى تذكر وتدبّر،لأن كلاًّ منهما نثر ، فليست مخالفته له فى وضوحها لكلّ أحد كمخالفته الشعر ، وإنما تظهر بتدبّر ما فى القرآن من الفصاحة

---

(١) الأنعام ٩٧ ـ ٩٩ (٢) الحاقة ٤١ ، ٤٢

والبلاغة والبدائع والمعانى الأنيقة ، فحسن ختمه بقوله : ﴿ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ومن بديع هذا النوع اختلاف الفاصلتين فى موضعين والمحدَّث عنه واحد، لنكتة لطيفة ، كقوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (١) ، ثم قال فى سورة النحل : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) ؛ قال ابن المنيِّر : كأنه يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة ، فأنت آخذها وأنا معطيها ، فحصل لك عند أخذها وصفان : كونُك ظلوماً ، وكونك كفّاراً ؛ يعنى لعدم وفائك بشكرها ، ولى عند إعطائها وصفان وهما : إنى غفور رحيم ، أقابل ظلمك بغفرانى ، وكفرك برحمتى ، فلا أقابل تقصيرَك إلاّ بالتوقير ، ولا أجازى جفاك إلاّ بالوفاء .

وقال غيره : إنما خصّ سورة إبراهيم بوصف المنعَم عليه ، وسورة النحل بوصف المنعِم ، لأنه فى سورة إبراهيم فى مساق وصف الإنسان ، وفى سورة النحل فى مساق صفات الله وإثباتٌ لألوهيته .

ونظيره قوله تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) ، وفى فصلت ختم بقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٤) ، ونكتة ذلك أن قبل الآية الأولى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥) ، فناسب الختام بفاصلة البعث ؛ لأن قبله وصْفَهم بإنكاره ، وأما الثانية فالختام فيها مناسب ؛ لأنه لا يضيع عملا صالحاً ، ولا يزيد على من عمل سيِّئاً .

وقال فى سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾ (٦) ، ثم أعادها ، وختم بقوله : ﴿ وَمَنْ

---

(١) إبراهيم ٣٤ — (٢) النحل ١٨ — (٣) الجاثية ١٥

(٤) فصلت ٤٦ — (٥) الجاثية ١٤ — (٦) النساء ٤٨

يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ (١) ، ونكتة ذلك أن الأولى نزلت فى اليهود ، وهم الذين افتروا على الله ما ليس فى كتابه ، والثانية نزلت فى المشركين ولا كتاب لهم وضلالهم أشدّ .

ونظيره قوله فى المائدة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) ، ثم أعادها فقال : ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) ، ثم قال فى الثالثة : ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) ، ونكتته أنّ الأولى نزلتْ فى أحكام المسلمين ، والثانية فى اليهود ، والثالثة فى النصارى . وقيل : الأولى فيمَنْ جَحَد ما أنزل الله ، والثانية فيمَنْ خالفه مع علمه ولم ينكره ، والثالثة فيمن خالفه جاهلاً . وقيل : الكافر والظالم والفاسق كلها بمعنى واحد ، وهو الكفر ، عبّر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة ، واجتناب صورة التكرار .

وعكس هذا اتفاق الفاصلتين والمحدَّث عنه مختلف ، كقوله فى سورة النور : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (٥) ، إلى قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يبيّن اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥) .

التنبيه الثانى : من مشكلات الفواصل قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦) ، فإن قوله : « وإن تغفر لهم » يقتضى أن تكون الفاصلة « الغفور الرحيم » ، وكذا نقلت عن مصحف أبىّ ، وبها قرأ ابن شَنَبوذ ، وذكر

---

(١) النساء ١١٦ (٢) المائدة ٤٤ (٣) المائدة ٤٥
(٤) المائدة ٤٧ (٥) النور ٥٨ ، ٥٩ (٦) المائدة ١١٨

فى حكمته أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلاَّ مَنْ ليس فوقه أحد يردُّ عليه حكمَه ، فهو العزيز أى الغالب ، والحكيم هو الذى يضع الشىء فى محله . وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء فى بعض الأفعال فيتوهّم أنه خارج عنها ، وليس كذلك ، فكان فى الوصف بالحكيم احتراس حسن ، أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد فى ذلك ، والحكمة فيما فعلتَه .

ونظير ذلك قوله فى سورة التوبة: ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) ، وفى سورة الممتحنة : ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) ، وفى غافر : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ (٣) ، إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) ، وفى النور : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤) ، فإنّ بادئ الرأى يقتضى « توّاب رحيم » لأنّ الرحمة مناسبة للتوبة لكن عبّر به إشارة إلى فائدة مشروعية اللّعان وحكمته ، وهى السّتر عن هذه الفاحشة العظيمة .

ومن خفىّ ذلك أيضاً قوله فى سورة البقرة : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٥) ، وفى آل عمران : ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) ، فإنّ المتبادر إلى الذهن فى آية البقرة الختم بالقدرة ، وفى آية آل عمران الختم بالعلم . والجواب أن آية البقرة لما تضمّنت الإخبار عن خلق الأرض ، وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم ، وخلق السموات خلقاً مستوياً محكما من غير تفاوت ، والخالقُ على الوصف المذكور يجب أن يكون عالماً بما فعله كليًّا وجزئيًّا ، مجملا ومفصلاً ، ناسب ختمُها بصفة العلم ، وآية آل عمران لما كانت فى سياق الوعيد على موالاة الكفار وكان التعبير

---

(١) التوبة ٧١ (٢) الممتحنة ٥ (٣) غافر ٨
(٤) النور ١٠ (٥) البقرة ٢٩ (٦) آل عمران ٢٩

بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ، ناسب ختمها بصفة القدرة .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (١)، فالختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء غير ظاهر فى بادى الرأى. وذكر فى حكمته أنه لما كانت الأشياء كلها تسبّح ولا عصيان فى حقّها وأنتم تعصون، ختم به مراعاة للمقدّر فى الآية وهو العصيان ، كما جاء فى الحديث : « لولا بهائمُ رُتع ، وشيوخ رُكّع ، وأطفال رُضّع ، لصُبّ عليكم العذاب صبًّا » .

وقيل : التقدير : حليما عن تفريط المسبّحين، غفوراً لذنوبهم . وقيل : حليما عن المخاطبين الذين لا يفقهون التسبيح بإهمالهم النظر فى الآيات والعبر ليعرفُوا حقه بالتأمل فيما أودِع فى مخلوقاته ممّا يوجب تنزيهه .

التنبيــه الثالث : فى الفواصل ما لا نظير له فى القرآن ، كقوله عقب الأمر بالغضّ فى سورة النور : ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٢) ، وقوله عقب الأمر بالدّعاء والاستجابة : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٣) .

وقيل : فيه تعريض بليلة القَدْر حيث ذكر ذلك عقب ذكر رمضان ، أىْ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ إلى معرفتها .

* * *

[التصدير]

وأما التّصدير فهو أن تكون تلك اللفظة بعينها تقدّمت فى أول الآية ، وتسمّى أيضاً ردّ العجُز على الصدر .

وقال ابن المعتز : هو ثلاثة أقسام :

الأول : أن يوافق آخر الفاصلة ، آخر كلمة فى الصدر ، نحو ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ (٤) .

---

(١) الإسراء ٤٤ — (٢) النور ٣٠ — (٣) البقرة ١٨٦

(٤) النساء ١٦٦

والثانى : أن يوافق أول كلمة منه ، نحو ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١) ، ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ (٢) .

الثالث : أن يوافق بعض كلماته ، نحو ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ (٤) ، ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ (٥) ، إلى قوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ (٦) .

* * *

[التوشيح]

وأمّا التوشيح، فهو أن يكون فى أوّل الكلام ما يستلزم القافية . والفرق بينه وبين التصدير، أن هذا دلالته معنوية ، وذاك لفظية، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ ... ﴾ (٧) ، الآية ، فإنّ « اصطفى » لا يدلّ على أنّ الفاصلة « العالمين » لا باللفظ ، لأن لفظ « العالمين » غير لفظ « اصطفى » ، ولكن بالمعنى ، لأنه يعلم أن من لوازم اصطفاء شىء أن يكون مختاراً على جنسه ، وجنس هؤلاء المصطفين العالمون .

وكقوله: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ ... ﴾ (٨) ، الآية قال ابن أبى الإصبع : فإن من كان حافظاً لهذه السورة متفطّناً إلى أن مقاطع آيها النون المردَفة وسمع فى صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة « مظلمون » لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ، أى دخل فى الظلمة ، ولذلك سمِّىَ تَوْشِيحاً ، لأن الكلام لما دلّ أوله على آخره نزّل المعنى منزلة الوشاح ، ونُزِّل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح .

* * *

[الإيغال]

وأما الإيغال ، فتقدم فى نوع الإطناب .

---

(١) آل عمران ٨ (٢) الشعراء ١٦٨ (٣) الأنعام ١٠
(٤) الإسراء ٢١ (٥) طه ٦١ (٦) نوح ١٠
(٧) آل عمران ٣٣ (٨) يس ٣٧

فصل

[فى أقسام الفواصل]

قسم البديعيون السجع ، ومثله الفواصل إلى أقسام : مطرّف ، ومتوازٍ ، ومرصّع ، ومتوازن ، ومماثل .

فالمطرّف : أن تختلف الفاصلتان فى الوزن وتتفقا فى حروف السجع، نحو ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[(١)] .

والمتوازى : أن يتفقا وزناً وتقفية ، ولم يكن ما فى الأولى مقابلا لما فى الثانية فى الوزن والتقفية ، نحو ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾[(٢)] .

والمتوازن أن يتفقا فى الوزن دون التقفية ، نحو ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[(٣)] .

والمرصّع أن يتفقا وزناً وتقفية ، ويكون ما فى الأولى مقابلا لما فى الثانية كذلك ، نحو ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[(٤)] ، ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[(٥)] .

والمماثل أن يتساويا فى الوزن دون التقفية ، وتكون أفراد الأولى مقابلة لما فى الثانية ، فهو بالنسبة إلى المرصّع كالمتوازن بالنسبة إلى المتوازى ، نحو ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[(٦)] ، فالكتاب والصراط يتوازنان ، وكذا المستبين والمستقيم ، واختلفا فى الحرف الأخير .

---

(١) نوح ١٣ ، ١٤ (٢) الغاشية ١٣ ، ١٤ (٣) الغاشية ١٥ ، ١٦
(٤) الغاشية ٢٥ ، ٢٦ (٥) الانفطار ١٣ ، ١٤ (٦) الصافات ١١٧ ، ١١٨

فصـــل

بقى نوعان بديعيّان متعلقان بالفواصل :

أحدهما : التشريع ، سمّاه ابن أبى الأصبع التوءم ، وأصله أن يبنِىَ الشاعر بيته على وزنين من أوزان العروض ، فإذا أسقط منها جزءا أوجزءين صار الباقى بيتاً من وزنٍ آخر . ثم زعم قوم اختصاصه به .

وقال آخرون : بل يكون فى النثر بأن يبنَى على سجعتين لو اقتصر على الأولى منهما كان الكلام تامًّا مفيداً . وإن ألحقت به السجعة الثانية كان فى التّمام والإفادة على حاله مع زيادة معنى مازاد من اللفظ .

قال ابن أبى الإصبع وقد جاء من هذا الباب معظم سورة الرحمن ؛ فإن آياتها لو اقتصر فيها على أولى الفاصلتين دون ﴿ فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] ، لكان تامًّا مفيداً وقد كُمل بالثانية ، فأفاد معنى زائداً من التقرير والتوبيخ .

قلت : التمثيل غير مطابق ، والأولى أن يمثّل بالآيات التى فى إثباتها مايصلح أن تكون فاصلة ، كقوله : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شىءٍ عِلْمًا ﴾[2] ، وأشباه ذلك .

الثانى : الالتزام ، ويسمى لزوم مالا يلزم ، وهو أن يُلتزم فى الشعر أو النثر حرفٌ أو حرفان فصاعدا قبل الروىّ بشرط عدم الكلفة . مثال التزام حرف ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾[3] التزم الهاء قبل الراء ، ومثله ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ... ﴾[4] الآيات التزم فيها الراء قبل الكاف ، ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾[5] التزم فيها النون المشددة قبل السين ، ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾[6] .

---

(١) الرحمن ١٨ (٢) الطلاق ١٢ (٣) الضحى ٩ ، ١٠

(٤) الشرح ١ (٥) التكوير ١٦ ، ١٧ (٦) التكوير ١٥ ، ١٦

ومثال التزام حرفين ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾[1] ﴿ ماأنت بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وإنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾[2]، ﴿ بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾[3] .

ومثال التزام ثلاثة أحرف ﴿ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[4] .

تنبيهـــات

الأول : قال أهل البديع : أحسن السجع ونحوه ماتساوت قرائنه ، نحو ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾[5] ، ويليه ماطالت قرينته الثانية ، نحو ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾[6] .أو الثالثة نحو ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ... ﴾[7] الآية .

وقال ابن الأثير : الأحسن فى الثانية المساواة وإلاّ فأطول قليلاً ، وفى الثالثة أن تكون أطول . وقال الخفاجىّ : لايجوز أن تكون الثانية أقصرَ من الأولى .

الثانى : قالوا أحسن السجع ما كان قصيراً لدلالته على قوة المنشئ ، وأقله كلمتان نحو ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ... ﴾[8] الآيات ، ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا... ﴾[9] الآيات ، ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا . . . ﴾[10] الآيات، ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . . . ﴾[11] الآيات ، والطويل ما زاد عن العشر ، كغالب الآيات،وما بينهما متوسط كآيات سورة القمر .

الثالث : قال الزمخشرىّ فى كشافه القديم : لا تحسُن المحافظة على الفواصل لمجرّدها إلاّ مع بقاء المعانى على سردها ، على المنهج الذى يقتضيه حسنُ النظم والتآمه ، فأمّا أن

---

(١) الطور ١ ، ٢ (٢) القلم ٢ ، ٣ (٣) القيامة ٢٦ ـ ٢٨
(٤) الأعراف ٢٠١ ، ٢٠٢ (٥) الواقعة ٢٨ ـ ٣٠ (٦) النجم ١ ، ٢
(٧) الحاقة ٣٠ ـ ٣٢ (٨) المدثر ١ ، ٢ (٩) المرسلات ١
(١٠) الذاريات ١ (١١) العاديات ١

تُهمَل المعانى ويُهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤدّاه فليس من قبيل البلاغة، وبنى على ذلك أن التقديم فى ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [1] ، ليس لمجرّد الفاصلة، بل لرعاية الاختصاص .

الرابع : مبنى الفواصل على الوقف ، ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس، كقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ مع قوله : ﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾، ﴿ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [2] .

وقوله : ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ مع قوله : ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ ، ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ ، ﴿ مستمرّ ﴾ [3] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ مع قوله : ﴿ وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [4] .

الخامس : كثر فى القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون ، وحكمته وجود التمكّن من التطريب ، بذلك كما قال سيبويه : إنهم إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون ؛ لأنهم أرادوا مدّ الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا ، وجاء فى القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع .

السادس : حروف الفواصل إمّا متماثلة وإما متقاربة :

فالأولى مثل ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ [5] .

والثانى مثل ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [6] ، ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [7] .

قال الإمام فخر الدين وغيره : وفواصل القرآن لا تخرج عن هذين القسمين بل

---

(١) البقرة ٤ (٢) الصافات ٩ ـ ١١ (٣) القمر ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩
(٣) الرعد ١١، ١٢ (٤) الطور ١ ـ ٤ (٥) الفاتحة ٣، ٤
(٧) ق ١ ، ٢

تنحصر فى المماثلة والمتقاربة ، قال : وبهذا يترجّح مذهب الشافعىّ على مذهب أبى حنيفة فى عدّ الفاتحة سبع آيات مع البسملة . وجعل ﴿صراط الذين﴾ إلى آخرها آية ؛ فإن من جعل آخر الآية السادسة ﴿أنعمت عليهم﴾ مردود بأنه لا يشابه فواصل سائر آيات السورة ، لا بالمماثلة ولا بالمقاربة ، ورعاية التشابه فى الفواصل لازمة .

السابع : كثُر فى الفواصل التضمين والإيطاء لأنهما ليسا بعيبين فى النثر ، وإن كانا عيبين فى النظم ، فالتضمين أن يكون ما بعد الفاصلة متعلّقا بها ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ﴾[1] ، والإيطاء تكرّر الفاصلة بلفظها كقوله تعالى فى الإسراء : ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾[2] ، وختم بذلك الآيتين بعدها .

---

(١) الصافات ١٣٧، ١٣٨ (٢) الإسراء ٩٣

النوع الستون
فى فواتح السور

أفردها بالتأليف ابن أبى الأصبع فى كتاب « سمّاه الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح » [1] وأنا ألخّص هنا ماذكره مع زوائد من غيره .

اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام ، لا يخرج شئ من السور عنها .

الأول : الثناء عليه تعالى ، والثناء قسمان : إثبات لصفات المدح ونفىٌ وتنزيه من صفات النقص ، فالأولُ التحميد فى خمس سور ، وتبارك فى سورتين ، والثانى التسبيح فى سبع سور .

قال الكرمانى فى متشابه القرآن : التسبيح كلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر فى بنى إسرائيل ؛ لأنه الأصل،ثم بالماضى فى الحديد والحشر ؛ لأنه أسبق الزمانين ، ثم بالمضارع فى الجمعة والتغابن ، ثم بالأمر فى الأعلى ؛ استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها .

الثانى : حروف التهجى فى تسع وعشرين سورة ، وقد مضى الكلام عليها مستوعباً فى نوع المتشابه ، ويأتى الإلمام بمناسباتها فى نوع المناسبات .

الثالث : النداء فى عشر سور : خمس بنداء الرسول صلى الله عليه وسلم : الأحزاب، والطلاق ، والتحريم ، والمزمّل ، والمدثر ، وخمس بنداء الأمّة : النساء ، والمائدة ، والحج ، والحجرات ، والممتحنة .

الرابع : الجمل الخبرية ، نحو « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ » ، « بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ » ، « أَتَى أَمْرُ اللهِ » ، « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » ، « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » ، « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا » ، « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » ، « الَّذِينَ كَفَرُوا » ، « إِنَّا فَتَحْنَا » « اقتربت الساعة » « الرحمن علّم »

---

(1) حققه الدكتور حفنى شرف ، وطبع بمصر سنة ١٩٦٠

«قد سمع الله» ، الحاقَّة ، سأل سائل ، إنا أرسلنا نوحاً ، لا أقسم ،فى موضعين ،عبس ، إنا أنزلناه» ، لم يكن ، القارعة ، ألهاكم ، إنا أعطيناك ؛ فتلك ثلاث وعشرون سورة .

الخامس : القَسَم فى خمس عشرة سورة ؛ سورة أقسم فيها بالملائكة ، وهى والصافات ، وسورتان بالأفلاك : البروج والطارق ، وستّ سور بلوازمها ، فالنجم قسمٌ بالثريّا ، والفجر بمبدأ النهار ، واللَّيل بشطر الزمان ، والضحى بشَطْر النهار ، والعصر بالشَّطْر الآخر ، أو بجملة الزمان ، وسورتان بالهواء الذى هو أحد العناصر : والذّاريات والمرسلات ، وسورة بالتربة التى هى منها أيضاً ، وهى الطّور ، وسورة بالنبات وهى والتين ، وسورة بالحيوان الناطق وهى والنازعات ، وسورة بالبهيم وهى والعاديات .

السادس : الشّرْط فى سبع سور : الواقعة ، والمنافقون ، والتكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، والنّصر .

السابع : الأمر فى ست سور : قل أوحى ، اقرأ ، قل يأيّها الكافرون ، قل هو الله أحد ، قل أعوذ ، المعوذتين .

الثامن : الاستفهام فى ستّ سور : عمّ يتساءلون ، هل أتاك ، ألم نشرحْ ، ألم تر ، أرأيت .

التاسع : الدّعاء فى ثلاث : ويل للمطففين ، ويل لكل همزة ، تبّت .

العاشر : التعليل فى لإيلاف قريش ، هكذا جمع أبو شامة ، قال : وما ذكرناه فى الدعاء يجوز أن يذكر مع الخبر ، وكذا الثناء كله خبر إلاّ « سبح » ، فإنه فى قسم الأمر ، وسبحان يحتمل الأمر الدعاء والخبر . ثم نظم ذلك فى بيتين فقال :

أثنى على نفسه سبحانه بثبو ... تِ الحمد والسلب لما استفتح السُّوَرَا

والأمرشرط النداوالتعليلوالقسمَ الدّ ... عاحروف التّهجِّى استفهم الخبرا

وقال أهل البيان : من البلاغة حسن الابتداء ؛ وهو أن يُتأنّق فى أوّل الكلام ،

لأنه أول ما يقرع السمع ، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه ، وإلا أعرض عنه ، ولو كان الباقى فى نهاية الحسن فينبغى أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله وأرقه وأسلسه وأحسنه نظماً وسبكاً ، وأصحه معنًى ، وأوضحه وأخلاه من التعقيد ، والتقديم ، والتأخير الملبس ، أو الذى لا يناسب .

قالوا : وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها ، كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء ، وغير ذلك .

ومن الابتداء الحسن نوع أخصُّ منه يسمّى براعة الاستهلال ، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلَّم فيه ، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله؛ والعلمُ الأسنى فى ذلك سورة الفاتحة ، التى هى مطلع القرآن ، فإنها مشتملة على جميع مقاصده كما قال البيهقىّ فى شعب الإيمان : أخبرنا أبو القاسم بن حبيب ، أنبأنا محمد بن صالح بن هانىء ، أنبأنا الحسين بن الفضل ، حدثنا عَفّان بن مسلم ، عن الربيع بن صُبيح ، عن الحسن ، قال: أنزل الله مائةً وأربعة كتب ، أودَعَ علومها أربعة منها : التوراة، والإنجيل ، والزَّبور ، والفُرقان ، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم القرآن المفصّل ، ثم أودع علوم المفصّل فاتحة الكتاب . فمن عِلمَ تفسيرها ، كانَ لمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة .

وقد وُجِّه ذلك بأن العلوم التى احتوى عليها القرآن قامت بها الأديان أربعة : علم الأصول ومداره على معرفة الله وصفاته ، وإليه الإشارة بـ﴿ربّ العالمين* الرحمن الرحيم﴾ ومعرفة النبوات ، وإليه الإشارة بـ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ، ومعرفة المعاد ، وإليه الإشارة بـ﴿مالك يَوْمِ الدِّينِ﴾ وعلم العبادات وإليه الإشارة بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، وعلم السلوك وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البريّة ، وإليه الإشارة بـ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينَ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، وعلم القصص وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية ، ليعلم المطّلع على ذلك سعادة من أطاع الله ، وشقاوة من عصاه ، وإليه الإشارة بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ، فنبّه فى الفاتحة على جميع مقاصد القرآن ، وهذا هو الغاية فى براعة الاستهلال ، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة ، والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة ،

وكذلك أوّل سورة « اقرأ » ، فإنها مشتملة على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة ؛ من براعة الاستهلال لكونها أوّل ما أنزل من القرآن ، فإن فيها الأمر بالقراءة والبداءة فيها باسم الله ، وفيه الإشارة إلى علم الأحكام ، وفيها ما يتعلّق بتوحيد الربّ وإثبات ذاته وصفاته من صفةِ ذات وصفة فعل . وفى هذه الإشارة إلى أصولِ الدين ، وفيها ما يتعلّق بالإخبار من قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [1] ؛ ولهذا قيل إنها جديرة أن تسمّى عنوان القرآن ؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصدَه بعبارة وجيزة فى أوله .

---

(١) العلق ٥

النوع الحادى والستون
فى خواتم السور

هى أيضاً مثل الفواتح فى الحسن ؛ لأنها آخر ما يقْرَع الأسماع ، فلهذا جاءت متضمّنة للمعانى البديعة ، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام ، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوّقٌ إلى ما يُذكر بعد ، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض ، وتحميد ، وتهليل ، ومواعظ ، ووعْد ووعيد إلى غير ذلك ، كتفصيل جملة المطلوب فى خاتمة الفاتحة إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصِى المسبّبة لغضب الله والضلال ، ففصّل جملة ذلك بقوله : ﴿ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، والمراد المؤمنون ، ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيّده ليتناول كلّ إنعام ، لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان ، فقد أنعم عليه بكل نعمة ، لأنها مستتبعة لجميع النِّعم ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ ، يعنى أنهم جمعوا بين النعم المطلقة وهى نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله تعالى والضّلال المسبّبين عن معاصيه وتعدّى حدوده .

وكالدّعاء الذى اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة .

وكالوصايا التى ختمت بها سورة آل عمران .

والفرائض التى ختمت بها سورة النساء ، وحسُنَ الختْم بها لما فيها من أحكام الموت الذى هو آخر أمر كلّ حىّ ، ولأنّها آخر ما أنزل من الأحكام .

وكالتبجيل والتعظيم الذى ختمت به المائدة .

وكالوعد والوعيد الّذى ختمت به الأنعام .

وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة الذى ختمت به الأعراف .

وكالحضّ على الجهاد وصِلَة الأرحام الذى ختم به الأنفال .

وكوصف الرسول ومدحه ، والتهليل الذى ختمت به براءة .

وتسليته عليه الصلاة والسلام الذى ختمت به يونس ، ومثلها خاتمة هود ، ووصف القرآن

ومدحه الذى ختم به يوسف ، والردّ [1] على مَنْ كذّب الرسول الذى خُتم به الرعد.

ومن أوضح ما آذن بالختام خاتمة إبراهيم : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ...﴾ الآية ، ومثلها خاتمة الأحقاف ، وكذا خاتمة الحجر بقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ، وهو مفسَّر بالموت ؛ فإنها فى غاية البراعة .

وانظر إلى سورة الزلزلة كيف بدِئت بأهوال القيامة ، وخُتمت بقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

وانظر براعة آخر آية نزلت، وهى قوله: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ﴾ [2] ، وما فيها من الإشعار بالآخريّة المستلزِمة بالوفاة .

وكذلك آخر سورة نزلت وهى سورة النصر ، فيها الإشعار بالوفاة ، كما أخرج البخاريّ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ، أن عمر سألهم عن قوله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، فقالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : ما تقول يابن عباس ؟ قال : أجلٌ ضُرِب لمحمد ، نُعِيَتْ له نفسه .

وأخرج أيضاً عنه قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأنّ بعضهم وجَد فى نفسه ، فقال : لِمَ تُدْخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ! فقال عمر : إنه من قد علمتم ؛ ثم دعاهم ذات يوم فقال : ما تقولون فى قول الله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أُمِرنا أن نحمد الله ونستغفره ، إذا نصِرنا وفتح علينا ؛ وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به ، قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، وذلك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ، فقال عمر : إنى لا أعلم منها إلا ما تقول .

---

(١) ط : « والوعيد والرد » .
(٢) البقرة ٢٨١

النوع الثانى والستون
فى مناسبة الآيات والسور

أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخ أبى حيان فى كتاب سماه «البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن»، ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعى[1] فى كتاب سماه «نظم الدرر فى تناسب الآى والسور» ، وكتابى الذى صنعته فى أسرار التنزيل كافل بذلك، جامع لمناسبات السور والآيات؛ مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة ، وقد لخصت منه مناسبات السور خاصة فى جزء لطيف ، سميته «تناسق الدرر فى تناسب السور» .

وعلم المناسبة علم شريف ، قلّ اعتناء المفسرين به لدقته . وممن أكثر فيه الإمام فخر الدين ، وقال فى تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط .

وقال ابن العربىّ فى «سراج المريدين» : ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى منتظمة المبانى ، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه ؛ فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه .

وقال غيره : أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابورىّ ، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب ؛ وكان يقول على الكرسىّ إذا قرئ عليه : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : المناسبة علم حسن ، لكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ؛ فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان

---

(1) هو إبراهيم بن عمر برهان الدين البقاعى ، منسوب إلى البقاع ، من بلاد سوريا ، مؤرخ أديب توفى سنة ٨٨٥ . البدر الطالع ١ : ١٩

عن مثله حسنُ الحديث ، فضلا عن أحسنه ؛ فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة، فى أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض .

وقال الشيخ ولىّ الدين الملّوىّ : قد وهم من قال : لا يُطلب للآى الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المفرّقة . وفصلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلا ، فالمصحف على وفق ما فى اللوح المحفوظ ، مرتّبة سورُه كلُّها وآياته بالتوقيف ، كما أنزل جملة إلى بيت العزّة ؛ ومن المعجز البيّن أسلوبه ونظمه الباهر ، والّذى ينبغى فى كلّ آية أن يُبحث أوّل كل شىء عن كونها مكمّلة لما قبلها أو مستقلة ؛ ثم المستقلة ، ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففى ذلك علم جمٌّ ، وهكذا فى السُّوَر ، يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له . انتهى .

وقال الإمام الرازىّ فى سورة البقرة : ومَنْ تأمّل فى لطائف نظم هذه السورة ، وفى بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه ، وشرف معانيه ، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعلّ الذين قالوا : إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، إلاّ أنى رأيتُ جمهور المفسّرين معرِضين على هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار ، وليس الأمر فى هذا الباب إلا كما قيل :

والنّجمُ تَستصغر الأبصار صورتَهُ   والذّنب للطَّرف لا للنّجمِ فى الصغرِ

فصـــل

والمناسبة فى اللغة المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها فى الآيات ونحوها إلى معنًى رابط بينها، عامّ أو خاصّ، عقلىّ أو حسىّ أو خيالىّ أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهنىّ ، كالسّبب والمسبب ، والعلّة والمعلول ، والنظيرين والضدّين ، ونحوه .

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكَم المتلائم الأجزاء ، فنقول :

ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهرَ الارتباط ، لتعلُّق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح . وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل ؛ وهذا القسم لا كلام فيه .

وإما ألاَّ يظهر الارتباط ، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به .

فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة فى الحكم أولا ؛ فإن كانت معطوفة فلابد أن يكون بينهما جهة جامعة على ماسبق تقسيمه كقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾(١) ، وقوله : ﴿ وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٢) ، للتضادّ بين القبض والبسط ، والولوج والخروج ، والنزول والعروج ، وشِبه التضادّ بين السماء والأرض . ومما الكلام فيه التضادّ ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة ؛ وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ، ليكون باعثاً على العمل بما سبق ، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيهٍ ليُعلم عظم الآمر والناهى ، وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة تجده كذلك .

وإن لم تكن معطوفة ، فلابدّ من دعامة تؤذن باتصال الكلام ؛ وهى قرائن معنوية تؤذن بالربط .

* * *

ـ وله أسباب :

أحدها : التنظير ، فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء ، كقوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ عقب قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾(٣) ؛ فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضى لأمره فى الغنائم على كُرهٍ من أصحابه ، كما مضى لأمره فى خروجه من بيته لطلب العِير أو للقتال وهم له كارهون ، والقصد أنّ كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج ، وقد تبيّن فى الخروج الخير من الظفر والنصر والغنيمة وعزّ الإسلام ، فكذا يكون فيما فعله فى القسمة ، فليطيعوا ما أُمِروا به ويتركوا هوى أنفسهم .

---

(١) الحديد ٤ — (٢) البقرة ٢٤٥ — (٣) الأنفال ٤ ، ٥

الثانى : المضادّة ، كقوله فى سورة البقرة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾[1] الآية؛ فإن أوّل السورة كان حديثاً عن القرآن، وأنّ من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان ، فلمّا أكمل وصف المؤمنين عقّب بحديث الكافرين ؛ فبينهما جامع وهمىّ بالتضادّ من هذا الوجه ، وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل : « وبضدّها تتبيّن الأشياء » .

فإن قيل : هذا جامع بعيد ؛ لأن كونه حديثاً عن المؤمنين ، بالعرَض لا بالذات ، والمقصود بالذات الذى هو مساق الكلام ، إنما هو الحديث عن القرآن لأنه مفتتح القول .

قيل : لا يشترط فى الجامع ذلك ، بل يكفى التعلّق على أىّ وجه كان ، ويكفى وجه الربط ما ذكرنا ، لأنّ القصد تأكيد أمر القرآن والعمل به ، والحثّ على الإيمان ، ولهذا لمّا فرغ من ذلك قال : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[2] ، فرجع إلى الأوّل .

الثالث : الاستطراد ، كقوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[3] ؛ قال الزمخشرىّ : هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد ، عقب ذكر بدُوّ السوءات وخصف الورق عليهما ، إظهاراً للمنّة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العُرْيِ وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن السّتر باب عظيم من أبواب التقوى .

وقد خرّجت على الاستطراد قوله تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[4] ، فإنّ أول الكلام ذُكِر للردّ على النصارى الزاعمين نبوّة المسيح ، ثم استطرد للردّ على العرب الزاعمين بنوّة الملائكة .

ويقرب من الاستطراد حتى لا يكادان يفترقان حسنُ التخلّص ، وهو أن ينتقل مما

---

(١) البقرة ٦ (٢) البقرة ٢٣ (٣) الأعراف ٢٦
(٤) النساء ١٧٢

ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً ، دقيق المعنى ؛ بحيث لا يُشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلاّ وقد وقع عليه الثانى ، لشدّة الالتئام بينهما .

وقد غلط أبو العلاء محمد بن غانم فى قوله : لم يقع منه فى القرآن شىء لما فيه من التكلّف . وقال : إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم . وليس كما قال ، ففيه من التخلّصات العجيبة ما يحيّر العقول .

وانظر إلى سورة الأعراف ، كيف ذكر فيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة ، ثم ذكر موسى ، إلى أنْ قصّ حكاية السّبعين رجلا ودعائه لهم ، ولسائر أمته بقوله : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ ﴾ ، وجوابه تعالى عنه ، ثم تخلّص بمناقب سيّد المرسلين بعد تخلّصه لأمته بقوله : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ ﴾[١] من صفاتهم كيت وكيت ، وهم الذين يتبعون الرسول النبيّ الأمىّ . وأخذ فى صفاته الكريمة وفضائله .

وفى سورة الشعراء حكى قول إبراهيم : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ، فتخلّص منه إلى وصف المَعَاد بقوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ... ﴾ الخ[٢] .

وفى سورة الكهف حكى قولَ ذِى القرنين فى السدّ بعد دكّه الذى هو من أشراط الساعة ، ثم النفخ فى الصور وذكر الحشر ، ووصف مآل الكفار والمؤمنين .

وقال بعضهم : الفرقُ بين التخلّص والاستطراد ؛ أنك فى التخلّص تركت ما كنت فيه بالكلّية ، وأقبلت على ما تخلصت إليه ، وفى الاستطراد تمرّ بذكر الأمر الذى استطردتَ إليه مروراً كالبرق الخاطف ، ثم تتركه وتعود إلى ما كنتَ فيه كأنك لم تقصده ، وإنما عرض عروضاً .

قيل : وبهذا يظهر أنّ ما فى سورتِى الأعراف والشعراء من باب الاستطراد

---

(١) الأعراف ١٥٦ — (٢) الشعراء ١٨٧، ١٨٨

لا التخلّص ، اعوده فى الأعراف إلى قصّة موسى بقوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ ... ﴾ [1] إلى آخره . وفى الشعراء إلى ذكر الأنبياء والأمم .

ويقرب من حسن التخلص الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع ، مفصولاً بهذا ، كقوله فى سورة ص بعد ذكر الأنبياء : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [2] ، فإن هذا القرآن نوع من الذِّكر ، لما انتهى ذكر الأنبياء ، وهو نوع من التنزيل ، أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها ، ثم لما فرغ قال : ﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ [3] ، فذكر النار وأهلها .

قال ابن الأثير [4] : هذا فى هذا المقام من الفصل الذى هو أحسن من الوصل وهى علاقة أكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر .

ويقرب منه أيضاً حسن المطلب ، قال الزّنجانىّ والطِّيبىّ : وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة ، كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [5] .

قال الطِّيبىّ : وممّا اجتمع فيه حسن التخلّص والمطلب معاً قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [6] ، إلى قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

* * *

قاعـــدة

قال بعض المتأخّرين : الأمر الكلّى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن ،

---

(١) الأعراف ١٥٩ (٢) ص ٤٩ (٣) ص ٥٥

(٤) هو أبو الفتح نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد بن محمد بن عبد الواحد ضياء الدين بن الأثير ، صاحب كتاب المثل السائر ، ووزير الملك الأفضل نور الدين بن صلاح الدين . توفى سنة ٦٣٧

(٥) الفاتحة ٥ (٦) الشعراء ٧٧، ٧٨

هو أنك تنظر إلى الغرض الذى سِيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدّمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدّمات فى القُرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدّمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له ، التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلّى المهيمِن على حكْم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا فعلتَه تبيّن لك وجهُ النظم مفصّلا بين كل آية وآية فى كل سورة سورة . انتهى .

تنبيه

من الآيات ما أشكلت مناسبتها لما قبلها ، من ذلك قوله تعالى فى سورة القيامة : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . . ﴾[1] . الآيات ، فإن وجه مناسبتها لأوّل السورة وآخرها عَسِرٌ جدًّا ، فإن السورة كلها فى أحوال القيامة ؛ حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شىء ، وحتى ذهب القَفَّال[2] فيما حكاه الفخر الرازىّ ، أنها نزلت فى الإنسان المذكور قبلُ فى قوله : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[3] ، قال : يُعرَضُ عليه كتابه ، فإذا أخذ فى القراءة تلجلج خوفًا ، فأسرع فى القراءة ، فيقال له : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ إنّ علينا أن نجمع عملك ، وأن نقرأ عليك ، [فإذا قرأنا][4] ، فاتّبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ، ثم إنّ علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته . انتهى .

وهذا يخالفُ ماثبت فى الصحيح أنها نزلت فى تحريكِ النبىّ صلى الله عليه وسلم لسانَه حالة نزول الوحى عليه .

---

(١) القيامة ١٧

(٢) هو أبو بكر محمد بن إسماعيل الفقيه الشافعى الشاشى المعروف بالقفال الكبير ، صاحب المصنفات فى الفقه والأصول والتفسير . توفى سنة ٣٦٥ شذرات الذهب ٣ : ٥٢

(٣) القيامة ١٣ (٤) من ط

وقد ذكر الأئمة لها مناسبات :

منها أنه تعالى لما ذكر القيامة، وكان من شأن من يقصّر عن العمل لها حبُّ العاجلة، وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة ، فنبّه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ماهو أجلّ منه ؛ وهو الإصغاء إلى الوحى ، وتفهّم مايرد منه، والتشاغل بالحفظ قد يصدّ عن ذلك ، فأمر بألا يبادر إلى التحفّظ ؛ لأن تحفيظه مضمون على ربّه ، وليصغ إلى مايرد عليه إلى أن ينقضى فيتبع مااشتمل عليه . ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى مايتعلّق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه ، فقال : ﴿ كلاّ ﴾، وهى كلمة ردع كأنه قال : « بل أنتم يابنى آدم لكونكم خلقتم من عجل تعجلون فى كل شئ ومن ثَمّ تحبّون العاجلة » .

ومنها أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينيّة فى الدنيا التى تنشأ عنها المحاسبة، عملاً وتركاً ، كما قال فى الكهف: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾[١] إلى أن قال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ... ﴾[١] الآية ، وقال فى سبحان : ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾[٢] إلى أن قال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ ... ﴾[٢] الآية. وقال فى طه : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ إلى أن قال : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾[٣].

ومنها أن أول السورة لما نزل إلى ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾[٤] ، صادف أنه صلى الله عليه وسلم فى تلك الحالة، بادر إلى تحفّظ الذى نزل ، وحرّك به لسانه من عجلته خشيةً من تفلّته، فنزل ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ، ثم عاد إلى الكلام إلى تكملة ماابتدئ به .

---

(١) الكهف ٤٩ ، ٥٤ (٢) الإسراء ٧١ ، ٨٩ (٣) طه ١٠٢ ، ١١٤

(٤) القيامة ١٥ ـ ١٩

قال الفخر الرازى : ونحوه مالو ألقى المدرّس على الطالب مثلاً مسألة ، فتشاغل الطالب بشئ عرض له ، فقال له : ألق إلىّ بالك وتفهّمْ ماأقول ، ثم كمّل المسألة ؛ فمن لايعرف السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسباً للمسألة، بخلاف مَنْ عرف ذلك .

ومنها : أن «النفس» لمّا تقدّم ذكرُها فى أول السورة، عدَل إلى ذكر «نفس» المصطفى ، كأنه قيل : هذا شأن النفوس ، وأنت يامحمد نفسك أشرف النفوس ، فلتأخذ بأكمل الأحوال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ... ﴾[1] الآية ، فقد يقال : أىّ رابط بين أحكام الأهلّة وبين حكم إتيان البيوت ؟

وأجيب : بأنه من باب الاستطراد ، لمّا ذكر أنها مواقيت للحجّ ، وكان هذا من أفعالهم فى الحج ـ كما ثبت فى سبب نزولها ـ ذُكر معه من باب الزيادة فى الجواب على مافى السؤال ، كما سئل عن ماء البحر فقال : «هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته» .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ... ﴾ الآية ، فقد يقال : ماوجه اتصاله بما قبله وهو قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ... ﴾[2] الآية ؟

وقال الشيخ أبو محمد الجوينىّ[3] فى تفسيره : سمعت أبا الحسن الدهّان يقول : وجْه اتصاله ، هو أن ذكر تخريب بيت المقدس قد سبق ، أى فلا يجرمنّكم ذلك، واستقبلوه فإن لله المشرق والمغرب .

فصـــل

من هذا النوع مناسبة فواتح السور وخواتمها ، وقد أفردتُ فيه جزءاً لطيفاً سميته: « مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع » .

وانظر إلى سورة القصص كيف بدئت بأمر موسى ونصرته، وقوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ

---

(١) البقرة ١٨٩ (٢) البقرة ١١٤، ١١٥

(٣) هو أبو المعالى عبد الملك بن أبى عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى العراقى ، شيخ الغزالى ، وأعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى ، توفى سنة ٤٧٨ . ابن خلكا ١ : ٢٧٨

ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وخروجه من وطنه ، وخُتِمت بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بألّا يكون ظهيراً للكافرين ، وتسليته عن إخراجه من مكّة ، ووعده بالعَوْد إليها لقوله في أول السورة : ﴿ إنَّا رَادُّوهُ ﴾ [1] .

قال الزمخشريّ : وقد جعل الله فاتحة سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وأورد في خاتمتها ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [2] ؛ فشتّان ما بين الفاتحة والخاتمة !

وذكر الكِرْمانيّ في العجائب مثله .

وقال في سورة «ص» : بدأها بالذكر ، وختمها به في قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [3] .

وفي سورة «ن» بدأها بقوله : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ، وختمها بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [4] .

ومنه مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها ؛ حتى أن منها ما يظهر تعلّقها به لفظاً ، كما في ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [5] ، فقد قال الأخفش : اتصالها بها من باب ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [6] .

وقال الكواشيّ في تفسير المائدة : لما ختم سورة النساء أمراً بالتوحيد والعدل بين العباد أكّد ذلك بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [7] .

وقال غيره : إذا اعتبرتَ افتتاح كلّ سورة وجدتَه في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الأنعام بالحمد ، فإنه مناسب لختام المائدة من فصل القضاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [8] . وكافتتاح سورة فاطر بالحمد لله ، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله :

---

(١) القصص ٧ ، ١٧ — (٢) المؤمنون ١ ، ١١٧ — (٣) ص ٨٧

(٤) ن ٢ ، ٥١ — (٥) الفيل ٥ ، قريش ١ — (٦) القصص ٨

(٧) المائدة ١ — (٨) الزمر ٧٥

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾[1] ، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وكافتتاح سورة سورة الحديد بالتسبيح ، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به .

وكافتتاح سورة البقرة بقوله ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾، فإنه إشارة إلى الصراط فى قوله : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط، قيل لهم ذلك: الصراط الذى سألتم الهداية إليه هو الكتاب ، وهذا معنى حسن، يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة .

ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها ، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة ؛ فذكر فيها فى فى مقابلة البخل ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أى الخير الكثير ، وفى مقابلة ترك الصلاة ﴿فصلِّ﴾ أى دم عليها ، وفى مقابله الرياء ﴿لربِّك﴾ أى لرضاه ، لا للناس ، وفى مقابلة منع الماعون ﴿وانحر﴾ ، وأراد به التصدّق بلحم الأضاحى .

وقال بعضهم: لترتيب وضع السُّوَر فى المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفىّ صادر عن حكيم :

أحدُها بحسب الحروف، كما فى الحواميم .

الثانى ، لموافقة أول السورة لآخر ماقبلها ، كآخر الحمد فى المعنى وأول البقرة .

الثالث : للوزان فى اللفظ كآخر «تبّت» وأوّل «الإخلاص» .

الرابع : لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى كالضحى وألم نشرح .

قال بعض الأئمة : وسورة الفاتحة تضمّنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه فى دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهوديّة والنصرانية ، وسورة البقرة تضمّنت قواعدَ

---

(١) سبأ ٥٤ (٢) الأنعام ٤٥

الدين ، وآل عمران مكملة لمقصودها ، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم ، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ، ولهذا وردَ فيها ذكر المتشابه لما تمسَّك به النصارى . وأوجب الحجّ فى آل عمران ، وأمّا فى البقرة فذكر أنه مشروع ، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه ، وكان خطاب النصارى فى آل عمران أكثر ، كما أن خطاب اليهود فى البقرة أكثر ، لأن التوراة أصل ، والإنجيل فرع لها ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم لمّا هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم ، وكان جهادُه للنصارى فى آخر الأمر ، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ، ولهذا كانت السّوَر المكّية فيها الدين الذى اتفق عليه الانبياء ؛ فخوطب به جميع الناس ، والسُّوَر المدنيّة فيها خطاب من أقرّ بالانبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخوطبوا بيا أهل الكتاب ، يابنى اسرائيل ، يأيها الذين آمنوا ، وأما سورة النساء فتضمّنت أحكام الأسباب التى بين الناس ، وهى نوعان : مخلوقة لله ، ومقدُورة لهم كالنسب والصهر ، ولهذا افتتحت بقوله : ﴿ اتقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ثم قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ ، فانظر هذه المناسبة العجيبة فى الافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، حيث تضمّنت الآية المفتتح بها ما أكثر السّورة فى أحكامه : من نكاح النساء ومحرّماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام ، وأنّ ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم ، ثم خلق زوجه منه ، ثم بثّ منهما رجالا ونساء فى غاية الكثرة . وأمّا المائدة فسُورة العقود تضمّنت بيان تمام الشرائع ، ومكملّات الدين ، والوفاء بعهود الرسل ، وما أخذ على الأمة ، وبها تم الدّين ، فهى سورة التكميل ؛ لأن فيها تحريم الصيد على المحرِم الذى هو من تمام الإحرام ، وتحريم الخمر الذى هو من تمام حفظ العقل والدّين ، وعقوبة المعتدين من السّرّاق والمحاربين الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال وإحلال الطّيبات الذى هو من تمام عبادة الله تعالى ، ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، كالوضوء والتيمّم ، والحكم بالقرآن على كلّ دين ، ولهذا كثر فيها من لفظ الإكمال والإتمام ، وذكر فيها أنّ مَن ارتدّ عوّض الله بخير منه ، ولا يزال هذا الدّين كاملا ، ولهذا ورد أنها آخر ما نزل لما فيها من إشارات الختم

بالتمام . وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيّات من أحسن الترتيب .

وقال : أبو جعفر بن الزبير : حكى الخطّابى أنّ الصحابة لما اجتمعوا على القرآن ، وضعوا سورة القَدْر عقِب العَلق ، استدلّوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية فى قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ الإشارة إلى قوله: « اقْرَأْ » ، قال القاضى أبو بكر ابن العربى : وهذا بديع جدًّا .

* * *

فصل

قال فى البرهان : ومن ذلك افتتاح السّور بالحروف المقطّعة واختصاص كلّ واحدة بما بُدئت به ؛ حتى لم يكن لترد « الٓم » فى موضع « الر » ولا « حمٓ » فى موضع « طس » .
قال : وذلك أن كلّ سورة بدئت بحرف منها، فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثلٌ له ، فحقّ لكل سورة منها ألاّ يناسبها غير الواردة فيها ، فلو وضع « قٓ » موضع « نٓ » لعُدِمَ التناسب الواجب مراعاتهُ فى كلام الله ، وسورة « قٓ » بدئت به ، لما تكرّر فيها من الكلمات بلفظ القاف، من ذكر القرآن والخلق وتكرير القول ومراجعته مراراً ، والقُرْب من ابن آدم وتلقّى الملكين ، وقول العتيد ، والرقيب ، والسائق والإلقاء فى جهنم ، والتقدّم بالوعد ، وذكر المتقين ، والقلب والقرون ، والتنقيب فى البلاد ، وتشقّق الأرض ، وحقُوق الوعيد وغير ذلك .

وقد تكرّر فى سورة يونس من الكلم الواقع فيها « الراء » مائتا كلمة ، أو أكثر فلهذا افتتحت بـ « الرٓ » .

واشتملت سورة « صٓ » على خصومات متعددة ، فأولها خصومة النبى صلى الله عليه وسلم مع الكفّار ، وقولهم : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾[1]، ثم اختصام الخصمين عند داود ، ثم تخاصم أهلِ النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى ، ثمّ تخاصم إبليس فى شأن آدم ، ثم فى شأن بنيه وإغوائهم .

(١) ص ٥

و « الم » جمعت المخارج الثلاثة: الحلق ، واللسان ، والشفتين على ترتيبها ،وذلك إشارة إلى البداية التى هى بدء الخلق ، والنهاية التى هى بدء الميعاد ، والوسط الذى هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهى،وكل سورة افتتحت بها فهى مشتملة على الأمور الثلاثة.

وسورة الأعراف زيد فيها الصاد على « الم » ، لما فيها من شرح القصص ؛ قصة آدم فمن بعده من الأنبياء ؛ ولما فيها من ذكر ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ ، ولهذا قال بعضهم : معنى « لمص » ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .

وزيد فى الرعد راء لأجل قوله: ﴿ رَفَعَ السَّمَوَاتِ ﴾، ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما .

واعلم أن عادة القرآن العظيم فى ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها مايتعلق بالقرآن كقوله : ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ ﴿ الم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾، ﴿ المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ، ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ، ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ ، ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ ﴾ ، ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ﴾ ، ﴿ حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ ، ﴿ ق وَالْقُرْآنِ ﴾ ، إلا ثلاث سور : العنكبوت ، والروم ، ون ، ليس فيها مايتعلق به ، وقد ذكرت حكمة ذلك فى «أسرار التنزيل» .

وقال الحرالى فى معنى حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف : زاجر ، وآمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال » : اعلم أن القرآن منزل عند انتهاء الخلق ، وكمال كل الأمر ، بدأ فكان المتخلق به جامعاً لانتهاء كل خلق ؛ وكمال كل أمر ، فلذلك هو صلى الله عليه وسلم قثم الكون ؛ وهو الجامع الكامل ، ولذلك كان خاتماً ، وكتابه كذلك ، وبدأ المعاد من حين ظهوره ، فاستوفى صلاح هذه الجوامع الثلاث التى قد خلت فى الأولين بداياتها ، وتمت عنده غاياتها : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وهى صلاح الدنيا والدين والمعاد التى جمعها قوله عليه الصلاة والسلام: « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح

(١) البرهان ١: ١٦٩ ، ١٧١ بتصرف .

لى آخرتى التى إليها معادى ». وفى كل صلاح إقدام وإحجام، فتصير الثلاثة الجوامع ستّة، هى حروف القرآن الستّة، ثم وُهب حرفاً جامعاً سابعاً فرداً، لازوج له، فتمّت سبعة، فأدنى تلك الحروف هو حرفا صلاح الدنيا، فلها حرفان: حرف الحرام الذى لا تصلح النفس والبدن إلاّ بالتطُّهر منه لبعده عن تقويمها، والثانى: حرف الحلال الذى تصلح النفس والبدن عليه لموافقته تقويمها، وأصل هذين الحرفين فى التوراة، وتمامهما فى القرآن.

ويلى ذلك حرفا صلاح المعاد، أحدهما: حرف الزجر والنهى، الذى لا تصلح الآخرة إلاّ بالتطّهر منه لبعده عن حُسْناها والثانى: حرف الأمر الذى تصلح الآخرة عليه لتقاضيه لحسناها، وأصل هذين الحرفين فى الإنجيل وتمامهما فى القرآن.

ويلى ذلك حرفا صلاح الدين: أحدهما حرف المحكَم الذى بان للعبد فيه خطاب ربّه، والثانى حرف المتشابه الذى لا يتبيّن للعبد فيه خطاب ربّه من جهة قصور عقله عن إدراكه.

فالحروف الخمسة للاستعمال، وهذا الحرف السادس للوقوف والاعتراف بالعجز، وأصل هذين الحرفين فى الكتب المتقدّمة كلّها، وتمامهما فى القرآن، ويختصّ القرآن بالحرف السابع الجامع وهو حرف المثل المبين للمثل الأعلى. ولمّا كان هذا الحرف هو الحمد افتتح الله به أمّ القرآن، وجمع فيها جوامع الحروف السبعة التى بثّها فى القرآن، فالأُولى تشتمل على حرف الحمد السّابع، والثانية تشتمل على حرفى الحلال والحرام اللّذَيْنِ أقامت الرحمانية بهما الدنيا، والرحيميّة الآخرة، والثالثة تشتمل على أمر الملك القيّم على حرفَى النهى اللذين يبدأ أمرهما فى الدين، والرّابعة تشتمل على حرفَىِ المحكم فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والمتشابه فى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولمّا افتتح أمّ القرآن بالسّابع الجامع الموهوب ابتدئت البقرة بالسادس المعجوز عنه وهو المتشابه.

انتهى كلام الحرالىّ. والمقصود منه هو الأخير، وبقيته ينبو عنه السمع، وينفر منه القلب، ولا تميل

إليه النفس ، وأنا استغفر الله من حكايته ؛ على أنى أقول فى مناسبة ابتداء البقرة بـ « الٓمٓ » أحسن مما قال ، وهو أنه لمـا ابتدئت الفاتحة بالحرف المحكم الظاهر لكل أحد بحيث لا يعذر أحد فى فهمه، ابتدئت البقرة بمقابله ، وهو الحرف المتشابه البعيد التأويل، أو المستحيله .

فصـــل

ومن هذا النوع مناسبة أسماء السور لمقاصدها ، وقد تقدم فى النوع السابع عشر الإشارة إلى ذلك . وفى عجائب الكرمانى : إنما سميت السور السبع « حمٓ » على الاشتراك فى الاسم ، لما بينهن من التشاكل الذى اختصت به ؛ وهو أن كل واحدة منها استُفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب ؛ مع تقارب المقادير فى الطول والقصر ، وتشاكل الكلام فى النظام .

فوائد منثورة فى المناسبات

فى تذكرة الشيخ تاج الدين السبكى — ومن خطه نقلت : سأل الإمام : ما الحكمة فى افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح ، والكهف بالتحميد؟ وأجاب بأن التسبيح — حيث جاء — مقدم على التحميد ، نحو ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ سُبْحَانَ الله والحمدُ للهِ ﴾ .

وأجاب ابن الزملكانى : بأن سورة « سبحان » لما اشتملت على الإسراء الذى كذّب المشركون به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبُه تكذيب لله سبحانه وتعالى ، أتى « بسبحان » لتنزيه الله تعالى عمّا نُسب إلى نبيّه من الكذب ، وسورة الكهف لمّا أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصّة أصحاب الكهف وتأخر الوحى ، نزلت مبيّنة أنّ الله لم يقطع نعمته عن نبيّه ولا عن المؤمنين ، بل أتمّ عليهم النعمة بإنزال الكتاب ، فناسب افتتاحَها بالحمد على هذه النعمة .

فى تفسير الخُوَيّى ابتدئت الفاتحة بقوله : ﴿ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ ، فوصَفَ بأنه مالك جميع المخلوقين ، وفى الأنعام والكهف وسبأ وفاطر لم يوصَف بذلك ،

بل بفرد من أفراد صفاته ، وهو خَلْق السَّموَات وَالأَرْضِ وَالظُّلُمات وَالنور فى الأنعام ، وإنزال الكتاب فى الكهف ، وملْك مافى السموات ومافى الأرض فى سبأ ، وخلقهما فى فاطر ؛ لأنّ الفاتحة أم القرآن ومطلعه ، فناسب الإتيان فيها بأبلغ الصفات وأعمّها وأشملها .

فى العجائب للكرمانىّ : إن قيل : كيف جاء «يسألونك» أربع مرات بغير واو: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾[1]، ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾[2]، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾[3]، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ ﴾[4]، ثم جاء ثلاث مرات بالواو : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾[5]، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾[6]، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾[7] ؟ . قلنا : لأنّ سؤالهم عن الحوادث الأُوَل وقع متفرّقاً ، وعن الحوادث الأُخَر وقع فى وقت واحد ، فجئ بحرف الجمع دلالة على ذلك .

فإن قيلَ : كيف جاء ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ ﴾[8] ، وعادة القرآن مجئ « قل » فى الجواب بلا فاء؟ أجاب الكرمانىّ بأنّ التقدير : « لو سئلت عنها فقل » .

فإن قيل : كيف جاء ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[9]، وعادة السؤال يجئ جوابه فى القرآن « بقل » ؟ قلنا : حذفت للإشارة إلى أن العبد فى حالة الدعاء فى أشرف المقامات ، لا واسطة بينه وبين مولاه .

ورَد فى القرآن سورتان: أولهما ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾[10] فى كل نصفِ سورة، فالتى فى النصف الأول تشتمل على شرح المبدأ ، والتى فى الثانى على شرح المعاد .

---

(١) البقرة ١٨٩ (٢) البقرة ٢١٩ ، (٣) البقرة ٢١٧
(٤) البقرة ٢١٩ (٥) البقرة ٢١٩ (٦) البقرة ٢٢٠
(٧) البقرة ٢٢٢ (٨) طه ١٠٥ (٩) البقرة ١٨٦
(١٠) هما سورتان النساء والحج

النوع الثالث والستون

في الآيات المشتبهات

أفرده بالتصنيف خلق ، أولهم - فيما أحسب - الكِسائيّ ، ونظمه السخاويُّ ، وألف في توجيهه الكِرْمانيّ كتابه «البرهان متشابه القرآن»[1] ، وأحسن منه «درّة التنزيل وغرّة التأويل»[2] لأبي عبد الله الرّازيّ ، وأحسن من هذا «مِلاكُ التأويل» لأبي جعفر ابن الزبير[3] ، ولم أقِفْ عليه ، وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب لطيف سمّاه «كشف المعاني عن متشابه المثاني»[4] ، وفي كتابي أسرار التنزيل المسمى «قطف الأزهار في كشف الأسرار» من ذلك الجمّ الغفير.

والقصد به إيراد القصّة الواحدة في صور شتّى ، وفواصل مختلفة ، بل تأتي في موضع واحد مقدّماً ، وفي آخر مؤخراً ، كقوله في البقرة : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[5] ، وفي الأعراف : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾[6] . وفي البقرة : ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾[7] ، وسائر القرآن ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾[8] .

أو في موضع بزيادة ، وفي آخر بدونها ، نحو ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾[9] في البقرة وفي يس ﴿وَسَوَاءٌ عليهمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾[10] . وفي البقرة ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ﴾[11] وفي الأنفال ﴿كُلُّهُ لِلهِ﴾[12] .

---

(١) ذكره صاحب كشف الظنون ، وقال : للشيخ برهان الدين أبو القاسم محمود بن حمزة الكرماني ، المتوفى بعد سنة خمسمائة.

(٢) ذكره أيضاً صاحب كشف الظنون ، وقال : للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ ، تكلم فيه على الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة التي يقصد الملحدون التطرق منها إلى عيبها.

(٣) منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

(٤) ذكره صاحب كشف الظنون.
(٥) البقرة ٥٨
(٦) الأعراف ١٦١
(٧) البقرة ١٧٣
(٨) المائدة ١٤٥
(٩) البقرة ٦
(١٠) يس ١٠
(١١) البقرة ١٩٣
(١٢) الأنفال ٣٩

أو فى موضع معّرفا ، وفى آخر منكّراً ، أومفرداً وفى آخر جمعاً ، أو بحرف وفى آخر بحرفٍ آخر ، أومدغماً وفى آخر مفكوكاً ، وهذا النوع يَتداخل مع نوع المناسبات.

وهذه أمثلة منه بتوجيهها :

قوله تعالى فى البقرة : ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وفى لقمان ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ...﴾[2] لأنه لمّا ذكر هنا مجموع الإيمان ناسب « المتقين » ، ولمّا ذكر ثَمَّ الرحمة ناسب « المحسنين » .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ﴾[3]، وفى الأعراف ﴿فَكُلاَ﴾[4] بالفاء ، قيل : لأن السكنى فى البقرة الإقامة ، وفى الأعراف اتخاذ المسكن ، فلمّا نسب القول إليه تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ﴾ ناسب زيادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل ، ولذا قال فيه « رغداً » ، وقال: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ،لأنه أعمّ . وفى الأعراف ﴿وَيَاآدَمُ﴾، فأتى بالفاء الدالّة على ترتيب الأكل على السّكنَى المأمور باتخاذها ، لأن الأكل بعد الاتخاذ ، و ﴿من حيث﴾ لا تعطى عموم معنى ﴿حَيْثُمَا شِئْتُمَا﴾ .

قوله تعالى : ﴿واتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شفاعةٌ ولا يؤخذ مِنهَا عدلٌ﴾[5]، وقال بعد ذلك : ﴿ولاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ولا تَنْفَعُهَا شَفَاعَة﴾[6] ففيه تقديم العدل وتأخيره ، والتعبير بقبول الشفاعة تارة وبالنفع أخرى ، وذُكر فى حكمته أنّ الضمير فى « منها » راجع فى الأولى إلى النفس الأولى ، وفى الثانية إلى النفس الثانية ، فبيّنَ فى الأولى أنّ النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا يُقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عَدْل ، وقدّمت الشفاعة لأنّ الشافع يقدم الشفاعة على العدل ، وبيّن فى الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها

---

(١) البقرة ٢ (٢) لقمان ٣ (٣) البقرة ٣٥
(٤) الأعراف ١٩ (٥) البقرة ٤٨ (٦) البقرة ١٢٣

لا يقبل منها عدل عن نفسها ، ولا تنفعها شفاعة شافع منها ، وقدّم العَدْل لأن الحاجة إلى الشفاعة إنّما تكون عند ردّه ، ولذلك قال فى الأولى : ﴿ لا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَة ﴾ وفى الثانية : ﴿ وَلا تَنْفَعُها شَفَاعَة ﴾ ، لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع ، وإنما تنفع المشفوع له .

قوله تعالى : ﴿ وإذْ نَجَّيْنا كُمْ مِنْ آلَ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوء الْعَذَاب يُذَبِّحُونَ ﴾[1] وفى إبراهيم ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾[2] بالواو ، لأن الأولى من كلامه تعالى لهم ، فلم يعدّد عليهم المحن تكرّماً فى الخطاب ، والثانية من كلام موسى فعدّدها . وفى الأعراف ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾[3] وهو من تنويع الألفاظ المسمّى بالتفنّن .

قوله تعالى: ﴿ وإذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَة .. ﴾[4] الآية ، وفى آية الأعراف اختلاف ألفاظ ، ونكتته أن آية البقرة فى معرض ذكر النّعم عليهم حيث قال : ﴿ يا بَنِي اسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ إلى آخره ، فناسب نسبة القول إليه تعالى ، وناسب قوله : « رغداً » لأن النعم به أتمّ ، وناسب تقديم ﴿ وادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ﴾[5] وناسب « خطاياكم » لأنه جمع كثرة ، وناسب الواو فى « وسنزيد » لدلالتها على الجمع بينهما ، وناسب الفاء فى « فكلوا » لأن الأكل مترتّب على الدخول . وآية الأعراف افتتحت بما فيه توبيخهم وهو قولهم : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾[6] ، ثم اتخاذهم العجل ، فناسب ذلك ﴿ وَإذَ قِيلَ لَهُمْ ﴾[7] ، وناسب ترك « رغداً » . والسكنى تجامع الأكل ، فقال: ﴿ وَكُلُوا ﴾، وناسب تقديم ذكر مغفرة الخطايا وترك الواو فى « سنزيد » . ولمّا كان فى الأعراف تبعيض الهادين بقوله : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ

---

(١) البقرة ٤٩ (٢) إبراهيم ٦ (٣) الأعراف ١٤١
(٤) البقرة ٥٨ (٥) البقرة ٤٧ (٦) الأعراف ١٣٨
(٧) الأعراف ١٦١

بالحقِّ ﴾ [١] فناسب تبعيض الظالمين بقوله : ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [١] ، ولم يتقدّم فى البقرة مثله فترك . وفى البقرة إشارة إلى سلامة غير الذين ظلموا لتصريحه بالإنزال على المتّصفين بالظلم ، والإرسال أشدّ وقعاً من الإنزال ، فناسب سياق ذكر النعمة فى البقرة ذلك ، وختْم آية البقرة بـ ﴿ يفسقون ﴾ [٢] ، ولا يلزم منه الظلم ، والظّلم يلزم منه الفسق ، فناسب كل لفظة منها سياقه .

وكذا فى البقرة : ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ [٣] ، وفى الأعراف ﴿ انْبَجَسَتْ ﴾ [٤] لأن الانفجار أبلغ فى كثرة المـاء ، فناسب سياق ذكر النعم التعبير به .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً ﴾ [٥] ، وفى آل عمران ﴿ مَعْدُودَاتٍ ﴾ [٦] قال ابن جماعة : لأن قائل ذلك فرقتان من اليهود ، إحداهما قالت : إنّما نعذّب بالنار سبعة أيام عدد أيام الدنيا ، والأخرى قالت : إنما نعذب أربعين عدة أيام عبادة آبائهم العجل ، فآية البقرة تحتمل قصْد الفرقة الثانية حيث عبّر بجمع الـكثرة ، وآل عمران بالفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلة .

وقال أبو عبد الله الرازىّ : إنّه من باب التفنّن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ [٧] ، وفى آل عمران ، ﴿ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ ﴾ [٨] ؛ لأن الهدى فى البقرة المراد به تحويل القبلة ، وفى آل عمران المراد به الدّين لتقدّم قوله : ﴿ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [٨] ، ومعناه إن دين الله الإسلام .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَداً آمِناً ﴾ [٩] ، وفى إبراهيم ﴿ هٰذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ [١٠]

---

(١) الأعراف ١٥٩ ، ١٦٢ (٢) البقرة ٥٩ (٣) البقرة ٦٠
(٤) الأعراف ١٦٠ (٥) البقرة ٨٠ (٦) آل عمران ٢٤
(٨) البقرة ١٢٥ (٨) آل عمران ٧٢ (٩) لبقره ١٢٦ ٢
(١٠) إبراهيم ٣٥

لأن الأول دعا به قبل مصيره بلداً عند ترك هاجر وإسماعيل به ، وهو وادٍ ، فدعا بأن يصير بلداً ، والثانى دعا به بعد عوده وسكنى جرهم به ومصيره بلداً فدعا بأمنه .

قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾[1]، وفى آل عمران ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾[2]، لأن الأولى خطابٌ للمسلمين ، والثانية خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، و « إلى » يُنتهى بها من كلّ جهة و « على » لا يُنتهى بها إلاّ من جهة واحدة وهى العلوّ ، والقرآن يأتى المسلمين من كلّ جهة يأتى مبلّغه إياهم منها وإنما أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم [من جهة العلوّ خاصة ، فناسب قوله : « علينا » ، ولهذا أكثر ماجاء فى جهة النبىّ صلى الله عليه وسلم][3] بـ « على » ، وأكثر ماجاء فى جهة الأمة بـ « إلى » .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾[4]، وقال بعد ذلك ، ﴿ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾[5] ؛ لأنّ الأولى وردت بعد نواهٍ فناسب النّهى عن قربانها والثانية بعد أوامر ، فناسب النهى عن تعدّيها وتجاوزها بأن يوقف عندها .

قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾[6]، وقال: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾[6] لأنّ الكتاب أُنزِل مُنجماً فناسب الإتيان بـ « نزّل » الدالّ على التكرير بخلافهما ؛ فإنهما أنزلا دفعة .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ ﴾[7]، وفى الإسراء ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ﴾[7]، لأن الأولى خطاب للفقراء المقلّين ، أى لاتقتلوهم من فقر بكم ، فحسن ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ ﴾ ، مايزول به إملاقكم ، ثم قال « وإياهم » ، أى نرزقكم جميعاً ، والثانية خطاب للأغنياء ، أى خشية فقرٍ يحصل لكم بسببهم ، ولذا حسن ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[8] .

---

(١) البقرة ١٣٦ — (٢) آل عمران ٨٤ — (٣) تكملة من ط
(٤) البقرة ١٨٧ — (٥) البقرة ٢٢٩ — (٦) آل عمران ٣
(٧) الأنعام ١٥١ — (٨) الإسراء ٣١

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]، وفى فصّلت ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[2]. قال ابن جماعة : لأنّ آية الأعراف نزلت أوّلا ، وآية فصّلت نزلت ثانياً ، فحسُن التعريف، أى هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الّذى تقدّم ذكره أوّلا عند نزوغ الشيطان .

قوله تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾[3]، وقال فى المؤمنين: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[4] ، وفى الكفار: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[5] ، لأنّ المنافقين ليسوا متناصرين على دين معيّن وشريعة ظاهرة ؛ فكان بعضهم يهودا ، وبعضهم مشركين ، فقال :﴿ من بعض ﴾ ، أى فى الشك والنفاق ، والمؤمنون متناصرون على دين الإسلام ، وكذلك الكفار المعلنون بالكفر كلّهم أعوان بعضهم ومجتمعون على التناصر بخلاف المنافقين، كما قال تعالى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾[6] .

فهذه أمثلة يُستضاء بها ، وقد تقدّم منها كثير فى نوع التقديم والتأخير ، وفى نوع الفواصل ، وفى أنواع أخَر .

تم الجزء الثالث من كتاب الإتقان فى علوم القرآن ، ويليه الجزء الرابع

وأوله النوع الرابع والستون

فى إعجاز القرآن

---

(١) الأعراف ٢٠٠ (٢) فصلت ٣٦ (٣) التوبة ٦٧
(٤) التوبة ٧١ (٥) الأنفال ٧٣ (٦) الحشر ١٤

فهرس الموضوعات

النوع الثالث والأربعون

* * *

النوع السابع والخمسون

النوع الثامن والخمسون

في بديع القرآن ٢٤٩—٢٨٩